القصص القرآني

قراءة معاصرة

المجلد الثاني

من نوح إلى يوسف

د. محمّد شحرور

القصص القرآني

قراءة معاصرة

تصميم الغلاف: سحر مغنية

د. محمّد شحرور

القَصَصُ القُرآني

قراءة معاصِرة

الجزء الثاني

من نوح إلى يوسف



الطبعة الأولى ٢٠١٢

ISBN 978-1-85516-807-7

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١ ٠٠، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١ ٠٠
e-mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

المحتويات



تقديم الكتاب

ها نحن نضع بين يدي القارئ الكريم الجزء الثاني من سلسلة «القصص القرآني»، الذي يحوي قصص نوح وهود وصالح وشعيب، وأنباء إبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف. بعد أن أصدرنا قبل حين الجزء الأول، وبدأنا فيه أولى الخطوات مع قصة آدم على الطريق الذي رسمته لنا النبوّات والرسالات، وأكدته الحفريات الآثارية والدراسات التاريخية الموثّقة، وشرحنا العديد من المفردات والمصطلحات كما قرأناها وفهمناها في آيات التنزيل الحكيم، كالجنة في قوله تعالى ﴿. . . يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ. . .﴾ (البقرة ٣٥، الأعراف ١٩). ونفخة الروح في قوله تعالى ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ. . .﴾ (السجدة ٩). والهبوط من الجنة في قوله تعالى ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ. . .﴾ (البقرة ٣٦).

نتابع في هذا الجزء السير على طريق النبوّات لنرى كيف تراكمت علوم النبوّة ومعارفها، وكيف اكتشف الإنسان النار ودفْن الموتى، ثم كيف تعلم على يد نوح اجتياز الحواجز المائية، وعلى يد شعيب الوفاء بالكيل والميزان، وعلى يد يوسف ادخار محاصيل مواسم الخير لأيام القحط.

كما نتابع السير على طريق الرسالات لنرى كيف تنوّعت الشرائع وتطوّرت من شرائع حدِّية إلى شرائع حدودية مع مَيْل واضح إلى التسهيل والتخفيف، وكيف اختلفت الشعائر - من حيث الشكل - في صورتها التعبّدية، فالصوم كان صوماً عن الكلام مطلقاً، وصار صوماً عن الطعام والشراب وملامسة النساء

واجتناب الكلام البذيء والفاحش، والصلاة كانت دعاءً وذكراً، ثم أخذت شكلاً شعائرياً قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً يُشترَط فيها الخشوع.

لقد جهدنا بهذا الكتاب في التعرف على ما كتب عن هؤلاء الأنبياء والرُّسل من معلومات تاريخية ووثائق آثارية، وعرّجنا على العهد القديم والعهد الجديد، واقتطفنا بعض ماقيل عنهم، وأشرنا إلى الاختلافات في الروايات التي تصل أحياناً إلى حد التناقض، وتركنا للقارئ مقارنتها بما كتبه القرآن الكريم عنهم في قصصه، لعله يرى بنفسه مصداق قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النمل ٧٦). ولاعجب في ذلك، فقد سُمِّيَ القرآنُ قرآناً لأنه قرن بين الأحداث التاريخية كما في قوله تعالى ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ (البروج ١٧، ١٨)، وبين الأحداث الكونية كما في قوله تعالى ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ (الغاشية ١)، وسُمّي القرآن حديثاً للسبب نفسه، تحدّى به سبحانه المكذبين في قوله تعالى ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ (الطور ٣٤)، وتعهّد بحسابهم في قوله تعالى ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ...﴾ (القلم ٤٤).

يبقى أن نشير أخيراً إلى أن القصد الإلهي الوحيد من القصص القرآني بما فيه القصص المحمدي هو التفكّر والتدبُّر واستخلاص العِبَر والعِظات. وإذا كنا قد استطعنا بعد التأمل - بفضل من اللّه وهدى - ونحن نقرأ قوله تعالى ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ...﴾ (إبراهيم ٣٧)، أن نستنتج أن البيت المحرَّم كان قائماً في وادٍ قاحل لاشجر فيه ولاماء حين وصل إليه إبراهيم في نهاية سفره، وكان معروفاً ومأهولاً، وأن القواعد التي أشار إليها سبحانه في قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ...﴾ (البقرة ١٢٧)، ليست الأساسات التي تقوم عليها الأبنية عادة كما توهَّم المفسّرون، بل هي الإشغالات، بدليل ثلاثة أمور:

١ - لو كان رفع القواعد هو إقامة الأساسات لكان معنى ذلك أن البيت الحرام لم يكن موجوداً من قبل، وهذا يتعارض عمودياً مع الآية ٣٧ من سورة إبراهيم.

٢ - ولكان معنى ذلك أن اللّه أمر إبراهيم وإسماعيل ببناء البيت، وهذا يتعارض عمودياً أيضاً مع قوله تعالى ﴿. . . وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (البقرة ١٢٥)، ونفهم أن التكليف الإلهي نزل بتطهير البيت وليس ببنائه، والتطهير لايكون إلا للأبنية القائمة فعلاً.

٣ - ذرّية إبراهيم التي أسكنها عند البيت المحرَّم، طبقاً للآية ٣٧ من سورة إبراهيم، كانت تشمل زوجته هاجر ورضيعها إسماعيل، أما في آيتي البقرة ١٢٥، ١٢٧ فإسماعيل شاب بلغ أشُدَّه في سنّ يصحّ معها التكليف بالتطهير، أي أن بين الآيتين فترة زمنية لا تقلّ عن عشرين عاماً. ولا يُعقَل أن يساعد إسماعيل أباه في رفع أساسات بيت كان قائماً قبل عشرين عاماً.

وإذا كنا بعد التأمل قد استطعنا - بهدى من اللّه ونعمة - ونحن نقرأ في قصة يوسف أن يعقوب وأبناءه كانوا من الرعاة، بدلالة ذكر الجُبِّ والذئب في القصة، وأنهم أنفسهم الذين حكموا مصر تحت اسم الهيكسوس، وهم أنفسهم أسباط إسرائيل الإثني عشر الذين قتل الفراعنة أبناءهم واستحيوا نساءهم ثم دعوا اللّه مبتهلين فأرسل موسى وهارون ليخلصهم ويعيد إليهم حريتهم بعد طول استعباد.

نقول إذا كنا قد استطعنا ذلك، فما هو إلا قطرة من بحر العِبَر والعِظات التي يطفح بها القصص القرآني، وما هو إلا بداية متواضعة على طريق فهم تلك العبر واستخلاصها بانتظار أن يكتشفها الباحثون على مرّ التاريخ. والحمد للّه ربّ العالمين.

دمشق في ١٣ فبراير - شباط ٢٠١١.

الدكتور محمّد شحرور



تمهيد

يبدأ التمهيد بسؤال: ماذا حصل في الفترة الواقعة بعد الهبوط الثاني بين الإنسان العاقل الذي هو أجدادنا، وبين نوح؟ لقد بيّنت الأبحاث والتحرّيات بأن هذا حصل منذ حوالي أربعين ألف سنة حين انقرض إنسان نياندرتال وبقي أجدادنا نتيجة قفزة التجريد التي بينّها قوله تعالى ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (البقرة ٣٧) ثم جاء بعدها الهبوط الثاني ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٣٨).

وهذا الهدى جاء بدايةً على شكل نُذُر من الملائكة كان اللّه يبعثهم في قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر ٢٤) وقد استمرت النُّذر مع نوح ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون ٢٤)، ومع هود ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ (الأحقاف ٢١) وإلى إبراهيم وإلى لوط وإلى صالح.

وكانت النُّذر تأتي على شكل مُشخَّص يعرفون أنها ليست منهم وإنما هي مرسلة من السماء. ونحن نرى في الأطروحة القديمة أن الحكام جاؤوا من السماء وأنهم من دم آخر رواية أسطورية لمفهوم النذُر الواردة في التنزيل الحكيم.

وبما أن نوح هو أول رسول من جنس البشر فهذا يعني أن البشرية تطورت إلى حد وجود لغة بسيطة في مجتمع بسيط يمكن أن يكون فيه وحي ومفاهيم

كالتوحيد وبرّ الوالدين والإيمان ومظاهر الطبيعة وكالملأ والأراذل .

أما عن العهد الذي سبق نوح وذُكر في التنزيل الحكيم فيتمثل في:

١ - دفن الموتى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (المائدة).

٢ - اكتشاف النار واستعمالها: حيث كانت من حرائق الغابات وشاهدها الإنسان لمدة طويلة واكتشف خواصّها بالمشاهدة وذلك في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس ٨٠). هذه الآية تتحدث عن أن الإنسان تعلّم إشعال النار من حرائق الغابات. أما كيف أشعل الإنسان النار بنفسه بالاحتكاك أي بدون أن يكون هناك نار ليقتبس منها فقد جاء بشكل متأخّر عن استعمال الإنسان للنار[١].

وعلينا أن نتذكر ما هي المدّة الطويلة التي قطعها الإنسان حينما ولّد طاقة حرارية من طاقة ميكانيكية (الاحتكاك) حتى وصل إلى توليد قوة ميكانيكية من طاقة حرارية (المحرِّك البخاري) علماً بأن اختراع المحرِّك البخاري يُعدُّ من أهمّ ثورات المعرفة في التاريخ الإنساني.

---

(١) يجب التنويه هنا بأن تحرّيات حديثة جرت في جنوب أفريقيا وجدت آثاراً تُبيِّن أن الإنسان استعمل النار منذ حوالي ثمانمائة ألف سنة، وقد استعملها للطهو وهي التي هيأت لنفخة الروح فيما بعد، حيث إن الطعام المطهوّ يعطي طاقة للجسم تزيد بحوالي ٢٠ - ٢٥٪ عن الطعام غير المطهوّ لنفس الكمّية، مما سمح للجهاز الهضمي بأن يصغر وللدماغ بأن ينمو لأنه يستهلك وحده ٢٠٪ من استهلاك طاقة الجسم كله، ومنه ينتج أن الإنسان أشعل النار بنفسه بواسطة الاحتكاك في الفترة الواقعة بين آدم ونوح.

وقد دلّت التحرّيات أن إنسان نياندرتال كان يستعمل النار وكان يدفن الموتى. فإذا كان ذلك كذلك فإن إشعال النار بالاحتكاك ودفن الموتى حصلا بين الهبوطين الأول والثاني، أي عندما كان الإنسان العاقل وإنسان نياندرتال، ولعلّ إنسان نياندرتال تعلّمها من الإنسان العاقل أي قبل الإنسان العاقل العاقل (أجدادنا).

لذا فلا يوجد في التنزيل الحكيم ما يُغطّي فترة ماقبل نوح إلا هاتين الظاهرتين.

الآن ننتقل إلى نوح...



نـــوح

عليه السلام

كان نوح (ع) أوّل نبيّ آدميّ يوحى إليه، بدلالة قوله تعالى مخاطباً نبيّه الكريم (ص) ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ...﴾ (النساء ١٦٣). وكان قومه قبل مبعثه يكذّبون رُسل اللّه إليهم، بدلالة قوله تعالى ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (الشعراء ١٠٥)، ويعرفون أن هؤلاء الرُّسل النُّذر ليسوا مثلهم من جنس البشر بل هم ملائكة مُشخَّصة طبقاً لقوله تعالى ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون ٢٤).

أما رسالته كرسول فكان عمودها الفقري التوحيد الذي دارت حوله دعوات النذر والمرسلين قبله، إضافة إلى قيمة إنسانية نزل بها أمر اللّه لأول مرة إلى رسوله نوح هي برّ الوالدين، وذلك في قوله تعالى على لسان نوح ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا...﴾ (نوح ٢٨).

ولقد ورد ذكر نوح في التنزيل الحكيم ثلاثاً وأربعين مرّة أوّلها في آلِ عِمْران ٣٣، وآخرها في نوح ٢٦، وهناك سورة كاملة في التنزيل الحكيم سُمّيت باسمه هي السورة رقم ٧١.

فإذا نحن رتّلنا هذه الآيات في رتلٍ واحد ونظرنا فيها أمكننا أن نرى العِبَر والعِظات التالية:

١ - وجود أداة تواصُل لغوية في عهد نوح بأبسط صُوَرها، تسمح بالوحي من جانب، ويستحق الناطقون بها اسم (قوم) الذي أطلقه عليهم التنزيل الحكيم من جانب آخر. هذا التطور الذي ارتقى باللغة من مرحلتها الطفولية حيث تنحصر مفرداتها بمقطع واحد أو مقطعين إلى مرحلة أكثر تقدماً تتعدد فيها المقاطع والمفردات فتسمح كما قلنا بالوحي، ويصدق معها قوله تعالى عن الحوار بين نوح وقومه ﴿قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ (هود ٣٢)، وقوله تعالى ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ * كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (الشورى ١-٣). أي أنه لم يبدأ الوحي إلى الجنس البشري إلا عندما تشكَّل الكلامُ الإنساني من مقطعين صوتيّين وثلاثة مقاطع ثم ازدادت.

٢ - ظهور علاقات واعية وإنسانية بسيطة بين أفراد المجتمع.

٣ - ظهور أول قيمة أخلاقية إنسانية هي برُّ الوالدين وطلب المغفرة لهما، وهذا يعني اكتمال الوعي الأُسري في أول مراحله من خلال وعي الأولاد لوالديهم ووعي الوالدين لأبنائهم، حيث أطلق التنزيل الحكيم على الأسرة في عصر نوح اسم (الأهل)، إضافة إلى التوحيد الذي لم تخلُ منه دعوات الأنبياء والرسُل جميعاً.

٤ - وجود عبادة ظواهر الطبيعة بدلالة قول نوح لقومه ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح ١٥-١٦). وهذا يدلّ على أن مجتمع نوح لم يكن متقدماً إلى درجة تُصنَع فيها بشكل متطوّر التماثيل والأصنام التي تحتاج لصنعها إلى وسائل وأدوات لم تكن قد وجدت بعد بشكل واضح وكثيف.

وإن كان نوح وقومه يعيشون في منطقة الشرق الأوسط - كما قال كثير من الدارسين - فقد ثبت أن أقدم ظاهرة وثنية ظهرت في هذه المنطقة هي عبادة ظواهر الطبيعة من شمس وقمر ونجوم وكواكب وأرض وسماء. ويؤكد ما ذهبنا

إليه قوله تعالى على لسان قوم نوح وهم يتنادون لتكذيبه ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ (نوح ٢٣-٢٤). والشاهد في الآيتين السابقتين هو قولهم (لاتذرن آلهتكم) أي لاتتركوا معبوداتكم. أمّا وُدٌّ وسُواعٌ ويغوثُ ويعوقُ ونَسْر، فهذه ليست من الآلهة المعبودة، وشرحها يقودنا إلى الفقرة /٥/ .

٥ – ظهور سَدنة وكُهّان يقومون على خدمة الآلهة المعبودة وينطقون باسمها، بدلالة آيتي نوح ٢٣، ٢٤. حيث تم التفريق بين الآلهة المعبودة وبين هؤلاء الهامانات الخمسة الذين أضلوا كثيراً من الناس، إذ المعبودات ذاتها من شمس وقمر وكواكب وبراكين وزلازل وصواعق لا تُضِلُّ أحداً، والذي يهدي ويُضِلّ هو العاقل. هؤلاء الكهّان والسدنة هم الذين تحوّلوا فيما بعد إلى حاخامات وقساوسة ومشايخ ورجال دين يتحدثون بالنيابة عن الرسل، تماماً كما كان أسلافهم يتحدثون بالنيابة عن الشمس والقمر.

٦ – عدم وجود تشريعات من أي نوع، لأن مفهوم التشريع لم يوجد بعد، والمجتمعات ما زالت بدائية لا تجارة فيها ولا بيع ولا شراء، وجريمة القتل الأولى التي حصلت مع ابني آدم لم يشرَّع تحريمها إلهياً إلا على بني إسرائيل.

٧ – عدم وجود شعائر تمثّل أركان الإيمان، كالصلاة والصوم والحج، رغم نموّ مفهوم طلب المغفرة الذي وِلد أيام آدم – كما أسلفنا – وذلك في قوله تعالى على لسان نوح ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ. .﴾ (نوح ٢٨).

٨ – لم تكن السباحة في الماء معروفة في عصر نوح على الأقل تلك التي تختص بمواجهة حالة طوفان كبير ، بدلالة قوله تعالى ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا. . .﴾ (نوح ٢٥).

٩ – لم يكن اجتياز الحواجز المائية (بحار، بحيرات، أنهار كبيرة) معروفاً إلا بشكل قليل ، بدليل أن صنع الفلك لمواجهة الطوفان احتاج إلى وحي من الله ورعاية ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا. . .﴾ (هود ٣٧).

١٠ - ظهور مفهوم الذِّكْر والتذكير باللّه في أشكاله الأولى بدليل قوله تعالى ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ . . .﴾ (الأعراف ٦٣).

١١ - عدم وجود أدوات أو وسائل إنتاج، حيث تم صنع طوف من ألواح خشبية مشدود بعضها إلى بعض بألياف طبيعية، بدليل قوله تعالى ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ (القمر ١٣).

١٢ - عدم وجود وسائل تجديف أو توجيه أو دفع (مجاذيف، دفّة، أشرعة)، فالأطواف لاتتحرك إلا بفعل الأمواج والتيارات.

١٣ - لم تكن الأنعام قد ذُلِّلت بعد في عهد نوح، ولم تكن الزراعة قد اتسعت، حتى لو سلّمنا جدلاً بوجود بعض أنواع الحيوانات المستأنسة، فهي قليلة. أما ما يقوله أهل التوراة ومَنْ لَفَّ لفَّهم وأخذ عنهم من مفسرين ومؤرخين من أن نوح بنى سفينة من ثلاثة طوابق وضع فيها زوجين من كل حيوانات الدنيا وطيورها بسباعها وأفيالها ونسورها وجمالها، ومن كل نباتات الدنيا وأشجارها، إلى جانب ما يحتاج إليه ركاب السفينة من طعام، فليس عندنا بشيء. لسبب بسيط هو أن ذلك كله يحتاج إلى أسطول من حاملات الطائرات وليس إلى طوف بدائي من ألواح ودسر.

ولا تقدّم نتائج التنقيبات الأثرية والأبحاث التاريخية والأنثربولوجية دليلاً قاطعاً جازماً على زمن حصول الطوفان ، لكنها تؤكد حصوله، وذلك بالاستناد إلى الوثائق التي تحدثت عنه ولاسيما في موطن الطوفان الأول في بلاد ما بين النهرين . يبدو أن رواية الطوفان الذي كان محلياً قد تعمّمت في شتّى ثقافات الشعوب شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، مع اختلاف في تفاصيل الحكاية ، لكنّ المبدأ العام يستند إلى ضرورة حصول طوفان من أجل معاقبة الإنسان وإعادة إنتاج نسل صالح جديد، عبر رجل صالح وحكيم اختاره الإله لهذه المهمة ونجا من الطوفان مع أتباعه الصالحين. وما يعنينا هنا هو أن رواية الطوفان السومرية (الرافدية) والتي تُعتبر الرواية الأولى تاريخياً قد جرى تطويرها في الرواية البابلية،

ثم تم نقلها إلى التوراة حيث جرت إضافات عليها بما يلائم الشخصية اليهودية، ومن ثم نجدها قد وردت في القرآن الكريم بشكلها النهائي، متبعة الخطوط العامة للرواية المشرقية، غير أنها منزلة من اللّه إلى البشر في حين أن رواية الطوفان المشرقية كانت بشرية المصدر .

ويمكننا مقاربة روايات الطوفان ما قبل القرآنية وصولاً إلى قصة النبي نوح في القرآن الكريم منطلقين من المنجز السومري الرافدي.

الطوفان السومري

أول وثيقة تذكر رواية الطوفان نجدها في نص مسماري عُثر عليه في مدينة نفر (نيبور) الرافدية ويعود إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد، يبدو أن هذه الرواية انتقلت من الحيّز الشفاهي إلى الكتابي، حيث يبدو أنها موغلة في القدم ربما إلى الألف الخامس أو الرابع قبل الميلاد في فترة الثقافة العُبيدية.

يتألف هذا النص من ستة حقول، ويتحدث عن الطوفان ومقدماته:

أولاً: ثمة قرار إلهي بإنهاء الحياة على الأرض عبر طوفان شامل.

ثانياً: انتقاء مُخلّص لإنقاذ البشر بعد الطوفان، لابل وإنقاذ الحيوانات.

ثالثاً: حصول الطوفان وإنقاذ الحياة عبر المُخلّص، محبوب الإله.

رابعاً: انتهاء الطوفان وانبعاث الحياة من جديد عبر المخلّص ومرافقيه.

وفي الرواية أن مجمع الآلهة انعقد لإقرار ضرورة إفناء الحياة بواسطة طوفان يغمر الأرض، ولم يحصل أمر الطوفان على الإجماع الإلهي مما يدفع الإله انكي إلى مساعدة البشر عبر اتصاله بنوح السومري /زيوسودرا/، وزيوسودرا كان ملكاً تقياً رأى حلماً سيئاً وطلب من الإله من وراء الحجاب أن يكشف له عن معنى الحلم، فأبلغه الإله أن الطوفان حاصل وثمة حاجة لأن ينقذ زيوسودرا نفسه، وطلب منه بناء سفينة كبيرة تحمل الصالحين من البشر وبعض الحيوانات، وينتهي النص المهشّم بذكر نجاة زيوسودرا وتقديمه القرابين للآلهة /كبش وثور/ حيث يكافأ بإعطائه نعمة الخلود وإسكانه في أرض دلمون (الجنة السومرية).

لنقرأ:

«في تلك الأيام زيوسودرا كان ملكاً و قيّماً على المعبد
قام بتقديم [قربان] عظيم
وجعل يسجد بخضوع [ويركع] بخشوع
ودونما كلل توجّه للآلهة [في المعبد]
فرأى في أحد الأيام حلماً لم ير له مثيلاً
الإله [. . . .] جدار [. . . .]
وعندما وقف زيوسودرا قرب الجدار سمع صوتاً:
«قف قرب الجدار على يساري واسمع
سأقول كلاماً فاتبع كلامي
أعط أذناً صاغية لوصاياي
إنّا مرسلون طوفاناً من المطر [. . . .]
فيقضي على بني الإنسان [. . . .]
ذلك حكم وقضاء من مجمع الآلهة
أمر آنو وانليل
[فنضع حدّاً] لملكوت البشر»
- «هبّت العاصفة كلها دفعة واحدة
ومعها انداحت سيول الطوفان فوق [وجه الأرض].
ولسبعة أيام وسبع ليال
غمرت سيول الأمطار وجه الأرض
ودفعت العواصف المركب العملاق فوق المياه العظيمة
ثم ظهر «أوتو» (إله الشمس السومري) ناشراً ضوءه في السماء على الأرض
فتح زيوسودرا كوّة في المركب الكبير
تاركاً أشعة البطل أوتو تدخل منه
زيوسودرا الملك

خرّ ساجداً أمام أوتو
ونحر ثوراً وقدّم ذبيحة من غنم»
- «زيوسودرا الملك
سجد أمام آنو وانليل
وكمثل إله وهباه حياة أبدية
ومثل إله وهباه روحاً خالدة
عند ذلك زيوسودرا، الملك
دعي باسم حافظ بذرة الحياة
وفي أرض [. . . .] أرض دلمون
حيث تشرق الشمس أسكناه.

إن تشوُّه النصّ المسماري لا يقدّم معلومات تفصيلية، لكنه يعطينا فكرة أساسية حول الطوفان سنجد تطوّرها في الرواية البابلية .

الطوفان البابلي

قدّمت وثائق الرافدين العائدة للألف الثاني قبل الميلاد معلومات دقيقة وغزيرة عن معالم الطوفان البابلي، وهذا ما نجده في ملحمة جلجامش، الملك السومري الذي حكم مدينة أوروك في حوالي ٢٦٥٠ ق.م .

تتحدث الملحمة عن ملك أوروك الذي يُفجَع بموت صديقه وندّه أنكيدو، ويقف أمام الموت ورهبته مصدوماً، ويسعى للبحث عن الحياة الخالدة، معانياً الصعوبات والعذاب حتى استطاع الوصول إلى نوح البابلي/ أوتونابشتيم/ الذي مُنح الحياة الأبدية من قبل الآلهة.

ويتحدث أوتونابشتيم لجلجامش عن الطوفان وعن اختياره من قبل الآلهة لإنقاذ الحياة على الأرض ثم يدلّه على عُشبة في أعماق البحر تمنح الخلود للإنسان.

يمضي جلجامش ويعثر على العشبة لكنّ أفعى تخطفها ويفقد الحياة الأبدية

ويُكتب الموت عليه كباقي البشر.

نقرأ في الملحمة:

قال جلجامش لأوتونابشتيم البعيد:

أنظر إليك يا أوتونابشتيم

فأرى شكلك الرقيق لا يختلف عن شكلي

نعم إنك لا تختلف عني في شيء

لقد صوّرتك في نفسي كبطل على أُهبة القتال

ولكن ها أنت مستلق بتراخ أو متكئ

أخبرني كيف حصلت على رفقة الآلهة ونلت الخلود؟

فقال أوتونابشتيم لجلجامش:

جلجامش.. سأكشف لك أمراً كان مخبوءاً

وأبوح لك بسرّ من أسرار الآلهة

«شوروباك» مدينة أنت تعرفها

تقع على شاطئ نهر الفرات

لقد شاخت المدينة والآلهة في وسطها

فحدثتهم نفوسهم أن يرسلوا طوفاناً

كان هناك آنو أبوهم

كما كان انليل مستشارهم

و«ننورتا» ممثلهم

و«اينوجي» وزيرهم

و«ننجيكو» الذي هو «إيا» كان حاضراً أيضاً

فنقل حديثهم إلى كوخ القصب

«يا كوخ القصب، يا كوخ القصب، جدار يا جدار

أصغ يا كوخ القصب، وتفكر يا جدار

رجل شوروباك يا ابن أوبارا–توتو

قوّضْ بيتك وابن سفينة
اهجرْ ممتلكاتك وانجُ بنفسك
اترك متاعك وأنقذ حياتك
اعمل على حمل بذرة كل ذي حياة
والسفينة التي أنت بانيها
ستكون وفقاً لمقاسات مضبوطة
فيكون عرضها معادلاً لطولها
وغطها كما هي المياه السفلى»
عندما فهمت ذلك قلت لـ«إيا» مولاي
[سأضع نُصب عيني] ما قد أمرتني به
وأعمل على تنفيذه
[ولكن بماذا] أجيب المدينة والناس والشيوخ؟
ففتح إيا فمه وقال
متوجهاً بالحديث إليّ أنا خادمه:
«إليك ما ستقوله لهم:
لقد علمت أن انليل يكرهني
وعليَّ بعد الآن ألاّ أبقى في مدينتكم
وألاّ أُدير وجهي نحو أرض انليل
سأهبط إلى «آبسو» أعيش مع مولاي إيا
أما أنتم فسينزل عليكم مطر وافر
[. . .] من الطيور. . . من الأسماك
[. . .] غلال الحصاد
وفي المساء رب العاصفة
سينزل عليكم خيراته مطراً من القمح»
وما إن [لاح أول قبس من نور الصباح]

حتى تجمّع الناس حولي
[. . .]
(سطران مشوّهان)
جلب الأطفال القار [بينما] جلب الكبار [كل ذي] فائدة
وفي اليوم الخامس أنهيت هيكل [السفينة]
كانت أرضيّتها «ايكو» واحد وارتفاع جدرانها مائة
وطول كل جانب من جوانب سطحها مائة وعشرون ذراعاً
حدّدت شكلها الخارجي وشكّلته
وستة سطوح سفلية بنيت فيها
وبذلك قسمتها لسبعة طوابق
كما قمت بتقسيم أرضيتها لتسعة أقسام
وثبّت على جوانبها مصدّات المياه
زوّدتها بالمؤن والذخيرة
وسكبت في الفرن ستة وزنات من القار
وثلاث وزنات من الإسفلت
ثلاث وزنات من الزيت أتى بها حاملو السلال
واحدة استهلكها نقع مصدات المياه
واثنتان قام ملاّح السفينة بخزنها
ذبحت للناس عجولاً
ورحت أنحر الخراف كل يوم
عصير العنب والخمر الأحمر والزيت والخمر الأبيض
أعطيت الصناع فشربوا كما من نهر ماء
واحتفلوا كأعياد رأس السنة
و[. . . .] المرهم وضعت يدي
[. . . .] أضحت السفينة جاهزة

[. . . .] كان صعباً للغاية
[. . . .] من فوق ومن تحت
[. . . .] . . ثلثاها
حملت إليها كل ما أملكه
كل ما أملكه من فضة حملت إليها
كل ما أملكه من ذهب حملت إليها
كل ما لديّ من بذور كل شيء حملت إليها
وبعد أن أدخلت إليها أهلي وأقاربي جميعاً
وطرائد البرّية ووحوشها وكل أصحاب الحرف
عيَّن لي الإله «شمش» وقتاً محدداً:
«عندما يرسل سيّد العاصفة مطراً مدمّراً في المساء
ادخل الفلك وأغلق عليك بابك».
وما إن أزف الموعد
حتى أرسل سيد العاصفة مطراً مدمراً في المساء
قلّبت وجهي في السماء، كان الجو مرعباً للنظر
دخلت السفينة وأغلقت عليّ بابي
وأسلمت قيادها للملاح بوزور-آموري
أسلمته الهيكل العظيم بكل ما فيه
وما أن لاحت تباشير الصباح
حتى علت الأفق غيمة كبيرة سوداء
يجلجل في وسطها صوت «أدد»
ويسبقها «شوللات» و«خانيش»
اقتلع اريجال الدعائم
وقام ننورتا بفتح السدود
رفع «الأنوناكي» مشاعلهم

حتى أضاءت الأرض ببريقها
إلا أن ثورة أدد بلغت حدود السماء
أحالت إلى ظلمة ما كان مضيئاً
وقام بتحطيم الأرض كما تُحطّم الجرة
عصفت الريح العاتية يوماً كاملاً
بعنف عصفت و[. . . .]
أتت على الناس وحصدتهم كما الحرب
حتى عمي الأخ عن أخيه
وبات أهل السماء لا يرون أهل الأرض
حتى الآلهة ذُعروا من هول الطوفان
وهربوا صاعدين إلى سماء آنو
انكمشوا كالكلاب الخائفة وربضوا في أسى
صرخت عشتار كامرأة في المخاض
ناحت سيدة الآلهة ذات الصوت العذب:
«لقد آلت إلى طين تلك الأيام القديمة
ذلك بأنني نطقت بالشر في مجمع الآلهة،
فكيف استطعت أن آمر بمثل هذا الشر.
كيف استطعت أن آمر بالحرب لتدمير شعبي،
تدمير من أعطيتهم أنا الميلاد،
وها هم يملأون اليمَّ كصغار السمك»
وبكى معها آلهة الأنوناكي
جلسوا يندبون وينوحون
وقد غطوا أفواههم
ستّةَ أيام وسِتَّ ليال،
والرياح تهبّ والعاصفة وسيول المطر تطغى على الأرض.

ومع حلول اليوم السابع. العاصفة والطوفان،
خففت من وطأتها وكانت قبلُ كأنها الجيوش المحاربة.
وأخذ البحر يهدأ والعاصفة تسكن. والطوفان يتوقف.
فتحت نافذة فوقع النور على وجهي.
نظرت إلى البحر. كان الهدوء شاملاً
وقد عاد البشر إلى الطين.
كان ال[. . . .] بمحاذاة السقف،
جلست وانحنيت أبكي،
وانسالت دموعي على وجهي،
ثم نهضت وتطلعت في كل الاتجاهات،
مستطلعاً حدود البحر.
على بعد اثنتي عشرة ساعة مضاعفة، انبثقت قطع من الأرض،
واستقرت السفينة على جبل (نصير).
أمسك الجبل بالسفينة ومنعها من الحركة.
ومضى اليوم الأول والثاني والجبل ممسك بالسفينة.
ومضى اليوم الثالث والرابع والجبل ممسك بالسفينة.
ومضى اليوم الخامس والسادس والجبل ممسك بالسفينة.
وعندما حلّ اليوم السابع،
أتيت بحمامة وأطلقتها في السماء.
طارت الحمامة بعيداً وما لبثت أن عادت إليّ
لم تجد مستقراً فآبت.
فأتيت بسنونو وأطلقته في السماء،
طار بعيداً وما لبث أن عاد إليّ.
لم يجد موطئاً لقدميه فآب،
ثم أتيت بغراب وأطلقته في السماء،

فطار الغراب بعيداً ولما رأى أن الماء قد انحسر،
أكل وحام وحط ولم يعد.
عند ذلك أطلقت الجميع للجهات الأربع وقدّمت أُضحية.
سكبت خمر القُربان على قمّة الجبل.
أقمت سبعة قدور وسبعة أُخر،
وجمعت تحتها قصب السكر الحلو وخشب الأرز والآس.
فتشمم الآلهة الرائحة الذكية،
تجمعوا على الأضحية كالذباب،
وعندما وصلت الآلهة العظيمة (عشتار)
رفعت عقدها الكريم الذي صنعه آنو وفق رغباتها وقالت:
«أيها الآلهة الحاضرون. كما لا أنسى هذا العقد اللازوردي
الذي يزيّن عنقي.
فإنني لن أنسى هذه الأيام قط وسأذكرها دوماً
تقدّموا جميعاً وقرّبوا من الذبيحة،
إلا انليل وحده لن يقترب،
لأنه سبب الطوفان دونما تروٍّ،
وأسلم شعبي للدمار».
وعندما وصل انليل،
ورأى السفينة انتابه الغيظ الشديد،
واستشاط غضباً من إلهة الايجيجي
أنجا أحد من الفانين؟ ألم يكن مقدراً أن يهلكوا جميعاً؟
ففتح ننورتا فمه وقال مخاطباً انليل المقاتل:
«أيها المحارب، أيها الحكيم بين الآلهة.

كيف،آه كيف دونما تفكُّر جلبت هذا الطوفان؟
حمِّل المذنب ذنبه،والآثم إثمه.
أمهله حتى لا يفنى، ولا تهمله كي لا يفسد.
كنت تستطيع بدل الطوفان أن تسلّط الأسود لتنقص عدد البشر.
كنت تستطيع أن تطلق الذئاب فتنقص من تعدادهم.
أو تُحدِث القحط الذي يهلك البلاد.
أو تأتي بـ ايرا فيحصد الناس.
ثم إنني لست الذي أفشى سرَّ الآلهة العظام.
لقد أريت أتراخيس\ أوتونابشتم، حلماً فاستشفّ منه السرَّ.
والآن اعقد أمرك بشأنه
فصعد انليل إلى السفينة،
وأخذ بيدي وأصعدني معه.
كما أصعد زوجتي أيضاً وجعلها تركع إلى جواري،
ثم وقف بيننا ولمس جبهتينا مباركاً:
«ما كنت يا أوتونابشتيم إلا بشراً فانياً
ولكنك وزوجك منذ الآن ستغدوان مثلنا (خالدين)
وفي القاصي البعيد عند فم الأنهار ستعيشان»
ثم أخذوني وأسكنوني في البعيد حيث فم الأنهار.

في هذا النص نجد أن بطل الملحمة استطاع أن يلتقي بنوح البابلي \ أوتونابشتم \ الذي حدّثه بتفاصيل قصة الطوفان ونجاته منه باختيار الإله له كونه رجل تُقى وورع ومؤمن بحسب الذهنية الاعتقادية لتلك الفترة. كما نلاحظ أن الطوفان اختص بمدينة شوروباك تحديداً، بمعنى أنه ليس عالمياً.

وثمة روايات عديدة أخرى عن الطوفان نجدها في الوثائق البابلية لكنّ أهمّها بعد ملحمة جلجامش هي ملحمة أتراخيس.

ملحمة أتراخيس

يعمد الإله انليل إلى نشر الأمراض والأوبئة قبل الطوفان في محاولة منه للتقليل من تعداد البشر حيث أصبح تكاثرهم وضجيجهم يقضّ مضجعه.

أتراخيس التقيّ يرى حلماً سيّئاً وحين يقصّه على الإله إيا، ينصحه الإله ببناء سفينة للنجاة من الطوفان الآتي.

نقرأ من الملحمة:

الكسرة الأولى:

{لقد عمرت الأرض وتكاثر الناس

تكاثروا حتى أُتخمت بهم الأرض كما تُتخم الشاة

وتزايدوا حتى أزعجوا الإله «انليل» بتجمّعاتهم

لقد وصل ضجيجهم إليه (في عليائه)

فقال للآلهة الكبرى

لقد ازداد صخب البشر

وجعل النوم بعيداً عن عيوني

فلتقلع الأشجار التي تطعمهم

ولتعو بطونهم طلباً للطعام

وليمنع «أدد» في الأعالي مطره عنهم.

وفي الأعماق فلتنضب مياه الينابيع

وليتوقف سيل المياه من العيون

ولتهبّ الرياح

[.........]

لتحرَم السماء من غيومها

وتبق الأرض دونما مطر

لتمنع الحقول غلالها

ولتحجب «نيسابا» صدرها الخصب}

الكسرة الثانية:
{فتح أتراخيس فمه وقال لمولاه:
هلاّ أعطيتني شرحاً لأحلامي
[. . . . .]
حسناً فلتصغ إليّ
اسمع يا جدار
وتملّ كلماتي يا كوخ القصب:
قوّضْ بيتك وابن سفينة
اهجرْ ممتلكاتك
وخلّصْ حياتك
والسفينة التي أنت بانيها.}
الكسرة الثالثة:
{وفي الوقت المحدد الذي سأعيّنه لك
ادخل الفلك وأغلق عليك بابك
احمل إليها الحبوب والمتاع والمواشي
زوجك وعائلتك وأقرباءك وأصحاب الحِرف
طرائد البرّية ووحوشها، وما استطعت من أكلة الأعشاب
سأدفع بها إليك، وتقبع عند أبوابك تحرسها لك
ففتح أتراخيس فمه وقال
محدّثاً «إيا» مولاه:
لم يسبق لي أن بنيت سفينة
فهلاّ رسمت لي شكلاً لها على الأرض
أستعين به على بنائها
[. . .] على الأرض [. . .]
ثم أني سأعمل على تنفيذ كل ما أمرتني به.}

الكسرة الرابعة :
وعندما حلّت ال [سنة الثانية]
وتبعتها السنة الثالثة
تبدّل الناس في [ ]سهم
وعندما حلّت السنة الرابعة [. . . .] في ضيق
[. . . .] الواسع غدا ضيّقاً
وهام الناس في الطرقات باكتئاب
وعندما حلّت السنة الخامسة طرقت البنت باب أمها
ولكن الأم لم تفتح لابنتها بابها
وراقبت البنت ميزان أمها
وراقبت الأم ميزان ابنتها
وعندما حلّت السنة السادسة. أُعدّت الابنة لتكون طعاماً
كما هيِّئ الأطفال ليكونوا طعاماً. ال[. . .] مليئاً
وراح البيت يفترس البيت الآخر
وصارت وجوه الناس كوجوه أشباح الموتى
[وعاشوا] بأنفاس خفيضة (مكتومة تكاد لوهنها تتوقف)
ولكنهم تلقوا رسالة [. . . .]
في الأعالي [أمسك أدد أمطاره]
وفي الأعماق نضبت (الينابيع) ولم تصل المياه لآبارها
وضنّت الحقول بخيراتها
لأن نيسابا قد حجبت صدرها [. . .]
فاضت السهول بالملح
ولم يظهر الزرع ولا أزهر النبت
واجتاحت الأمراض والأوبئة الناس أجمعين
أُغلقت الأرحام وباتت بلا حبل ولا ولادة

ولكن أتراخيس الرجل [الحكيم]
توجّه بقلبه [إلى ايا سيده]
[وتكلّم] مع إلهه
وسيّده ايا تكلّم معه
[. . . .] باب إلهه
وإلى جانب النهر أقام سريره
[. . . .] الأمطار [. . .]
بسبب ضوضائهم غدا «انليل» منزعجاً
وبسبب ضجيجهم لم يطرُق الكرى جفونه
فعقد انليل اجتماعاً
وقال للآلهة أبنائه:
«عظيمة صارت ضوضاء البشر
وبسببها أنا منزعج
وبسببها لا يطرُق الكرى جفوني
[. . . .] فلتكن هناك ملاريا
وبلحظة خاطفة فلتضع الأوبئة حدّاً لصخبهم
وتهب عليهم كما العواصف (والأعاصير)
عِلل وأمراض وأوبئة وحُمّى»
[. . . .] فكانت ملاريا
وبلحظة خاطفة وضعت الأوبئة حداً لضجيجهم
وكالعواصف هبّت عليهم وحصدتهم
عِلل وأمراض وأوبئة وحُمّى
ولكنّ أتراخيس توجّه بقلبه إلى سيّده ايا
وتكلّم مع إلهه
وسيّده ايا تكلّم معه

فتح أتراخيس فمه وقال
مخاطباً ايا سيده:
«يا إلهي إن البشر يئنّون
وقد طغى على الأرض غضب الآلهة
[. . .] وأنت يا من خلقتنا
هلاّ اجتثثتَ العِللَ والأمراضَ والأوبئةَ والحُمّى
ففتح ايا فمه وقال له لمّا سمع نداءه:
[. . .] في الأرض
[. . .] وصلّ لآلهتك
فعقد انليل اجتماعاً وقال للآلهة أبنائه:
« [. . . .] لا تضعوهم
لم ينقص البشر بل ازدادوا عمّا قبل
ضوضاؤهم تزعجني (وتؤرقني)
وضجيجهم يمنع عن عيني الكرى
فلتمنع الأشجار عنهم ثمارها
ولتعوِ بطونهم طلباً للخضار
في الأعالي فليمسك أدد مطره عنهم
وفي الأعماق فلتنضب الينابيع ولا تصل المياه لآبارها
ولتبخل الحقول بخيراتها
ولتحجب نيسابا صدرها (الخصب). . .
ولتنتج السهول العريضة ملحاً
فلا يظهر الزرع ولا يزهر النبت
ولتعصف الأمراض والأوبئة بالناس أجمعين
ولتغلق الأرحام فلا حبل ولا ولادة»
(فكان ما قال)

منعت الأشجارُ ثمارَها عن الناس
وعوت بطونُهم طلباً للخضار
وفي الأعالي أمسك أدد \إله المطر \ مطره عنهم
وفي الأعماق نضبت الينابيع ولم تصل المياه لآبارها
وضنّت الحقول بخيراتها
وحجبت نيسابا صدرها (الخصب)
وعصفت الأمراض والأوبئة بالناس أجمعين
وأُغلقت الأرحام فلا حبل ولا ولادة.

نلاحظ هنا أن سبب الطوفان هو كثرة البشر وضجيجهم الذي أزعج الإله انليل سيد العاصفة، ما دفعه إلى معاقبتهم بالأوبئة وبالطوفان.

الطوفان التوراتي

إذا ما قرأنا رواية الطوفان في سفر التكوين / الإصحاح ٦-٧-٨/ نجد أننا أمام حالة تشابُهٍ واضحٍ مع النصوص البابلية الطوفانية، ويبدو أن مدوّني التوراة في القرن السادس قبل الميلاد في بابل وأثناء فترة السبي البابلي قد استوحوا القصة البابلية أو أنهم استمدّوها من ثقافة بلاد كنعان قبل سبيهم.

وقد أجروا بعض التعديلات والتغييرات ولا سيّما ما تعلّق منها بشخصية الإله الرئيسي فمقابل التشابك الإلهي والتناقض الظاهر في الرؤية البابلية بين الآلهة نجد أن يهوه إله التوراة ينفرد بالفعل الإلهي الوحيد في الرواية التوراتية.

ونوح كما ورد اسمه في التوراة هو بطل الطوفان وهو نوح بن لامك بن متوشالح بن أخنوخ: وهو إدريس بن يارد بن مهلئيل بن قينان بن أنوش بن شيت بن آدم.

لنقرأ:

سفر التكوين

الإصحاح السادس:

«-١- ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض و ولد لهم بنات. -٢- رأى بنو اللّه بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لهم نساء من جميع من اختاروا. -٣- فقال الرب لا تحل روحي على الإنسان أبداً لأنه جسد وتكون أيامه مئة وعشرين سنة. -٤- و كان على الأرض جبابرة في تلك الأيام، وأيضاً بعد أن دخل بنو اللّه على بنات الناس وولدن لهم أولاداً أولئك هم الجبابرة المذكورون منذ الدهر. -٥- ورأى الرب شر الناس قد كثر على الأرض وأن كل تصور أفكار قلوبهم إنما هو شر في جميع الأيام. -٦- فندم الرب أنه عمل الإنسان على الأرض و تأسف من قلبه. -٧- فقال الرب أمحو الإنسان الذي خلقت على وجه الأرض، الإنسان والبهائم والدبابات وطير السماء لأني ندمت على خلقي لهم. -٨- أما نوح فنال حظوة في عيني الرب. -٩- وهؤلاء مواليد نوح. كان نوح رجلاً براً كاملاً في أجياله وسلك نوح مع اللّه. -١٠- وولد نوح ثلاثة بنين ساماً وحاماً ويافث. -١١- وفسدت الأرض أمام اللّه وملئت جوراً. -١٢- ورأى اللّه الأرض فإذا هي قد فسدت لأن كل جسد قد أفسد طريقه إليها. -١٣- فقال اللّه لنوح قدرنا أجل كل بشر بين يدي فقد امتلأت الأرض من أيديهم جوراً فهاأنذا مهلكهم مع الأرض. -١٤- اصنع لك تابوتاً من خشب قطراني واجعله مساكن واطله من داخل ومن خارج بالقار. -١٥- كذا تصنعه، ثلاث مائة ذراع طوله وخمسون ذراعاً عرضه، وثلاثون ذراعاً سمكه. -١٦- وتجعل طاقا التابوت وإلى قدر ذراع تكمله من فوق واجعل باب التابوت من جانبه ومساكن سفلى وثواني وثوالث تصنعه. -١٧- وها أنذا آت بطوفان مياه على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء وكل ما في الأرض يهلك. -١٨- وأقيم عهدي معك فتدخل التابوت أنت وبنوك وامرأتك ونسوة بنيك معك. -١٩- ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل التابوت لتحيا معك. ذكر وأنثى تكون. -٢٠- من الطير بأصنافها ومن البهائم بأصنافها ومن الطيور بأصنافها ومن جميع دبابات الأرض بأصنافها يدخل إليك اثنان من كل لتحيا. -٢١- وأنت فخذ لك من كل طعام يؤكل وضمه إليك فيكون لك ولهم مأكلاً. -

٢٢- فعمل نوح بحسب ما أمره به هكذا فعل.

الإصحاح السابع:

-١- وقال اللّه لنوح ادخل التابوت أنت وجميع أهلك فإني إياك رأيت باراً أمامي في هذا الجيل. -٢- وخذ من جميع البهائم الطاهرة سبعة سبعة ذكوراً وإناثاً. ومن البهائم التي ليست طاهرة اثنين ذكر وأنثى. -٣- وخذ أيضاً من طير السماء سبعة ذكوراً وإناثاً ليحيا نسلها على وجه الأرض. -٤- فإنني بعد سبعة أيام ممطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة وماحٍ كل قائم مما صنعته عن وجه الأرض. -٥- فعمل نوح بحسب كل ما أمره الربّ به. -٦- وكان نوح ابن ست مئة سنة حين كان ماء الطوفان على الأرض. -٧- ودخل نوح التابوت هو وبنوه وامرأته ونسوة بنيه معه من ماء الطوفان. -٨- ومن البهائم الطاهرة ومن البهائم التي ليست بطاهرة ومن الطير وجميع مايدب على الأرض. -٩- دخل التابوت اثنان اثنان إلى نوح ذكوراً وإناثاً كما أمر اللّه نوحاً. -١٠- وبعد سبعة أيام كانت مياه الطوفان على الأرض. -١١- في السنة الست مئة من عمر نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منه في ذلك اليوم تفجرت غيوم الغمر العظيم وتفتحت كوى السماء. -١٢- وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة. -١٣- في ذلك اليوم نفسه دخل نوح هو وسام وحام ويافث بنوه وامرأة نوح وثلاث نسوة بنيه معهم. -١٤- هم وجميع الوحوش بأصنافها وجميع البهائم كل طائر كل ذي جناح. -١٥- ودخلت التابوت إلى نوح اثنين اثنين من كل ذي جسد فيه روح حياة -١٦- والداخلون دخلوا ذكوراً وإناثاً من كل ذي جسد فيه كما أمره اللّه وأغلق الرب عليه. -١٧- وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض فكثر الماء وحمل التابوت فارتفع عن الأرض. -١٨- وكثرت المياه جداً وتعاظمت على الأرض فسار التابوت على وجه الماء. -١٩- وكثرت المياه جداً على الأرض فغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت السماء كلها. -٢٠- وعلت المياه خمس عشرة ذراعاً على الأرض وتغطت الجبال. -٢١- فهلك كل ذي جسد يدب على الأرض والناس كافة. -٢٢- كل من في أنفه

نسمة حياة من كل من في اليبس ماتوا. -٢٣- ومحا اللّه كل قائم على وجه الأرض من الناس والبهائم والدبابات وطير السماء فانمحت من الأرض وبقي نوح ومن معه في التابوت فقط. -٢٤- وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين يوماً.

الإصحاح الثامن:

-١- وذكر اللّه نوحاً وجميع الوحوش والبهائم التي معه في التابوت. فأرسل اللّه ريحاً على الأرض فتناقصت المياه. -٢- وانسدت عيون الغمر وكوى السماء واحتبس المطر من السماء. -٣- وكانت المياه تتراجع عن الأرض كلما مرت وعادت ونقصت المياه بعد مئة وخمسين يوماً. -٤- واستقر التابوت في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منه على جبال آراراط. -٥- وكانت المياه كلما مرت نقصت إلى الشهر العاشر وفي أول يوم منه ظهرت رؤوس الجبال. -٦- وكان بعد أربعين يوماً أن فتح نوح كوة التابوت التي صنعها. -٧- وأطلق الغراب فخرج وجعل يتردد إلى أن جفت المياه عن الأرض. -٨- ثم أطلق الحمامة من عنده لينظر هل غاصت المياه من وجه الأرض. -٩- فلم تجد الحمامة مستقراً لرجلها فرجعت إليه إلى التابوت إذ كانت المياه على وجه الأرض كلها فمد يده فأخذها وأدخلها إلى التابوت. -١٠- ولبث أيضاً سبعة أيام أخر وعاد فأطلق الحمامة من التابوت. -١١- فعادت إليه الحمامة وقت العشاء وفي فيها ورقة زيتون خضراء فعلم نوح أن المياه قد جفت عن الأرض. -١٢- ولبث أيضاً سبعة أيام أخر ثم أطلقها فلم تعد ترجع إليه أيضاً. -١٣- وكان في سنة إحدى وست مائة في اليوم الأول من الشهر الأول أن جفت المياه عن الأرض فرفع نوح غطاء التابوت ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف. -١٤- وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين منه جفت الأرض. -١٥- فخاطب اللّه نوحاً قائلاً. -١٦- اخرج من التابوت أنت وامرأتك وبنوك ونسوة بنيك معك. -١٧- وجميع الوحوش التي معك من كل ذي جسد من الطير والبهائم وسائر الدبيب الساعي على الأرض أخرجهن معك ليتوالدوا في الأرض وينمون ويكثرون عليها. -١٨-

فخرج نوح وبنوه وامرأته ونسوة بنيه معه. -١٩- وجميع الوحوش والدبابات والطيور وكل ما يدب على الأرض بأصنافها خرجت من التابوت. -٢٠- وبنى نوح مذبحاً للرب وأخذ جميع البهائم الطاهرة ومن جميع الطير الطاهرة فأصعد محرقات الذبح. -٢١- فتنسم الرب رائحة الرضا وقال الرب في نفسه لا أعيد لعن الأرض أيضاً بسبب الإنسان بما تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته ولا أعود أهلك كل حي كما صنعت. -٢٢- وأبداً مادامت الأرض فالزرع والحصاد والبرد والحر والصيف والشتاء والنهار والليل لا تبطل.

إن السبب الرئيسي – في رأينا – الذي قاد إلى هذه المبالغة غير المعقولة في وصف «سفينة نوح» في كتب بني إسرائيل، وانتقلت منها إلى تراثنا العقائدي دون فحص ولاتحليل، هو أن أحبار اليهود ما زالوا يعتقدون إلى اليوم بأن الطوفان شمل الكرة الأرضية كلها وأهلك ما فيها من حيوانات ونباتات وبشر. وهذا سبب أعجب بحد ذاته من سفينة نوح.

مقارنات بين النص التوراتي والنصوص المشرقية /السومرية-البابلية/ :

	التوراة	النصوص المشرقية
الإله	– يهوه	– مجمع الآلهة يقرر الطوفان. انليل/ إله العاصفة هو المسؤول/ المنسّق الأساسي عن الطوفان وليس آنو كبير الآلهة.
أسباب الطوفان	– أسباب أخلاقية حيث فسد البشر، وامتلأت الأرض بالعنف والشر.	– يلمح النص البابلي إلى الأسباب الأخلاقية.
بطل الطوفان	– نوح لم يذكر التوراة المدينة التي عاش فيها نوح.	– زيوسودرا: وتعني في السومرية الذي وضع يده على العمر المديد. عاش في شوروباك.

	- نجا نوح لكونه رجلاً ورعاً وتقياً. - يهوه أعلم نوح مباشرة عن الطوفان دون حاجة لحلم أو حجاب.	أوتونابشتيم: وتعني الذي رأى الحياة. أتراخيس: الواسع الحكمة. - نجاة أبطال الطوفان المشرقيين لكونهم صالحين. - أبطال الطوفان المشرقيين رأوا أحلاماً منذرة، وتكلموا مع الإله عبر حجاب.
السفينة	- اسم السفينة يتبا وتعني الصندوق (التابوت) - تحوي سفينة نوح على ثلاثة طوابق، تتألف من عدد غير محدد من الأقسام، لها باب إلى جانبها وفتحة للنور تحت السقف مباشرة. - نوح استعمل القار في طلي السفينة.	- السفينة السومرية «ماجور» (العملاقة)، في نص جلجامش ايليبو (الهيكل العظيم). - السفينة البابلية تحوي سبعة طوابق وتنقسم عمودياً إلى تسعة أقسام وفيها نوافذ. - أوتونابشتيم استعمل القار في طلي السفينة.
ركاب السفينة	- ثمانية أفراد هم نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم. الحيوانات: من كل حي من كل ذي جسد اثنين.	- حمل أوتونابشتيم كل ما يملك من ذهب وفضة وأهله وأقاربه وجميع أهل الحرف وطرائد البرية ووحوشها وطيورها. زيوسودرا حمل بعض الحيوانات وقدم ذبائح الشكر وكذلك فعل أتراخيس في ضم كائنات وأصحاب حرف.

زمن ابتداء الطوفان	- السنة الستمائة من عمر نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منه. (السنة العبرية الزراعية تبدأ في أواخر تشرين الأول فيكون الشهر الثاني هو كانون الأول وهو موسم الأمطار في بلاد الشام).	-لا تذكر النصوص السومرية والبابلية أي موعد لبدء الطوفان.
علل الطوفان	- الأمطار هي سبب الطوفان.	- البابلي من الأمطار والعاصفة والمياه السفلية. السومري من المطر كعنصر أساسي.
مدة الطوفان	- أربعين يوماً ثم بدأت المياه بالتناقص بعد ١٥٠ يوماً. المدة الفاصلة بين الطوفان وخروج نوح من السفينة امتدت حوالي سنة كاملة.	- السومري: استمر الطوفان سبعة أيام وسبعة ليال. البابلي: ستة أيام وسبعة ليال.
استقرار السفينة	- سفينة نوح استقرت على جبل أراراط. أراراط اسم يطلق على بلاد أرمينيا وليس اسماً لجبل، ربما السفينة رست على قمة جبل في تلك البلاد.	- السفينة البابلية استقرت على جبل «نصير» أي جبل الخلاص.
إطلاق الطيور	-أطلق نوح غراباً، ثم أطلق حمامة فعادت، بعد سبعة أيام أطلق حمامة ثانية وعادت في المساء وفي منقارها غصن زيتون طري، بعد سبعة أيام أطلق حمامة ثالثة فلم تعد.	-أوتونابشتيم أطلق في اليوم السابع حمامة فعادت، وبعد فاصل زمني غير محدد أطلق سنونو فعاد، ثم بعد ذلك أطلق غراباً فلم يعد. زيوسودرا لا يرسل طيوراً.

مغادرة السفينة	- خرج نوح بناء على أمر يهوه وانتظر فترة أطول قبل خروجه من السفينة.	- زيوسودرا وأتونابشتيم خرجا أسرع من نوح وبناء على تقديرهما.
تقديم القرابين	- نوح بنى مذبحاً ليهوه وقدم قرابين طاهرة، تقبل يهوه القرابين وندم على فعلته وقطع عهداً أبدياً على نفسه ألا يدمر الأرض ثانية بطوفان مماثل. - لا يمنح يهوه نوحاً الخلود، ويقدم النص التوراتي بعد ذلك نوحاً كرجل سكير عربيد يسكر ويرقص عارياً.	- يقدم أبطال الطوفان البابلي والسومري القرابين للآلهة، حيث تنسى الآلهى غضبها على البشر وتسر بنجاة الحياة على الأرض. - يمنح أوتونابشتيم وزوجته الحياة الخالدة ويسكنان عند فم الأنهار. زيوسودرا يمنح الحياة الأبدية في الجنة السومرية.

الطوفان في النص القرآني

والسؤال الآن: هل يوجد في التنزيل الحكيم ما يعيننا على تصحيح الصورة ورفع المتناقضات وردّ ما لا يتوافق مع مكتشفات العلم الحديث؟ والجواب بكل بساطة: نعم يوجد.

يقول تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ (هود ٤٠). ويقول تعالى ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ (المؤمنون ٢٧).

آيتان قرآنيتان لا ثالث لهما في التنزيل الحكيم تشرحان ما حدث. يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير ج ١٧ ص ١٨٠ - ١٨٢ عن تفسير آية هود ٤٠: «الأمر في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ فيه قولان: الأول أنه تعالى يبيّن

أن لاشيء يحدث إلا بأمره، والثاني أن المراد بالأمر ههنا هو العذاب الموعود به.

وفي التنّور قولان: أحدهما أنه التنور الذي يُخبز فيه، والثاني أنه غيره. أما الأول فهو قول جماعة عظيمة من المفسرين كابن عباس والحسن ومجاهد، وهؤلاء اختلفوا، فمنهم من قال إنه لنوح (ع)، ومنهم من قال كان لآدم. قال الحسن: كان تنوراً من الحجارة لحوّاء ثم صار لنوح (ع)، واختلفوا في موضعه فقال الشعبي إنه بناحية الكوفة، وعن علي (رض) أنه في مسجد الكوفة وقد صلّى فيه سبعون نبياً، وقيل بالشام في موضع يقال له عين وردان، وهو قول مقاتل. وقيل فار التنور بالهند، وقيل إن امرأة نوح كانت تخبز في ذلك التنور فأخبرته بخروج الماء.

وأما الثاني، فالتقدير أنه ليس التنور الذي يخبز فيه، وعلى هذا ففيه أقوال: الأول أن الماء انفجر من وجه الأرض، والعرب تسمّي وجه الأرض تنوراً. والثاني أن التنور أعلى مكان في الأرض وقد أخرج إليه الماء من ذلك الموضع ليكون معجزة له. والثالث فار التنور أي طلع الصبح وهو قول منقول عن الإمام علي (رض). والرابع فار التنور يحتمل أن يكون معناه اشتداد الأمر كقولنا حمي الوطيس. قال الأزهري التنور اسم أعجمي عرّبته العرب فصار عربياً ونظيره ما دخل في كلام العرب من كلام العجم كالديباج والدينار والسندس والاستبرق وغيرها.

والزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكر والآخر أنثى. فالسماء زوج والأرض زوج. والشتاء زوج والصيف زوج. قال الأخفش: الإثنان زوجان. ولذلك قرأ حفص: (قلنا احمل فيها من كلٍ زوجين اثنين) أما الباقي من القراءات المشهورة فقرؤوا (قلنا احمل فيها من كلِّ زوجين اثنين) واختلفوا في أنه هل دخل في قوله (زوجين اثنين) غير الحيوان أم لا؟ فنقول: أما الحيوان فداخل لأن القول يدخل فيه كل الحيوانات، وأما النبات فاللفظ لا يدل عليه إلا أنه بحسب قرينة الحال لا يبعد بسبب أن الناس محتاجون إلى النبات بجميع أقسامه.

وجاء في الروايات عن ابن مسعود (رض) أنه قال: لم يستطع نوح أن يحمل الأسد حتى ألقيت عليه الحُمّى، وذلك أن نوحاً (ع) قال: يا ربّ فمن أين أطعم الأسد إذا حملته؟ قال تعالى: فسوف أشغله عن الطعام. وسلّط عليه الحمّى. وأمثال هذه الكلمات الأولى تركها، فإن حاجة الفيل إلى الطعام أكثر وليس به حمى..) أهـ.

وقال في تفسير آية المؤمنون ٢٧ (ج٢٣ ص٨٢ -٨٣):

«.. واختلفوا في التنور، والأكثرون على أنه هو التنور المعروف. قيل كان تنور آدم من حجارة فصار إلى نوح. واختلف في مكانه، فعن الشعبي أنه في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كنده، وكان نوح عمل السقيفة في وسط المسجد. وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة، وقيل بالهند.

القول الثاني أن التنور وجه الأرض عن ابن عباس (رض). الثالث أنه أشرف موضع في الأرض وأعلاه. الرابع فار التنور أي طلع الصبح عن علي عليه السلام. والخامس هو مثل قولهم حمي الوطيس. والسادس أنه الموضع المنخفض من السفينة.

أما قوله (فاسلك فيها) أي أدخل فيها (من كلٍّ زوجين اثنين) أي من كل زوجين من الحيوان الذي يحضره في الوقت اثنين، الذكر والأنثى كي لا ينقطع نسل ذلك الحيوان، وكل واحد منهما زوج لا كما تقول العامة من أن الزوج هو الإثنان، وروي أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض، وقرئ (من كلٍّ) بالتنوين أي من كل أمة زوجين، واثنين تأكيد وزيادة بيان». أهـ.

كان لا بدّ من هذه الإطالة في نقل تفسير الآيتين الذي نجده مطوّلاً حيناً في بعض التفاسير الأخرى كما عند السيوطي وابن الأثير، وموجزاً في بعض كما عند الزمخشري. والقصد منها وضع نموذج بين يدي القارئ يعطيه فكرة واضحة صحيحة عمّا تطفح به كتب التفسير والأخبار التراثية من خلافات واختلافات في فهم كتاب اللّه تعالى، ومن تفريع لمعاني الألفاظ تفريعاً يخرج بها عن سياقها في الآية، ومن هذر وهُراء لا يعلم أحد - إلا اللّه العليم - من أين تسلل إلينا، ومع

ذلك يصرّ المتشددون من مقدّسي التراث وأهله على إلزامنا به حرفياً تحت طائلة التكفير، وفي معظم كتب التفسير تقرأ كل شيء فيها ماعدا التفسير وهي إن اشتركت في شيء فهو منتهى الاحتقار للعقل الإنساني.

أ - لقد اختلف المفسرون في أمر اللّه، أهو الأمر أم العذاب، واختلفوا في التنور أهو مكان خبز الخبز أم غيره. فإن كان غيره، أهو وجه الأرض أم أعلاها أم أخفض موضع من السفينة، أهو طلوع الفجر أم اشتداد الأمر. واختلفوا في قراءة (كل) أهي بالتنوين أم بدونه. واختلفوا في النبات هل يدخل في الأمر بالتحميل أم لايدخل. صحيح أنهم في المحصّلة أدخلوه بحسب قرينة الحال إلا أن الخلاف بقي قائماً. واختلفوا في الزوج أهو واحد أم اثنان. واختلفوا في التنور أهو لآدم أم لحوّاء أم لنوح. واختلفوا في مكانه أهو في الكوفة أم في الشام أم في الهند، فإن كان في الشام أهو في عين وردان أم في عين وردة. واختلفوا في لفظ التنور أهو عربي أم عجمي معرب. لكنهم - مع ذلك كله - اتفقوا على أمور أخذوها عن بني إسرائيل. الأول أن نوح كان نجاراً، والثاني أن الطوف كان سفينة من ثلاثة طوابق، والثالث أن الطوفان عمَّ الكرة الأرضية جميعها.

ب - لقد نسبوا للإمام عليّ - كرّم اللّه وجهه - أن فوران التنور في الآية هو طلوع الفجر. وقد يكون هذا صحيحاً في لسان العرب ضمن سياق آخر بعيداً عن الآية، لكنه في هذه الآية بالذات يستحيل أن يكون كذلك. إلا إذا اعتبرنا أن أمر اللّه وعذابه مرهون بشكل أو بآخر بطلوع الفجر، الأمر الذي يتعارض عمودياً مع قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأعراف ٩٧-٩٨). وهناك احتمال بأن التنور هو فُوَّهة بُركان، فإذا ثار البركان يمكن أن يراه الناس من أماكن بعيدة.

ج - تحدّث المفسرون بالتفصيل المملّ عن أن ركاب السفينة ثلاثة أنواع: الأول يشمل الحيوانات والنباتات ويحكمه مبدأ من كل زوجين اثنين أولهما ذكر والثاني أنثى. والثاني يشمل أهل نوح وهم ثمانية: نوح وامرأته وأبناؤه الثلاثة سام وحام ويافث ولكل واحد منهم زوجة. وهذا النوع الثاني يحكمه ما يحكم

النوع الأول. أما الثالث فيشمل من آمن بنوح وهم قليل. لكننا لم نسمع أحداً من المفسرين أشار إلى المبدأ الذي يحكمهم، أهو مبدأ الإيمان فقط أم هو مبدأ من كل زوجين اثنين الذي حكم النوعين الأول والثاني؟ والسؤال الآن: ماذا يفعل نوح بشاب عازب مؤمن؟ هل يتركه للغرق لأنه عازب؟ أم يحمله معه لأنه مؤمن ليسطو على زوجات الآخرين بعد انحسار الطوفان؟ وإن كان المعيار في الدخول إلى السفينة هو الإيمان فلماذا حمل نوح امرأته وقد ضربها اللّه في كتابه مثلاً للذين كفروا ولم يحمل ابنه والأهل هم الزوجة والأولاد، وابنه ممن سبق عليه القول لأنه ليس ابنه.

١٤ - طبقاً للمراحل الحضارية التي مر بها الإنسان وأثبتتها الحفريات الآثارية، فإن النجارة والحدادة لم تكن معروفة في عهد نوح، وقُل مثل ذلك في العمارة والأبنية. ولايتعارض مع قول نوح في التنزيل الحكيم: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا. . .﴾ (نوح ٢٨)، فالبيت هو مكان المبيت، وقد يكون كهفاً أو كوخاً بدائياً في غابة. أما مفهوم البناء فلم يتبلور إلا بعد الاستقرار الزراعي وتذليل الأنعام، لكنّ نوح من مقام النبوّة بشَّر بظهور مفاهيم جديدة في التمويل والبناء وذلك في قوله تعالى على لسان نوح لقومه ﴿. . . ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا * يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا * وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ. . .﴾ (نوح ١٠-١٢).

وتشير المعطيات الآثارية وتنقيباتها إلى أن بلاد ما بين النهرين شهدت بالفعل قبل خمسة أو ستة آلاف سنة حدثاً طبيعياً يحمل طابعاً كارثياً ويمكن تسميته بالطوفان على الرغم من كونه ليس عالمياً.

وقد قام ليوناردو وولي بإجراء حفريات أثرية في مدينة أور جنوب الرافدين حيث قام ب ١٢ موسماً تنقيبياً، ويشير إلى أنه حين وصلوا في حفرياتهم إلى الطبقة السفلى التي تتكون من المزيج الاعتيادي الذي تمتاز به المواقع السكنية الأثرية حيث قطع الآجرّ والفخّار والأوساخ والرماد، فجأة يختفي كل شيء بعد

ذلك ولم يعد هناك آثار تدلّ على نشاط بشري لكنه بعد إجراء قياسات معيّنة أحسّ أنه ينبغي أن تكون التربة النقية واقعة في عمق آخر.

ثم يمضي في حفرياته عمقاً نحو مترين ونصف وإذا بقطع وشظايا الصوّان والفخار والأواني تظهر من جديد.

تساءل المنقّب وولي عن وجود تلك الطبقة النقية الخالية من الأشكال والنشاط البشري وتوصّل إلى نتيجة أن ذلك يعني الطوفان.

يقول وولي: لقد اقتنعنا بأن الطوفان وقع بالفعل وهو في أساسه حقيقة تاريخية، تقول التوراة إن المياه ارتفعت ثمانية أمتار ويبدو أن الأمر كان كذاك بالفعل.

تقول الأسطورة السومرية إن الناس قبل الطوفان كانوا يعيشون في أكواخ من قصب وقد عُثر على هذه الأكواخ في أور في العُبيد. وكان نوح قد صنع سفينته من أشجار خفيفة ثم طلاها بالزفت، وقد عُثر في الطبقة العليا على كومة كبيرة من الزفت على آثار السلّة التي كان يحفظ فيها الزفت.

ويشير هذا الباحث إلى أن هذا الطوفان لم يكن طوفاناً عالمياً بل مجرد طوفان اعتيادي غمر المناطق السكنية الواقعة بين الجبال والصحراء ووادي دجلة والفرات ولكن الوادي كان عالماً كاملاً بالنسبة لسكانه.

وعن فترة حدوث الطوفان يشير إلى أن الفترة العُبيدية تُعتبر فترة نموذجية حضارية للعصر الحجري الحديث حيث كان الناس يعيشون في أكواخ بدائية مطلية بالطين واستخدموا المعادن للزينة. غير أن التنقيبات الحاصلة في موقع أور ومن ثم اريدو حيث «هبط الحكم الملكي من السماء لأول مرة» حسب إثبات الملوك السومريين وضعت الحضارة العبيدية /ما قبل السومرية/ في وضع جديد. ففي تلك الفترة تم تحقيق الطفرة الكبيرة من المجتمع البدائي نحو المجتمع المدني المبكر وفي تلك الحقبة بالذات تم تدجين البقر والماشية واخترعت العجلة والقوس وفي تلك الحقبة بالذات بدأ الناس بتشييد المعابد والقصور وفي تلك الحقبة أيضاً ظهرت أقدم مدن الرافدين: اريدو - اور - اوروك.

ويصل الباحث وولي للقول: إن الحضارة العبيدية عاشت الطوفان. . فالعبيديون هم من عاش هذه الكارثة.

ويشير الباحث كاسيدوفسكي في كتابه «الواقع والأسطورة في التوراة» إلى أن المدى الذي شمله الطوفان كان بالنسبة لسكان آسيا الأمامية آنئذ يشكل العالم كله ولذلك كان ذلك الغمر بالنسبة إليهم طوفاناً عالمياً صنعته الآلهة عقاباً للبشر على شرورهم وتناقلت الأجيال قصة الطوفان هذه من السومريين إلى الأكديين ثم تسرّبت إلى أرض كنعان وأخذها قدماء اليهود ودوّنوا روايتهم عن الطوفان في التوراة.

ولا بأس هنا من تتبّع معالم الثقافة العبيدية كي تتضح الصورة التاريخية لعصر الطوفان :

الثقافة العبيدية : ظهرت مع بداية الألف الخامس قبل الميلاد واستمرت حتى منتصف الألف الرابع. وسُمّيت بهذا الاسم نسبة إلى تل العُبيد في جنوب الرافدين.

تطورت ثقافة العُبيد تبعاً للزمن وكذلك توسّع انتشارها مع الزمن حيث أصبحنا نتلمّس انتشارها في الشمال وحتى سواحل المتوسط.

في مراحلها الأولى نجد أنها صنعت الفخّار وأشادت أبنية من اللَّبِن، ثم تطورت في المراحل اللاحقة لنجد أننا أمام صناعة أدوات من حجر الصوّان والأوبسيديان. ويُعتقد أن الزراعة بالمحراث عُرفت في هذه الفترة، كما استؤنست الأبقار. وفي مجال المعتقدات نجد أن تقديس الأم الكبرى كان سائداً، دلّت على ذلك التماثيل التي عُثر عليها في مواقع مختلفة.

مع المرحلة الثالثة انتشرت هذه الثقافة حتى شمال سوريا وغرباً باتجاه سواحل البحر المتوسط، حيث نجد أنه تم هنا اختراع دولاب الفخار.

وفي المناطق الشمالية استأنسوا الأغنام والماعز ومارسوا الزراعة البعلية.

في مرحلتها الرابعة تميزت هذه الثقافة بتطور اختراعاتها ويلاحظ حصول

تطور مهم في مجال العمارة الدينية حيث نلحظ اتساع المباني وكأنها تمنح دليلاً على اتساع أهمية المعبد اجتماعياً.

١٥ - كانت الأعمار في عهد نوح لا تزيد أبداً عن الأعمار في يومنا هذا، بل لعلها كانت أقل. فلقد أثبتت الوثائق التاريخية أن متوسط الأعمار عند الفراعنة لا يزيد عن ٤٠ عاماً. أما الزعم بأن عمر آدم كان ألف عام وأن نوح لبث في قومه تسعمائة وخمسين عاماً يدعوهم إلى الإسلام فهذا ضرب من العبث والتخريف، لا نلوم عليه أصحاب التراث التوراتي لأن علوم التاريخ والبيولوجيا كانت مجهولة لديهم، لكننا نلوم المعاصرين الذين ما زالوا يظنون - ويفرضون علينا ظنهم - أن الإنسان كان يعيش ألف عام أو أكثر. فإن احتج علينا مستنكر بأن عمر نوح مذكور صراحة في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت ١٤).
نقول: هذا احتجاج وجيه يجب الوقوف عنده بالتأمل والتوضيح.

في وثيقة تعود لنهاية الألف الثالث قبل الميلاد وضع الكهنة قائمة للملوك السومريين الذين حكموا مدن الرافدين قبل الطوفان وبعده.

يقدّم هذا النص معطيات عن وجود خمس مدن في عصر ما قبل الطوفان حيث نزلت الملوكية من السماء (وهذا تعبير أن النذُر كانت من الملائكة فقط قبل الرسل من البشر وكان أولهم نوح) وأُسّست تلك المدن وهي: اريدو حيث حكمها ملكان استمر حكمهما لمدة ٦٤٠٠٠ سنة.

ثم انتقلت الملوكية إلى مدينة باد - تبيرا وحكمها ثلاثة ملوك لمدة ١٨٠٠٠٠ سنة.

وانتقلت فيما بعد إلى مدينة لرك وحكمها ملك واحد لمدة ٢٨٠٠٠ سنة.

ثم سبار حيث حكمها ملك واحد لمدة ٢١٠٠٠ سنة.

وأخيراً مدينة شوروباك التي حكمها ملك واحد لمدة ١٨٠٠٠ سنة.

وما نلاحظه هنا هو فترات حكم الملوك الخيالية والمبالغ فيها، أو ربما لا يمكن فهمها إلا ضمن مساقها السومري آنذاك.

ويبدو أن هذه الفترات الخيالية انسحبت بدورها على ما جاء في التوراة من أعمار خيالية للأنبياء.

إذن في فترة ما قبل الطوفان كان هناك خمس مدن حكمها ثمانية ملوك لمدة ٢٤٠٠٠٠ سنة.

ثم حلّ الطوفان /كما ورد في الوثائق السومرية- البابلية/ و«جرف البلاد»، لتعود الملوكية مرة ثانية وتنزل في مدينة كيش الرافدية حيث حكمها ٢٣ ملكاً لمدة ٢٤١٥٠ سنة وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ونصف اليوم.

ثم دُمّرت كيش (في حرب) وانتقلت الملوكية إلى مدينة اي- أنّا حيث حكمها ١٢ ملكاً لمدة ٢٣١٠ سنوات.

ثم دمرت أوروك وانتقلت الملوكية إلى أور حيث حكمها أربعة ملوك لمدة ١٧٧ عاماً.

وبعد دمار أور انتقلت الملوكية إلى أوان وحكمها ثلاثة ملوك لمدة ٣٥٦ عاماً.

وتدمرت أوان وانتقلت الملوكية إلى مدينة خمازي وحكم ملك واحد لمدة ٣٦ عاماً.

ودمرت خمازي وانتقلت الملوكية إلى أوروك وحكم ثلاثة ملوك لمدة ١٨٧ عاماً.

وبعد دمار أوروك انتقلت الملوكية إلى أور حيث حكمها ثلاثة ملوك لمدة ١١٦ عاماً.

ومن أوروك إلى أدب حيث حكمها ملك واحد لمدة ٩٠ عاماً.

ومن أدب إلى ماري حيث حكم فيها ٦ ملوك مدة ١٣٦ عاماً.

ومن ماري إلى كيش حيث حكمتها ملكة واحدة لمدة ١٠٠ سنة.

ومن كيش انتقلت الملوكية إلى مدينة اكشك حيث حكمها ٦ ملوك لمدة ٩٩ سنة.

وبعد اكشك انتقلت إلى كيش حيث حكمها سبعة ملوك لمدة ٤٩١ سنة.

ثم من كيش إلى أوروك حيث حكمها لوجال زاجيزي لمدة ٢٥ عاماً.

ومن أوروك إلى أكد وحكم فيها ١١ ملكاً لمدة ١٩٧ سنة.

ومن أكد إلى أوروك حيث حكمها خمسة ملوك لمدة ٣٠ سنة.

وبعد دمار أوروك انتقلت الملوكية إلى الكوتيين حيث حكم ١٢ ملكاً لمدة ٩١ سنة.

دُمر الكوتيون وانتقلت الملوكية إلى أوروك وحكم ملك واحد ٧ سنوات و٦ أشهر و١٥ يوماً.

ثم دمرت أوروك وانتقلت الملوكية إلى أور.

وينتهي إثبات الملوك السومريين عبر سلالتي أور الثالثة وسلالة مدينة إيسن في ٢٠١٧-١٧٩٤ ق.م.

ويبدو أن الفترات المحددة فيما بعد الطوفان ولا سيما في وسط ونهاية القائمة كانت واقعية إلى حد ما.

وقد ذكرت إحدى الوثائق: «أن الطوفان قضى على الجميع وبعد الطوفان نزل الحكم الملكي من السماء من جديد وأصبحت مدينة كيش مقر حكم الملوك. وقبل الطوفان كان الحكم الملكي قد هبط من السماء لأول مرة في مدينة اريدو». ونؤكد هنا أيضاً أنه قبل نوح كانت النذر من الملائكة فقط، وقد تم التعبير عنه بأن الحكم هبط من السماء، ثم صار مشتركاً بشراً وملائكة (نوح حتى إبراهيم) ثم بشر فقط وهو الرسول محمد (ص) وظل هذا المعتقد ساري المفعول فترة طويلة من الزمن بأن سلالات الملوك مقدسة.

من حيث المبدأ، إذا تعارض ظاهر نص قرآني مع حقيقة علمية ثابتة وجب اللجوء إلى التأويل. وإن تعارض فهمنا لنص قرآني مع حقيقة علمية ثابتة حكمنا بأن فهمنا للنص هو الخطأ وليس النص بذاته، لأن كلام الله تعالى - بداهة - لا يمكن ولا يجوز أن يتعارض مع كلماته أي مع قوانينه ونواميسه.

ولقد نظرنا في التنزيل الحكيم فوجدنا فيه حقيقة ومجازاً، ووجدنا فيه أعداداً تشير إلى القلة أو إلى الكثرة أكثر مما تشير إلى رقم إحصائي بعينه، كعدد الملائكة في قوله تعالى ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران ١٢٤-١٢٥). وفي قوله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال ٩). والواضح أن هذه الآلاف (٣/ ٥/ ١) ليست أرقاماً إحصائية بقدر ما هي البُشرى والتثبيت وإثارة مشاعر الصمود والصبر. وكعدد السنين التي يرجوها المشرك في نفسه في قوله تعالى ﴿. . وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ . . .﴾ (البقرة ٩٦). ووجدنا أن الزمن يطول ويقصر، فاليوم الواحد يعادل حيناً ألف سنة كما في قوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة ٥). وقوله (مما تعدون) يدل بكل وضوح على أن هناك سنين قابلة للعد وأخرى غير قابلة للعد. والليلة الواحدة أكثر خيرية من ألف شهر كما في قوله تعالى ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر ٣). وكانت يجب أن تكون - بحساب آية السجدة ٥ - خيراً من ستة آلاف شهر. هذا إن اعتبرنا أن الشهر هو زمن وليس حدثاً وهو الإشهار. وأرى أن الشهر في سورة القدر هو من الإشهار وليس فترة زمنية.

فإن انتقلنا من آيات التنزيل الحكيم إلى ما نتداوله نحن في حياتنا اليومية، وجدنا أن هناك سنة شمسية وسنة قمرية تختلفان بعدد الأيام، وأن هناك أسبوعاً مؤلفاً من سبعة أيام، لكنه لم يكن كذلك دائماً، فقد مرت على الإنسانية فترات كانت أيام الأسبوع فيها ثمانية. وانظر حين نقول: الساعة الآن عشرة إلا خمسة، نجد أننا لا نعني إطلاقاً أنها الساعة الخامسة (١٠-٥=٥) لأننا استعملنا وحدتين زمنيتين مختلفتين الأولى ساعة والثانية دقيقة وكذلك التنزيل الحكيم استعمل

وحدتين مختلفتين هما السنة والعام، وهذا يعني بالضرورة أن حاصل الطرح بين ألف سنة وخمسين عاماً ليس ٩٥٠.

هذا كله يعطينا فسحة تسمح لنا بمرونة تأويلية يتطابق فيها الدليل العلمي مع العدد القرآني، ومع ذلك فقد أعطانا الدليل العلمي أن القرآن استعمل التقويم الذي كان سائداً في عهد نوح وليس في تقويمنا نحن. فمتوسط الأعمار عند البشر في نمو مستمر وليس العكس، والدليل العلمي أعطانا بأن نقول (صدق الله العظيم) حول زمن دعوة نوح في قومه. حيث نبّهنا التنزيل الحكيم قبل الاكتشافات الآثارية بأن التقويم المستعمل في عهد نوح يختلف عن التقويم المستعمل الآن.

١٦ - لقد حمل نوح معه في السفينة مجموعة من المؤمنين وأهله إلا من سبق عليه القول، أي أن ابن نوح ليس من أهله والاحتمال وارد بأن نوح كان أبوه ولكن ليس والده، لأن امرأة نوح كانت من الكافرين ولم تقم لنوح أي عهد، وكذلك امرأة لوط حيث قال تعالى عنها ﴿إلا امرأتك فإنه مصيبها ما أصابهم﴾ أما عن امرأة نوح فلم يذكر أنها هلكت مع قومها لأنها من أهله ووعده الله بأن ينجي أهله.

١٧ - ظهور طبقة الملأ وطبقة الأراذل. فقد بدأ منذ نوح (ع) ظهور التمايز الاجتماعي - أو التمايز الطبقي كما يسميه البعض - والملأ: الأشراف من الناس الذين ملئوا كرماً وحسن خلق (ابن فارس، ج٥ ص ٣٤٦). ونحن نرى أن كل من امتلأ بصفة ما كريمة أو خسيسة واشتهر بها فهو من الملأ. وعلى هذا، فالملأ عندنا ثلاثة أصناف: الملأ السياسي، وهم كل من امتلأ بالقوة والسلطة، والملأ المالي أو الاقتصادي، وهم كل من امتلأ بالثروة، والملأ الديني، وهم كل من امتلأ بالعلوم الدينية كرجال الدين والهامانات.

وبالعودة إلى معالم الثقافة العُبيدية والتي يُعتقد أن الطوفان حصل خلالها، بمعنى بين الألف الخامس ومنتصف الألف الرابع قبل الميلاد، فإننا نجد أن

العبيديين كانوا قد عرفوا الزراعة وتأنيس الحيوان وصناعة الفخّار، واعتمدوا في أبنيتهم وأدواتهم على القصب والطين ومارسوا الزراعة المروية.

فإن كان الملأ السياسي غير متصالح مع شعبه ويحكمه بالقمع والإكراه فهو ملأ مستبد ومثاله فرعون. وإن كان الملأ المالي يستغل شعبه ويجوِّعه فهو أيضاً مستبد مثاله قارون، وإن كان الملأ الديني يمسك برقاب الخلق، وينصب نفسه وصياً مرجعياً على عقولهم، ورقيباً على جسور العلاقة بينهم وبين ربهم لايمر عليها شيء في الاتجاهين إلا بإذنه، ويعتبر أنه ممثل الإله في الأرض، فهو بدوره ملأ مستبد مثاله هامان.

أما الأراذل فهم من فعل رذل وهو الدون من كل شيء (ابن فارس ج٢ ص ٢٠٩). والأراذل بالنسبة للفراعين هم الدهماء، وبالنسبة للهامانات هم العوام، وبالنسبة للقوارين هم الفقراء، وبالنسبة للعلماء من غير رجال الدين هم الجهلة[1].

بالمقابل، قد يكون هذا الملأ إيجابياً كملأ بلقيس ملكة سبأ، وهم مَن نسمّيهم الآن «البطانة الصالحة» التي ندعو اللّه في صلاة الجمعة أن يعطيها للحكام، لكن اللّه سبحانه في معظم الحالات لايستجيب.

ثمة قانون عام يقول إن لكل ملأ مصالحه الخاصة، فإذا ظهر ما يضرب هذه المصالح فإن أول من يهبّ للدفاع عنها هم الملأ الذين يخافون على مصالحهم وامتيازاتهم. وأنا أرى أن الملأ المستبد الأساسي هم رجال الدين (العلماء الأفاضل) الذين يقفون في وجه كل دعوة إصلاحية وخاصة على الصعيد الديني، لأن أي إصلاح ديني لا بدّ أن يضرب مصالحهم ويطيح بامتيازاتهم. وأرى أن الملأ الديني هم أخطر ملأ موجود في العالم الإسلامي اليوم، لأنهم أكثر طبقة

---

(١) المثقفون في الوطن العربي يعتبرون أنفسهم من الملأ لكنهم ليسوا كذلك، فهم - حسب التعبير القرآني - في أحسن أحوالهم جنود لصنف من أصناف الملأ الثلاثة. ولقد شاع في الثقافة العربية الإسلامية اسم «أهل الحل والعقد» وهؤلاء هم الملأ حسب المصطلح القرآني.

تسعى إلى تكريس العامية والجهل عند الناس وتحوّلهم إلى قطيع، وتتدخل باسم الإله في أدق تفاصيل حياتهم. ولاتؤمن بشيء اسمه حرية الاختيار، أو بشيء اسمه العقل النقدي.

١٨ - لقد عاش نوح وقومه في منطقة غنية بالينابيع تحيط بها جبال غزيرة الأمطار بدليل قوله تعالى على لسان ابن نوح ﴿قَالَ سَآوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِۚ . . .﴾ (هود ٤٣). والمعروف أن العواصف المطرية في الجبال تسبب سيولاً مدمرة تجتاح المناطق المنخفضة والسهول والوديان. وكلنا يذكر أن أخبار خراب الكعبة المشرّفة وقيام القبائل بترميمها قبل البعثة النبوية إنما حصل بسبب السيول النازلة من الجبال المحيطة بمكة.

لكن اللّه تعالى إذا أراد إغراق قوم يعيشون في الأناضول مثلاً فهو لايحتاج إلى إغراق من في الهند والصين واليابان، خصوصاً أنه يقول ﴿. . .وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ. . .﴾ (الأنعام ١٦٤). ومن هنا نقول إن الطوفان كان محلياً وليس عالمياً.

فإن سأل سائل: فكيف سار هذا الطوفان بين الجبال دون أدوات توجيه ودون أشرعة؟ أجبناه: لقد تم صنع الفلك بوحي من اللّه ورعايته. وسار باسم اللّه في جريه بدلالة قوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ * وَهِىَ تَجۡرِى بِهِمۡ فِى مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ. .﴾ (هود ٤١-٤٢).

١٩ - لقد دعا نوح على قومه أثناء الطوفان لاقبله، بعد أن رأى الأهوال وتصوّر ما يمكن أن يفعله من سيبقى على قيد الحياة، بدلالة دعائه قائلاً ﴿. . .رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ (نوح ٢٦-٢٧). وهذه عِبرة عامة بأن كل من يتعرّض للمخاطر والأهوال وينجو فسوف ينتقم انتقاماً شديداً ممن كان السبب في تلك الأهوال. وفي هذه الآية نفهم أن فعل (يلدوا) يحمل مفهوماً تربوياً ولايحمل مفهوماً بيولوجياً أي منذ الصغر يربّون أولادهم على الفجور والكفر.

- معنى اسم نوح :

اشتقاق اسم نوح حسب النص التوراتي العبري (جذر نحم):

اشتق كتبة التوراة اسم (نوح) من جذر (نحم) العبري (ويعني عزّى) وهو جذر مصري قديم، وربما طابق (نحم) العربي. فقد ورد بالنص التوراتي [شمو نح لأمر زه ينحمنو]، ومثله بالتوراة السامرية.

اشتقاق اسم نوح حسب بعض ترجمات النص التوراتي (جذر نوح):

استعملت التوراة السبعينية (ترجمة يونانية للتوراة منذ القرن الثالث ق.م) وكذلك كتاب منسوب لفيلو (من القرن الأول الميلادي) أثناء ترجمة النص العبري السابق، كلمة (rest) التي يُترجم بها عادة معنى جذر نوح العبري (سكون، قرار، استقرار، نزول، جلوس، استراحة، توقف، . .)، أي نفس الجذر العربي (نوخ) تقريباً، وقد حذت حذوهما بعض الترجمات الحديثة.

اشتقاق اسم نوح حسب جمهور علماء أو مصادر أهل الكتاب (جذر نوح):

يُشتق اسم نوح (لدى جُلّ علماء أهل الكتاب) من جذر (نوح) العبري الذي لايكاد يختلف عن جذر (نوخ) بالعربية. وجذر (نوح) بالعبرية يعني (استقر، نزل، حلّ، خفض، سكن، خيّم، استراح ومنه الأسماء (منزل، قرار، مقر، مستقر، سكن، حلول، جلوس). ونفس الاشتقاق لاسم نوح (من معنى جذر نوح) لدى الموسوعة اليهودية والكاثوليكية وغيره.

وتفسير اسم نوح من معنى (rest) تفسير صحيح أو قريب منه، ولكنه لم يفسّر السبب الحقيقي (الذي سنعلمه لاحقاً) لتسمية نوح. ولعل قول بعض مفسري المسلمين أن (السكن أو الساكن) اسماً أقدم لنوح، هو بتأثير من أهل الكتاب.

معنى اسم نوح عند أكثر المفسرين المسلمين:

فسّره أكثرهم بمعنى النواح (البكاء والصياح والعويل). وهو تفسير سطحي غير موفق، لأنه فسّر معنى كلمة قديمة (نوح)، بمعنى كلمة عربية (نوح) لمجرد تطابق اللفظ.

الاحتمال الأصح والأقرب لمعنى نوح
(نوح أي الذي أناخ في قومه ألف سنة)

اسم (نوح) عليه السلام لغة قديمة في نفس معنى الإناخة والنوخة (الإقامة والمكوث بالأرض)، وذلك لطول لبث نوح بالأرض وبقائه حيّاً بها:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً {١٤} العنكبوت، فاشتقاق اسم نوح من النوخة، لأنه أناخ بقومه ٩٥٠ سنة (اللبث والبقاء والمقام في قومه نحو ألف سنة). فكأن اسمه هو (الذي أناخ بالأرض)، أي مكث وقرّ واستقر وظل وخلد فيها كثيراً جداً، فاسمه بمعنى (الذي أناخ بالأرض فلبث حيّاً ألف سنة).

جذر نوخ يستعمل في أمور عديدة أكثرها في شأن الإبل مثل: (أَنَخْتُ الجملَ)، (نوّخ البعيرَ)، (وتَنَوَّخَ الجملُ الناقةَ)، (نَخْنَخْت الناقةَ فَتَنَخْنَخَتْ)، (تَنَخْنَخَ البعيرُ)، (أناخ الجملُ)، (نوّخ الجملُ)، (تنوّخ الجملُ)، وقد يستعمل للنَعَم عموماً (النَّخّ) أو للأسد (المُنِيخ)، أو في غير ذلك مثل: (أناخ بالمكان)، (مُناخ سوء)، (يُنِيخ الرجلُ)، (ولَوْ أَنَخْنا جَمْعَهم تَنَخْنَخوا)، (أناخ بفلان حاجَته) (أناخ به البلاءُ والذلُ)، (أناخ بهم المَحْلُ)، (أناخ الدهرُ)، (أناخ الشتاءُ)، (أناخ الأمرُ عليهم)، (أناخ الخطبُ قبضَ..)، (أَناخَ الشّيبُ ضيفاً)، (أناخَ اللَّيْلُ غَاربَ..)، (نَوَّخَ اللّهُ الأرضَ)، (أناخ السحابُ)، (م ن خ ت، م ن خ ى، بلسان اليمن القديم).

ولكن يبدو أن القدماء بزمن نوح (أو قومه على الأقل)، لم يعرفوا الخاء فلفظوها حاء. فاسم (نوح) هو اسم ناداه به قومه لطول نوخته (إقامته ومكثه ولبثه في الأرض)، فكأنهم (بسبب طول حياته وعدم موته) نعتوه باسم المُنيخ أو المعمّر أو الخالد أو الأبدي أو الماكث أو القارّ أو اللابث اللابد المُقيم الذي لا يبرح ولا يزول [يا نوح يا أكبر الأنبياء ويا طويل العمر]، أو بالأحرى كما سمّوه بلسانهم القديم (نوح).

وقد أصاب رؤوف أبو سعدة رحمه اللّه في تفسير اسم نوح في كتابه (من

إعجاز القرآن فى أعجمي القرآن). ومن الخطأ ما جاء بالتوراة أن قوم نوح كانوا يعمّرون بضع مئات من السنين، لأنه لن تكون لنوح ميزة في اسمه أو خصوصية لو أناخ قومه مثله.

لفظ ومعنى (نوح) بالحاء هو نفسه (نوخ) بالخاء

- التبادل بين حرفي الخاء والحاء قد يحدث بين لغات المنطقة المختلفة (نوح- نوخ)، (تنوح- تنوخ). فالعرب مثلاً لفظوا كلمة (تنوخ) بالخاء، بينما لُفِظ نفس الاسم باللغة الآرامية النبطية بصورة (تنوح) بالحاء.

- وقد يحدث هذا التبادل بين حرفي الخاء والحاء بين الفصحى والعامية (تنخ/ تنح). فبالفصحى لفظة (تنخ) بالخاء، وبالعامية تُلفظ بالحاء (تنّح) كفعل، و(تناحة) و(تتنيح) كمصدر، و(مُتّنِح) و(تِنح) كصفة للشخص (اللابث والرابض والجاثم في مكانه لا يتحرك).

- كما قد يحدث هذا التبادل بين حرفي الخاء والحاء بين لهجات الفصحى نفسها.

جذر (نوح) بالحاء في اللغات القديمة للشام والعراق

عرفت اللغات القديمة بالشام (كالآرامية والكنعانية ولهجة في الأوغاريتية) وبشمال الحجاز (كالآرامية النبطية) جذر (نوح) بلفظه بالحاء (وبمعنى جذر نوخ العربي). كما عرفته النصوص التوراتية بهذا المعنى. ولا تزال مدن بالشام (لبنان) تتسمى بهذا الجذر مثل (نيحا) و(يانوح).

وقد اشتقت كلمة (night) كما بالإنجليزية، أو بلهجات لغات أوروبا الأخرى) من جذر (نوح، نوخ) لأن الليل (night) نوخة (سكن واستراحة). وربما الآنك (الرصاص) من ثقله (كأنه لغة قديمة في جذر نوخ أو هما تنوّع لفظي من أصل واحد).

كما يرد لفظ (نحت) بالكنعانية أو الآرامية أو (نخت) بلسان العراق وبعض الشام القديمين بنفس معنى نوح).

لفظ مصري قديم قريب من لفظ نوح ومعناه وبنقوش مصر جاء لفظ (نحح) بمعنى الأبدية، وتسمّى به آلهة الخلود والأبدية. كما سمّي القبر : أس- ت نحح (مكان الأبدية)، بر نحح (بيت الأبدية)، تا نحح (أرض الأبدية)، وغيره من التسميات. وأصبحت لفظة (نحح) بالقبطية (إنِح).

واسم نوح (لفظاً ومعنى) غير بعيد عن ذلك الجذر المصري القديم. كما ارتبط لفظ (نخخ) المصري (بالهرم وطول العمر). وهذا قد يكون من نفس أصل جذر (نوخ) العربي.

بعض اللغات القديمة لفظت نوخ بالخاء كلفظه العربي كالأكدية (بالعراق) والأوغاريتية والعمورية (بالشام) تلفظه بالخاء كلفظه العربي (نوخ) ومعناه.

مراجع البحث:

١- فراس السوّاح - مغامرة العقل الأولى ط٢ - دار سومر للنشر ١٩٨٦.

٢- صموئيل كريمر - من ألواح سومر - ت: طه باقر - مكتبة المثنى بغداد.

٣- طه باقر - ملحمة جلجامش - وزارة الإعلام - العراق ١٩٧٥.

٤- طه باقر - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - نسخة إلكترونية.

٥- زينون كاسيدوفسكي - الواقع و الأسطورة في التوراة. - ت: د. حسان إسحاق - دار الأبجدية - دمشق ١٩٩٠ ط١.

٦- أ- كوندراتوف - الطوفان العظيم - ت: د. عدنان حمودي - دار وهران - قبرص ط١ ١٩٨٦م.

٧- د. نائل حنون - ملحمة جلجامش - دار الخريف - دمشق ط١ ٢٠٠٦م.

٨- د. سلطان محيسن - المزارعون الأوائل.

٩- برورهارد برينتس - نشوء الحضارات القديمة.

١٠- سيتون لوين - آثار بلاد الرافدين - ت: محمد طلب - دار دمشق ط١ ١٩٩٣ - دمشق.



هــود
عليه السلام

كان الصيد البرّي هو الغالب في عهد نوح (ع). أما في عهد هود فقد بدأت الزراعة بالظهور، وظهر معها بناء الحظائر لحماية الحيوانات المستأنسة، كالضأن والماعز والبقر والإبل، من الحيوانات البرّية المفترسة. ولم يعد الصيد هو الغالب بل حلّ محلّه الرعي. وترافق ذلك مع ظهور الأبنية البدائية للسكن، وكانت نوعين: نوع متنقل خفيف يسهل حمله أيام الظعن، ونوع ثقيل لايمكن نقله هو البيوت من الشجر أو من الحجر أو من كليهما معاً، والنوعان مذكوران في قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (النحل ٨٠).

ونلاحظ أن لفظ الأنعام رغم وروده في اثنين وثلاثين موضعاً من التنزيل الحكيم، ورغم وجود سورة فيه تحمل هذا الاسم هي السورة رقم ٦، إلا أنه لم يرد مطلقاً في قصة نوح. وهذا لا يعني أنها لم تكن موجودة. بل يعني أنها لم تكن من سمات عهد نوح.

وكما وقفنا في قصة نوح عند قوله لقومه (ويمددكم بأموال وبنين..) نوح ١٢، واعتبرناه نبوءة حق تستشرف ما سيحصل فيما بعد، كذلك نقف في قصة هود عند قوله لقومه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾ (الشعراء ١٣٢-١٣٣). ونقارن بين الآيتين لنلاحظ ما يلي:

أ - الأموال في آية نوح ١٢ هي نفسها الأنعام في آية الشعراء ١٣٣.

ب - الإمداد بصيغة المضارع التي تحمل في طيّاتها لمسة دلالية على المستقبل، تحوّل إلى إمداد بصيغة الماضي، في إشارة إلى أن نبوءة نوح في وقتها أصبحت واقعاً تؤكده الدراسات في عهد هود.

وننتقل إلى تعريف الأنعام وتعريف البنين باعتبارهما من أبرز سمات عهد هود.

الأنعام:

النَّعَمُ: جمع لامفرد له يشمل الإبل والبقر والماعز والضأن. وورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ (المائدة ٩٥)، فإذا أفردناه إلى نِعمَةٍ أو إلى نَعمة صارت شيئاً آخر من حيث الدلالة.

والأنعام جمعُ جمعٍ للنعم، فهو مثله في الدلالة يشمل الإبل والبقر والماعز والضأن، والأنعام من نعم الله على خلقه كحلقة في سلسلة الدورة الغذائية للبشر والإنسان. والانتفاع بها لا يقتصر على أكل لحومها، بل يتعداه إلى وجوه قررها سبحانه في كتابه العزيز. كقوله تعالى ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ...﴾ (النحل ٥-٧). إضافة إلى جعل جلودها بيوتاً خفيفة في الترحال، وإلى الانتفاع من أصوافها وأوبارها وأشعارها في صنع الملابس والأثاث والمتاع، كما مر معنا في آية النحل ٨٠.

والأنعام - بالأصل - هي الحيوانات المستأنسة من آكلات العشب في قوله تعالى ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا * مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ (النازعات ٣١-٣٣) أي ماءها + مرعاها = متاعاً لكم ولأنعامكم، وإنما قلنا المستأنسة لنخرج منها الغزلان والزرافة والسناجب والثيران الوحشية، وقلنا من آكلات العشب لنخرج منها القطط والكلاب وكل ما له مخالب وأنياب - حسب الحديث

الرسولي - وإن كان أليفاً، التي لم يحلّ أكلها ولم تدخل في قوله تعالى ﴿... وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ...﴾ (الحج ٣٠).

قد يسأل سائل: وهل كانت الأنعام محرّمة حتى يقال (وأُحلّت) بقصد تحليلها؟ نقول: التحليل والتحريم في التنزيل الحكيم يتناول الأفعال ولايضاف إلى ذوات الأشياء، وهذه واحدة. والحلال هو الأصل في الأشياء والحرام هو الاستثناء، بدلالة قوله تعالى ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ..﴾ (آل عمران ٩٣). إلا في مسألة قتل النفس، إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً، فالحرام هو الأصل والحلال هو الاستثناء. وهذه واحدة ثانية. وفي ضوء هاتين يصبح معنى الآية: أحل لكم ذبح الأنعام لأكلها والانتفاع بها، بعد أن كان ذلك محرّماً بالأصل، عدا ما ذكر التنزيل الحكيم من أنواع بقيت على تحريمها كلحم الخنزير رغم أنه من الحيوانات المستأنسة آكلات العشب لذا فإننا نذكر اسم اللّه عند ذبح الأنعام لنتذكر بأن اللّه أحلّ لنا قتلها وأن التحريم هو الأساس في الدماء.

لابد قبل أن نختم فقرتنا هذه من أن نتحدث عن «بهيمة الأنعام» التي ورد ذكرها في ثلاثة مواضع من التنزيل الحكيم:

١ - ﴿... أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة ١).

٢ - ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ..﴾ (الحج ٢٨).

٣ - ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ...﴾ (الحج ٣٤).

لقد شرحنا المقصود بالأنعام في الفقرة السابقة، بقي أن نشرح المقصود بالبهيمة لننتقل بعدها إلى تعريف بهيمة الأنعام.

البَهْمَةُ : ولد الضأن والماعز ذكراً كان أم أنثى، جمعها بُهْم، وجمع الجمع

بِهام. والبهيم: الأسود، والبهيم من الألوان ماكان لوناً واحداً يخالطه غيره سواداً أم بياضاً، جمعها بُهْم. والبهيم: المجهول الذي لايعرف. والبهيمة: كل ذات أربع قوائم من دواب البر والبحر ما عدا السباع، جمعها بهائم. والبهيمة: كل حي لا يميّز.

فإذا عرفنا هذا، وأردنا تعريف بهيمة الأنعام فنحن أمام أحد اعتبارين: إما أن البهيمة والأنعام شيء واحد والإضافة بينهما للبيان لقولك خاتم فضة، وفي ضوء هذا الاعتبار يصبح معنى قوله تعالى ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ كمعنى قوله ﴿أحللت لكم بهيمة الأنعام﴾ وهذا غير وارد في التنزيل الحكيم. أو أن المراد بالبهيمة شيء وبالأنعام شيء آخر، وعلى هذا الاعتبار في المراد قولان: الأول أن المراد ببهيمة الأنعام الظباء وبقر الوحش ونحوها، وكأنهم أرادوا ما يدانيها من جنس البهائم ويشابهها في الاجترار ويماثلها في عدم الأنياب (وهذا ما نميل نحن إليه أي هي الأنعام المستأنسة المذللة) والثاني أن المراد ببهيمة الأنعام أجنّتها.

والخلاصة أننا نفهم من آيتي الحج وآية المائدة أن بهيمة الأنعام هي الحيوانات المستأنسة المذللة من الأنعام آكلة الحشائش وهي التي تصلح كأضاحي، ومن هنا فنحن في الأضاحي لا نذبح فيلة ولا زرافات ولا وحيد القرن، أما الظباء فيروى عن عمر بن الخطاب أنه أجاز ذبحها كأضحية في الحج.

البنين : قد تأتي من فعل بنن وقد تأتي من فعل بنو. أي أن البنين في قوله تعالى ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾ (الشعراء ١٣٣)، والبنون في قوله تعالى ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾ (الكهف ٤٦)، لا علاقة له بالذكور من الأولاد، بل بالبنيان. ودليل ذلك أمران: الأول لغوي والثاني قرآني ونبوي. أما الأول، فيقول أصحاب المعاجم: كل ما زاد مفرده عن جمعه بالهاء فإنه يؤنّث ويذكّر، فمثلاً: كنانة مفرد جمعه كنان وجمع الجمع كنون، وظنانة مفرد جمعه ظنان وجمع الجمع ظنون كما في قوله تعالى ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ (الأحزاب ١٠)، وكذلك بنانة مفرد جمعه بنان وجمع الجمع بنون (انظر مختار الصحاح / محمد بن أبي بكر الرازي)

وأما الثاني، فإن اللّه تعالى يقول عن يوم الحشر: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (الشعراء ٨٨)، والنبي (ص) يتحدث عن الباقيات الصالحات فيقول في حديثه - إن صحّ - : ينقطع عمل العبد بموته إلا من ثلاث، صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له. أهـ. ونفهم أن دعاء الولد الصالح ينفع والديه يوم الحشر. فإن نحن فهمنا أن (البنون) في آية الشعراء هم الذكور من الأولاد، تماماً كـ (البنين) في قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً . . .﴾ (النحل ٧٢)، وفي قوله تعالى ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا . . .﴾ (الإسراء ٤٠)، هنا نرى أن الحديث النبوي تطابق تماماً مع القرآن حيث ذكر الولد، والولد هو الذكر والأنثى، ولنتج لدينا أن دعاء البنات الصالحات لوالديهم لاينفعهم يوم الحشر من جانب آخر، وكلاهما لا يقول بهما عاقل.

نأتي الآن إلى مارأيناه من العِبَر في قصة هود:

١ - بعد تحقيق نبوءة نوح في ظهور تذليل الأنعام والبناء، بدأ ظهور القرى التي ستصبح بلداناً ومدناً فيما بعد، والتي جاء اسمها من فعل قرَّ أي سكن واستقر وهذه حقيقة تاريخية أي حصول الاستقرار (القرى) مع تذليل الأنعام.

٢ - اتجه هذا البنيان إلى رؤوس التلال في عهد هود، لأن طوفان نوح الذي جرف المناطق المنخفضة ما زال باقياً في ذاكرة الأجيال، بدليل قوله تعالى ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ (الشعراء ١٢٨)، والرِّيع بكسر الراء وفتحها هو المرتفع من الأرض والهضبة المشرفة على مسارب الناس، جمعه رياع وريوع وأرياع، ولكن لماذا سمّى اللّه البناء على التلال عبثاً؟ والجواب في قصة نوح حين قال له ابنه ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ فأجابه نوح ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ (هود ٤٣). وكأن قوم هود يفعلون ما فعله ابن نوح، ويحاولون الهرب إلى الجبال من أمر اللّه وعذابه، وهذا هو العبث الذي لافائدة منه.

٣ - لقد سكن قوم هود في منطقة جبلية غزيرة الأمطار، حيث بنوا مصانع

لتجميع مياه الأمطار، إذ لا أنهار في الجبال ولا سواقي، بدليل قوله تعالى ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (الشعراء ١٢٩). والمصانع جمع مفرده مصنع، والمصنعة: شبه الحوض يجمع فيه ماء المطر (انظر مختار الصحاح).

٤ - ظهور التعددية في التخصص والاختصاص عند الآلهة، فهناك إله للخير وإله للشر، وإله للخصب وإله للمطر، وهذه مرحلة متقدمة بالنسبة لقوم نوح الذين عبدوا ظواهر الطبيعة من شمس وقمر. والدليل قوله تعالى عن هود ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ. . .﴾ (الأعراف ٧١).

٥ - كانت بعثة هود مقتصرة على الدعوة إلى التوحيد، إذ لم أجد في التنزيل الحكيم أنه دعا إلى أمر آخر غير التوحيد. يقول تعالى ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف ٦٥).

٦ - جاء إهلاك قوم هود بظاهرة طبيعية هي الريح التي يكون تأثيرها في المناطق المرتفعة أكثر بكثير منه في المناطق المنخفضة، بعكس الطوفان الذي يكون تأثيره على المناطق المنخفضة أكبر. بدلالة قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ (القمر ١٩). والريح الصرصر هي العاتية الشديدة البرد والصوت التي لاينقطع هبوبها ولاتتراخى شدّتها. أما قوله ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ فاليوم هنا لا يعني الوقت والزمان الذي مقداره ٢٤ ساعة، بل يعني الحين والمناسبة كقولنا: عام الفيل وشهر الحج، وإلا فكيف يقول تعالى في موضع آخر ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ. . .﴾ (فصّلت ١٦)؟ أضف إلى ذلك أن الزمان وعاء يتضمّن الأحداث وأن المكان وعاء يتضمّن الأشياء والأشخاص، وأن النحس والسعد لا يطالهما بالذات بل يطال الأحداث في الزمان والأشياء في المكان.

٧ - مرة أخرى، وكما قلنا إن الطوفان في عهد نوح كارثة محلية وليست عالمية، نقول عن الريح الصرصر التي أرسلها تعالى على قوم هود.

٨ – كان هود وقومه من قبيلة عاد، بدلالة قوله تعالى ﴿. . . أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (هود ٦٠). وهي قبيلة عربية بائدة من العمالقة سكنت في أرض الأحقاف من جهة اليمن جنوب شبه الجزيرة العربية شمال حضرموت، بدليل قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ. . .﴾ (الأحقاف ٢١). وهذه هي عاد الأولى التي أشار إليها تعالى بقوله ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ (النجم ٥٠)، وهي عاد إرم التي ذكرها تعالى بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ (الفجر ٦–٨). يقول المؤرخون إنهم أول من اتخذ الأصنام وكان لهم آلهة يعبدونها أكبرها صدا وصمودا وهرا. (أنظر البداية والنهاية ج١ ص١٢١). ومن هنا نستنتج أن هناك أكثر من عاد واحدة.

٩ – لم يأت هود قومه بأية معجزة تدلّ على نبوّته، ويؤكد ذلك قوله تعالى ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ. . .﴾ (هود ٥٣).

فإن قال قائل: إن حجة قوم هود قوية، والناس عادة لا تترك معتقداتها لمجرد قول أو زعم لا دليل على صحته، خصوصاً وأن اللّه تعالى يقول ﴿. . . وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء ١٥)، قلنا في الجواب: لا شك أبداً في أنه سبحانه لا يغيّر قوانينه ولا يبدّل كلماته بين مناسبة وأخرى. صحيح أننا لا نجد في التنزيل الحكيم مايشير إلى معجزة تدلّ على صدق نبوّة هود، لكننا نجد في أكثر من آية منه ذكراً لرسُل سبقوا هوداً لقوم عاد وهم النذُر ويُحتمل أنهم كانوا معه أيضاً وهم دليل الإنذار. وإليك هذه الآيات:

١ – ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء ١٢٣).

٢ – ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ. . .﴾ (هود ٥٩).

٣ – ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ (القمر ١٨).

٤ – ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ. . .﴾ (الأحقاف ٢١).

وإذا ما تتبّعنا ما تُقدّمه المعطيات الأثرية والتاريخية نجد أنها تمنحنا دليلاً علمياً مهماً يُعتبر مصداقاً لما جاء في القرآن الكريم لا سيّما لجهة العمران وأحوال الحياة والبيئة الطبيعية.

في بداية عام ١٩٩٠ أُعلن عن اكتشاف مدينة \ وبار - عُبار \، والأمر الذي جعل ذلك الاكتشاف مثيراً للاهتمام هو الإشارة إلى تلك المدينة في القرآن الكريم. ومنذ ذلك الحين فإن الناس الذين كانوا يعتقدون أن «عاداً» التي روى عنها القرآن الكريم هي محض خيال، وأنه لايمكن اكتشاف مكانها، لم يستطيعوا إخفاء دهشتهم أمام ذلك الاكتشاف. فاكتشاف تلك المدينة التي لم تُذكر إلا على ألسنة البدو قد أثار اهتماماً وفضولاً كبيرين.

يعود الفضل في اكتشاف هذه المدينة الغارقة تحت الرمال إلى نيكولاس كلاب، وهو عالم آثار هاوٍ.

ومع إجراء التنقيبات الأثرية تبيَّن أن تلك المدينة الآبدة تنتمي لقوم «عاد» ولعماد مدينة «إرَم» التي ذُكرت في القرآن الكريم؛ حيث إن الأعمدة الضخمة التي أشار إليها القرآن بوجه خاص كانت من ضمن الأبنية التي كشفت عنها الرمال.

وقد أشار الدكتور زارينز، وهو أحد أعضاء فريق البحث ومدير التنقيب، إلى أنه بما أن الأعمدة الضخمة تُعدّ من العلامات المميزة لمدينة «عُبار»، وحيث إن مدينة «إرَم» وُصفت في القرآن بأنها ذات العماد أي الأعمدة الضخمة، فإن ذلك يقدّم دليلاً على أن المدينة المكتشفة هي مدينة «إرَم» التي ذكرت في القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ (٧) ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ(٨)﴾. وقد أبانت التنقيبات الأثرية عن مخطط المدينة الدائري حيث يمر بها رواق معمّد دائري، في حين أن المواقع الأخرى في اليمن التي اكتشفت حتى الآن كانت أبنيتها ذات أعمدة مربّعة. ويبدو أن سكان مدينة أرم بَنوا العديد مِن الأعمدةِ التي غُطّيت بالذهبِ أَو صُنعتْ من الفضةِ وكانت هذه الأعمدة رائعة المنظر. ولقد كشفت الأبحاث التاريخية أن هذه

المنطقة تعرّضت لتغيّرات مناخية حوّلتها إلى صحارى، وكَانتْ قبل ذلك أراضي خصيبة.

كما أن صور الأقمار الصناعية عام ١٩٩٠ قدّمت أدلّة على وجود نظام متقدم من الإنشاءات المائية من قنواتٍ وسدودٍ استعملت في الرَيِّ ويُعتقد أنها كانت قادرة على توفير المياه لـ ٢٠٠,٠٠٠ شخص، كما تم تصوير مجرى لنهرين جافّين.

أما سبب اندثار حضارة عاد فقد فسّرته مجلة A m'interesse الفرنسية التي ذكرت أن مدينة إرم أو «عُبار» تعرّضت لعاصفة رملية عنيفة أدّت إلى غمر المدينة بطبقات من الرمال وصلت سماكتها إلى حوالي ١٢ متراً.

وقد احتار الدارسون في معرفة حقيقة تلك الآثار، فلجأوا إلى الكتابات القديمة الموجودة في إحدى المكتبات المتخصصة في ولاية كاليفورنيا وتعرف باسم مكتبة هنتنغتون Huntington Library، وإلى عدد من المتخصصين في تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم وفي مقدمتهم الأمريكي جوريس زارينز Juris Zarins والبريطاني رانولف فينيس Ranulph Fiennes. وبعد دراسة مستفيضة أجمعوا على أنها هي آثار عاصمة مملكة عاد التي ذكر القرآن الكريم أن اسمها (إرم) كما جاء في سورة الفجر، التي تعود إلى الفترة ٣٠٠٠ ق.م. إلى أن نزل بها عقاب ربّها فطمرتها عاصفة رملية غير عادية. وعلى الفور قام معمل الدفع النفّاث (The Jet Propulsion Laboratories J.P.L) في معهد كاليفورنيا للتقنية (California Institute of Technology)، بإعداد تقرير مطوّل يضمّ نتائج الدراسة، ويدعو رجال الأعمال والحكومات العربية إلى التبرُّع بسخاء للكشف عن تلك الآثار التي تملأ فراغاً في تاريخ البشرية، وكان عنوان التقرير هو: البعثة عبر الجزيرة (The Trans - Arabia Expedition). وقد ذكر التقرير أن اثنين من العلماء القدامى قد سبق لهما زيارة مملكة عاد في أواخر حكمها، وكانت المنطقة لا تزال عامرة بحضارة زاهرة، والأنهار فيها متدفقة بالماء، والبحيرات زاخرة بالحياة، والأرض مكسوّة بالخضرة، وقوم عاد مستكبرون في الأرض، ويشكلون

الحضارة السائدة فيها، وذلك قبل أن يهلكهم اللّه (تعالى) مباشرة. وكان أحد هؤلاء هو بليني الكبير من علماء الحضارة الرومانية الذي عاش في الفترة من٢٣ م إلى ٧٩ م، والآخر هو الفلكي والجغرافي بطليموس الإسكندري الذي كان أميناً لمكتبة الإسكندرية، وعاش في الفترة من ١٠٠ م إلى ١٧٠ م تقريباً، وقام برسم خريطة للمنطقة بأنهارها المتدفقة، وطرقاتها المتشعبة التي تلتقي حول منطقة واسعة سمّاها باسم (سوق عُمان).

ووصف بليني الكبير حضارة عاد الأولى بأنها لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أخرى على وجه الأرض، وذلك في ثرائها، ووفرة خيراتها، وقوّتها، حيث كانت على مفترق طرق التجارة بين كل من الصين والهند من جهة وبلاد الشام وأوروبا من جهة أخرى، وكانت تصدّر إليها البخور والعطور والأخشاب، والفواكه المجففة، والذهب، والحرير وغيرها.

وقد علّق بعض المؤرّخين على كتابات كل من بليني الكبير وبطليموس الاسكندري بأنها ضرب من الخرافات والأساطير، كما يتشكك فيها بعض مدَّعي العلم في زماننا ممّن لم يستطيعوا تصوّر الربع الخالي، وهو من أكثر أجزاء الأرض قحلاً وجفافاً اليوم، مليئاً في يوم من الأيام بالأنهار والبحيرات والعمران، ولكن صور المكوك الفضائي جاءت مطابقة لخريطة بطليموس الإسكندري، ومؤكدة ما كتبه من قبل بطليموس وبليني الكبير كما جاء في تقرير معهد الدفع النفّاث.

في تموز/يوليو سنة ١٩٩٠م تشكل فريق من البحّاثة في وكالة الفضاء الأمريكية (NASA) برئاسة (Charles Elachi) ومن معهد الدفع النفاث (J.P.L) برئاسة (Ronald Blom) للبحث عن (إرم ذات العماد) تحت رعاية وتشجيع عدد من الأسماء البارزة منها: Armand Hammar وSir Ranulph Fiennes وGeorge Hedges ولكن البحث تأجل بسبب حرب الخليج.

بعد الكشف عن إرم.

* في كانون الثاني/يناير سنة ١٩٩١م بدأت عمليات الكشف عن الآثار في

المنطقة التي حددتها الصور الفضائية واسمها الحالي الشصر واستمر إلى مطلع سنة ١٩٩٨م وأُعلن خلال ذلك عن اكتشاف قلعة ثُمانية الأضلاع سميكة الجدران بأبراج في زواياها مقامة على أعمدة ضخمة يصل ارتفاعها إلى ٩ أمتار وقُطرها إلى ٣ أمتار ربما تكون هي التي وصفها القرآن الكريم.

* في ١٧/٢/١٩٩٨م نُشر في مجلة تايم (Time) الأمريكية مقال بعنوان (Arabias Lost Sand Castle) بقلم (Richard Ostling) ذكر فيه الكشف عن إرم.

* بتاريخ ١٠/٤/١٩٩٢م كتب مقالاً بعنوان اكتشاف مدينة إرم ذات العماد نُشر بجريدة الأهرام القاهرية لخّص فيه ما توصّل إليه ذلك الكشف حتى تاريخه.

* في سنة ١٩٩٣م نشر بيل هاريس (Bill Harris) كتابه المعنون: (Lost Civilizations)

* بتاريخ ٢٣/٤/١٩٩٨م نشر (Nicholas Clapp) كتابه المعنون: The Roadto Ubar.

* بتاريخ ١٤/٦/١٩٩٩م نشر بيكو إير (Pico Iyer) كتابه المعنون: (Falling off The Map: Some Lonely Places in The World)

وتوالت الكتب والنشرات والمواقع على شبكة المعلومات الدولية الأنترنت منذ ذلك التاريخ، وكل ما نشر يؤكد صدق ما جاء بالقرآن الكريم عن قوم عاد ومدينتهم إرم ذات العماد بأنهم :

(١) كانوا في نعمة من اللّه عظيمة ولكنهم بطروها ولم يشكروها. ووصف بليني الكبير لتلك الحضارة بأنها لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أخرى كأنه ترجمة لمنطوق الآية الكريمة (التي لم يخلق مثلها في البلاد).

(٢) أن هذه الحضارة قد طمرتها عاصفة رملية غير عادية وهو ما سبق القرآن الكريم بالإشارة إليه.

هذه قصة (إرم ذات العماد) مدينة قوم عاد، التي جاءت الكشوف الأثرية الحديثة بإثبات ما ذكر عنها في القرآن الكريم.

ويبقى ما جاء في القرآن الكريم من ذكر لقوم عاد ولمدينتهم (إرم ذات العماد)، ولما أصابها وأصابهم من دمار بعاصفة رملية غير عادية صورةً من صور الإعجاز التاريخي في كتاب اللّه تشهد له بصفائه الربّاني، وبأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الجدير ذكره هنا هو أن علم الأنساب يعيد نسب النبي هود إلى نوح، حيث ورد :

هود بن عبد اللّه بن رباح بن الخلود بن عاد - جدّ هذه القبيلة - ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح.

كتب التاريخ الهندية القديمة تقول: إن أقدم قبر على الإطلاق في العالم معروف بالتواتر هو قبر النبي هود بالأحقاف بحضرموت منذ أكثر من أربعة آلاف سنة.

الجدير بالذكر أيضاً أن مساكن عاد تقع في أرض «الأحقاف»، من جنوب شبه الجزيرة العربية. والأحقاف تقع في شمال حضرموت، ويقع في شمال الأحقاف الربع الخالي، وفي شرقها عُمان. وموضع بلادهم اليوم رمال قاحلة، لا أنيس فيها ولا ديار.

وكانت أصنامهم ثلاثة: صدا وصمودا وهرا.

هود تسمية عربية مشتقة من الجذرالعربي هاد. فهو هائد أي تائب وراجع إلى اللّه. أو من هدى فهو المهدي والهادي. ولا يوجد ذكر للنبي هود خارج القرآن الكريم.

المراجع:

موقع النسّابون العرب
(علماً بأن علم الأنساب علم مشكوك به فيه كثير من المبالغات)

صالح
عليه السلام

هو نبيّ ثَمود ورسول اللّه إليهم يدعوهم إلى التوحيد. وثمود قبيلة من العرب البائدة كعاد الأولى وجُرْهُم ومَدْيَن، كانت كلها قبل إسماعيل، حسب رأي صاحب تاريخ البداية والنهاية (ج١ ص ١٢٠). وقوم ثمود هم أصحاب الحِجْر في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الحجر ٨٠). والحجر مكان كانت فيه مساكن ثمود يقع بين الحجاز والشام يمر عليها المسافر بطريق البر وتعرف الآن باسم «فج الناقة»، وآثار مدائنهم ما زالت ظاهرة حتى الآن باسم مدائن صالح. يقول المسعودي في مروج الذهب: حِجْر ثمود في الجنوب الشرقي من أرض مدين، قريبة من خليج العقبة.

ونقرأ عند ابن كثير أن رسول اللّه (ص) مرَّ بالحجر وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، ونزل بهم عند بيوت ثمود، حيث استقى الناس من آبارهم فشربوا وعجنوا وطبخوا، فلما علم رسول اللّه (ص) أمرهم أن يريقوا القدور ويعلفوا العجين للإبل، وارتحل بهم حتى نزل البئر التي تشرب منها الناقة.

ويجدر الذكر هنا إلى أن ثمود كما تشير المرويات قطنت منطقة الحجاز وجوارها أي المنطقة الممتدة من الحجاز وحتى سوريا. ويشير بطرس البستاني إلى أن ديار الثموديين امتدت من الحجاز حتى البلاد السورية.

وتشير المعطيات إلى أن قبيلة ثمود كانت تقيم في المناطق التي تشكل اليوم

جزءاً من المدينة ومكة وذلك في القرن الثامن قبل الميلاد. وهم في الغالب من السكان الأصليين الذين استعاروا اسمهم من معطى الطبيعة فـ«ثمد» تعني مجرى الماء الذي يجف في الصيف. وفي تلك الفترة كانت ثمود قبيلة بالمعنى الحرفي للكلمة والنصوص الآشورية كانت تستعمل تعبير قبيلة ثمود.

وقد أشار بطليموس، وفق ما ذكره الدكتور جواد علي، إلى أن الأماكن التي استوطنتها ثمود كانت مدينة آمن من جنوب العقبة، إلى نواحي شمال ينبع بالقرب من المويلح، وكذلك كان منهم جموع منتشرة في داخل البلاد إلى نواحي خيبر وفدك.

وتشير المعطيات إلى أن مواطن ثمود في القرن الأول الميلادي كانت من جنوب مكة إلى تهامة عسير.

وبعد أن سبا شاروكين الثاني الآشوري قسماً منها إلى السامرة بقي قسم آخر ما لبث أن قام بالارتحال نحوالشمال حيث حصل تواجدهم في القرن السادس قبل الميلاد. وتأثروا بحضارة الشعوب المحلية وثقافتها منذ ذلك التاريخ.

الجدير ذكره هنا أن ملوك آشور وبابل في حروبهم ضد العرب في شبه الجزيرة العربية كانوا يطلقون عليهم اسم «العرب» وذلك بدءاً من القرن التاسع وحتى القرن السادس قبل الميلاد.

وقد ذكر في وثائق تعود إلى القرن الخامس الميلادي وجود فرقتين عربيتين في الجيش الروماني الفرقة الأولى تكوّنت من الفرسان العرب الثموديين وأقامت على الحدود الشمالية الشرقية لمصر. والفرقة الثانية في بلاد «إيلليري» وسُمّيت فرقة إيلليري الثمودية وقد تواجدت هذه الفرقة في «بيت شام» في فلسطين في القرن الخامس الميلادي، وقد كان معظم هؤلاء الجنود من وسط الجزيرة العربية.

ويبدو أن مجال الفاعلية الثمودية كانت عبر نطاقين، نطاق ثابت حيث إقامتها الدائمة، ونطاق هو مجال ارتحالها الطبيعي وفق إيقاع الفصول والمناخ والكلأ، وقد امتد هذا المجال من المدينة / يثرب / وحتى بادية الشام. وكون أن الثقافة

الثمودية كانت على شيء من بداية التحضر، بدواً، أو أشباه بدو، فلا بد أن تتأثر بالمراكز الحضارية المتقدمة ثقافياً عليها، سواء في الكتابة أو نمط المعيشة أو في المعتقدات.

ففي مجال الكتابة لم يستطع الثموديون الكتابة إلا بعد مرور خمسة قرون على تواجدهم، وذلك بعد أن امتلكوا أدوات التفاعل مع المراكز الحضارية المشرقية، حيث لم تظهر النقوش الثمودية إلا في القرن الرابع قبل الميلاد.

ولقد اختلف المؤرخون حول زمن وجود ثمود فقال بعضهم إنهم بقية من قوم عاد، وقال آخرون إنهم بقية من العماليق انتقلوا إلى ذلك المكان من غرب الفرات. لكن الأصح أنهم كانوا عرباً من بقايا قوم عاد بدليل قوله تعالى على لسان نبيّه صالح (ع) ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا . . .﴾ (الأعراف ٧٤).

مع الإشارة هنا إلى أن ثمود لم تكن قبيلة وحدها بل أن القبائل المختلفة والتي تشغل الأمكنة نفسها، الثابتة وغير الثابتة، قد شكلت اتحاداً فيما بينها، تم تسميتها بثمود كونها القبيلة الأقوى في هذا الاتحاد.

أما عن زمن فاعليتهم فيمتد من القرن الثامن قبل الميلاد وحتى القرن الثاني الميلادي ولكن استمر تواجدهم البشري حتى منتصف القرن الخامس الميلادي أي قبل قرن من ولادة الرسول محمد.

ويبدو أن كوارث طبيعية ولا سيما الزلازل قد أنهت تواجدها، أما التواجد الديموغرافي الثمودي العربي فقد بقي حتى القرن الخامس الميلادي، وتداخل في النسيج العربي، بعد انتهاء فاعليته السياسية لثمود.

الجدير ذكره هنا هو أن اسم عدنان وتعبير العدنانية، وقبائل عدنانية، ظهر في الإسلام ظهوراً لم يكن قبل الإسلام، غير أن النقوش الثمودية والنبطية أيضاً حوت أسماء قريبة من اسم عدنان مثل: عدنون. . . عبد عدنون. . وهذا ما يمكن ربطه مع بعض النسابين العرب الذين نسبوا العدنانيين (ثقيف) إلى ثمود،

حيث ذكروا أن ثقيفاً هم من قبائل ثمود.

ويرى بعض المستشرقين أنهم قوم من اليهود سكنوا تلك الناحية، وهذا قول ينقضه التاريخ، لأن اليهود لم يعرفوا قبل خروج موسى ببني إسرائيل من مصر، ويكذبه التنزيل الحكيم بدليل قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ * مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ. . .﴾ (غافر ٣٠-٣١).

جاءت دعوة صالح (ع) امتداداً لدعوة نوح وهود إلى التوحيد وذلك في قوله تعالى ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ. . .﴾ (الأعراف ٧٣). هذه العبارة نجدها على رأس ما قاله الأنبياء لأقوامهم: نوح (الأعراف ٥٩)، هود (الأعراف ٦٥)، صالح (الأعراف ٧٣، شُعيب (الأعراف ٨٥). وإذا كان هود (ع) لم يؤتَ معجزة يصدّق ويثبت بها نبوّته بل جاء هو والنذُر، فإن صالح أوتي أبرز معجزة مادية وأضخم آية يمكن لإنسان أن يراها ويسمعها ويلمسها هي الناقة التي جاء ذكرها في قوله تعالى ﴿. . . وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ. . .﴾ (الإسراء ٥٩).

يبقى، قبل أن نعدّد ما رأيناه من عِبَر وعِظات وحقائق تاريخية في هذه القصة، أن نشير إلى أن التنزيل الحكيم ذكر ثمود في ستة وعشرين موضعاً، وإلى أن اسم ثمود جاء من الثَّمَدِ والثَّمْدِ والثَّماد، وهو الماء القليل لا مدد له يتجمع في الشتاء وينضب في الصيف.

١ - ما زالت مسيرة التطور نحو التجريد مستمرة، إلا أن التجسيد والتشخيص ما زال هو الغالب. فالعبادات في عهد نوح \ الألف الخامس ق.م \ كانت تستهدف مظاهر الطبيعة، ثم تحوّلت في عهد هود \ الألف الثالث ق. م \ إلى أوثان مشخّصة متعددة من جانب ولكل منها مجال خاص بها من جانب آخر، إلا أنها في الغالب أوثان رمزية من صنع الطبيعة لا دور فيها ليد الإنسان لعدم وجود أدوات، وإن وجد فهو دور بدائي محدود.

وقد جمع براندن، من النقوش الثمودية، أسماء أعلام مركّبة، يدخل فيها اسم الإله ايل. كبير الآلهة الكنعانية والآرامية، لنقرأ:

تيم ايل، حمي يال، عبد ايل، يشوع ايل، عمرايل، بدر ايل، زيد ايل، عدن ايل، معن ايل، ودد ايل، عم ايل، سن ايل، خل ايل، سلم ايل، يحمي ايل، ركب ايل، شد ايل، . . . إلخ.

ورغم أن مجمع الآلهة الثمودي لم يحتو على إله يحمل اسم ايل، فقد عُثر عليه في الأسماء المركبة الشخصية، فقد نسب الثموديون لآلهتهم الملائكية طابعاً كوكبياً ويمكن أن يكون هذا الطابع الكوكبي قمرياً أو شمسياً أو نجمياً.

٢ - شاع في عهد ثمود قوم صالح صنع التماثيل، حيث لأول مرة يذكر النحت في التنزيل الحكيم بقوله تعالى ﴿. . . وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا . . .﴾ (الأعراف ٧٤)، ولأول مرة يذكر تقطيع الصخور وخرقها وشقها، وذلك في قوله تعالى ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ (الفجر ٩). والمتأمل في بيوت ثمود المنحوتة في الصخر، التي ما تزال ماثلة حتى يومنا هذا وكأنها انتهت بالأمس، ويلاحظ الزوايا القائمة بين الجدران بعضها مع بعض وبينها وبين السقف، يدرك بكل وضوح وجود أدوات للنحت ساعدت على إحداثها.

وفي الثمودية كان اسم المعبد بيت، ويتألف من حرم مقدس وضع وسطه نصب للإله المعبود. وبعض الرموز الإلهية كانت تمثل على شكل حجر.

وكانت الإلهة تمثل برموز أو صور، فهناك رأس الثور الذي كان رمز الإله القمري، عم، في الجنوب بدءاً من الألف الثاني ق.م، ونحن نعلم أن رأس الثور كان رمز الإله الوسيط حدد/ أدد / هدد، في معتقدات المشرق العربي، وقد تابع هذا الرمز تطوره وحضوره في شمال الجزيرة العربية.

وفي مجال الحياة اليومية عند الثموديين تقدم المعطيات أن النسوة الثموديات كن يضعن الحجاب على رؤوسهن، وهي الصورة ذاتها التي نجدها في منحوتات نينوى الآشورية، وفي لباس النساء العربيات المسيحيات فيما بعد أو العربيات من سكان شبه الجزيرة العربية الشمالية والجنوبية قبل الإسلام، وكانوا يستعملون اسم

اللّه، ولكن دون وجود حرف ألف.

ب ل هو ود : باللّه ود (السلام على اللّه)

هل مس ع د. س ع د ت. ع ل. دورت : يألّله ساعد مسعدة على دورة

ومن الابتهالات لدى الثموديين نقرأ:

يا رضا منك المحبة والحنان

يا رضا أعطني

يا رضا ساعدني

يا رضا منك المعرفة

يا رضا منك السرور

يا رضا منك الشفقة

يا رضا أسبغ علي الكمال

يا رضا لطفك على ولدي

يا رضا رحمتك هي ثروتي

يا رضا أعني

يا رضا استنجد بك

يا رضا أنت المساعد

يا رضا هبني محبتك

يا رضا أنجدنا أنت الأمان

يا اللّه ! أنت الطمأنينة

يا اللّه ! منك السعادة

يا اللّه ! منك المحبة.

وقد كنا لاحظنا أن النقوش الثمودية حوت أيضاً على أسماء مركبة دخلت فيها لفظة اللّه،

٣ - جاءت معجزة ناقة صالح، المقدودة من الصخر، منسجمة مع ما برع فيه قوم ثمود من نحت وتقطيع لعيشهم في منطقة مليئة بالصخور الرملية. وقد

قلنا إن النبوّات فيها قفزة زمنية إلى الأمام أو غيب إلى الوراء. أما ناقة ثمود فهي آية خارج النبوّة، كآيات موسى التسع وآيات المسيح بن مريم.

٤ - ظهور مفهوم العشيرة في عهد صالح. بدليل ورود الرهط لأول مرة في قوله تعالى ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (النمل ٤٨). والرهط: ما دون العشرة من الرجال، ورهط الرجل عشيرته الأقربون. ولقد تحدثنا في عهد نوح عن ظهور الملأ والأراذل، وعن بدء ظهور التمايز الطبقي في التجمعات الإنسانية، وها نحن في عهد صالح أمام تمايز أسري عشائري متقدم عما ساد في عهد نوح وهود يقوم على أساس المصلحة المادية، مع بقاء طبقة الملأ وطبقة الأراذل.

كان لثمود مواطن استقرار تكرست مع الزمن، وأنبأتنا عن وجود تنظيم اجتماعي لهم.

كما أشارت المصادر إلى اسم لملك ثمود وهو «جنده» وفي حال صحة هذه المعلومة فإن علينا أن نستنتج أنه كان لثمود تنظيم اجتماعي مشابه للتنظيمات التي تذكرها الوثائق الآشورية عن الجزيرة العربية الشمالية بدءاً من القرن التاسع ق.م.

٥ - ظهر مفهوم الملكية الخاصة للأرض بفرد واحد أو بعدة أفراد، بدليل قوله تعالى ﴿... وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا...﴾ (الأعراف ٧٤). والقصور: قطع الأرض تفصل بينها علامات وتحيط بكل منها حواجز من طين أو من حجارة. وما يزال يراها الناظر واضحة حتى اليوم في الأراضي الزراعية. والمقصورة من الدار أو المسرح أو حمام السوق: غرفة صغيرة خاصة منفصلة عما حولها. والمقصورة من النساء: المنعَّمة في بيت يحميها لا تتركه لتعمل. وبهذا المعنى جاء قوله تعالى ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ (الرحمن ٧٢).

أما قاصرات الطرف في قوله تعالى ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ (الرحمن ٥٦)، فهن اللاتي أقام الحياء والخفر الأنثوي لنظراتهن حدوداً وحواجز فلا يمددنها إلى ما لا ينبغي.

٦ - لم يجعل قوم ثمود لبيوتهم نوافذ، فما زال الطوفان من عهد نوح

والريح الصرصر من عهد هود مطبوعة في ذاكرتهم تنتقل من جيل إلى جيل كجزء من تراثهم المعرفي وخبراتهم السابقة.

٧ - كما جرى إهلاك قوم نوح بظاهرة طبيعية هي الطوفان، وإهلاك قوم هود بظاهرة طبيعية أخرى هي الريح العاتية المستمرة، كذلك تم إهلاك قوم صالح بظاهرتين طبيعيتين معاً. الأولى بالرجفة والأخرى بالصيحة. أما الرجفة فهي الزلزلة الشديدة، أشار إليها تعالى بقوله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ (الأعراف ٧٨). وأما الصيحة ففيها عند المفسرين أقوال: أصحّها أنها الصاعقة في قول ابن عباس. والصاعقة صاعقتان: صاعقة مُحرقة يولّدها البرق، وصاعقة رعدية توجب تموّج الهواء بعنف فإذا تعدّت صِماخ أُذن الإنسان إلى عصب دماغه مات. واقرأ معي قوله تعالى ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ. . .﴾ (البقرة ١٩). وفي رأينا أن الصاعقة الرعدية هي التي أشار إليها تعالى بقوله ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ (هود ٦٧) والديار كل غرفة أو غرف لها جدران، فإذا كان لها أبواب فقط دون نوافذ فالموجة الصوتية القوية تصعق وتقضي على كل من في الداخل، وإذا نظرنا الآن إلى آثار ثمود نرى وجود غرف في الصخور بأبواب وبدون نوافذ. أما الدار فهو مكان الإقامة أي أن الذين عاشوا في السهول أخذتهم الرجفة وهو الزلزال الشديد لأنهم لا يتأثرون بالصيحة نظراً لوجودهم في أماكن مفتوحة. وكما قلنا عن طوفان نوح وعن ريح هود أنها محلية، وليس ما يوجب بالضرورة أن تكون عالمية، كذلك نقول عن الرجفة والصيحة في قوم ثمود، فافهم هذا.

انتهت فاعلية ثمود قبل ظهور الإسلام والذي يقرأ الروايات العربية والإسلامية عن الثموديين يميل إلى الاعتقاد أنهم بادوا قبل ظهور الإسلام بزمن طويل، غير أن الواقع يشير إلى أن جموعاً من الثموديين وجِدوا في نواحي العلى إلى عهد غير بعيد من ظهور الإسلام.

ويرى الباحث برو brau أن ثموداً أصيبت بكارثة عظيمة من ثوران براكين أو هزّات أرضية، وقد ورد في القرآن كلمة (رجفة) و(صيحة) عن أخبار ثمود.

ويعقّب الدكتور جواد علي بالقول : إن هذا محتمل جداً لأن الشعاب التي كانوا يقطنونها هي مناطق الحِرار.

٨ - كان هناك ناجون من الرجفة والصيحة، هم صالح (ع) والمؤمنون به، بدليل قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا. . .﴾ (هود ٦٦). فماهي هذه الرحمة؟ ويأتينا الجواب في قوله تعالى على لسان صالح لقومه ﴿. . . تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (هود ٦٥). ونفهم أن اللّه تعالى أخبر نبيّه صالح عن توقيت الرجفة والصيحة وأمره أن يمهل ثمود ثلاثة أيام قبل وقوعها. فكان في ذلك فسحة تمكن صالح بفضلها من أن ينجو بمن معه، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن كارثة ثمود كانت محلية.

الجدير ذكره أن سيرة النبي صالح لم ترد في أية كتب دينية أو وثائق عدا القرآن الكريم.

المراجع:

- د. جواد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، نسخة إلكترونية.
- براندن، وألبير فان دين، **تاريخ ثمود**، ت: د. نجيب غزاوي، دار الأبجدية ١٩٩٦.
- ولفنسون، أ.، **تاريخ اللغات السامية**، دار القلم، ص ٢٩، مغفل التاريخ.
- د. بشار خليف، **نشوء فكرة الألوهة**، طباعة دار الأهالي، ٢٠١١.
- محفل، ومحمد، «العربية لغة وكتابة»، مجلة التراث العربي، دمشق، موقع اتحاد الكتاب العرب.



شُعَيب
عليه السلام

هو رسول اللّه إلى أهل مَدْيَن، الذين سمّاهم التنزيل الحكيم أصحاب الأيكة في قوله تعالى ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَئْيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء ١٧٦-١٧٧). وكان من الطبيعي أن يأتي التوحيد على رأس رسالته، وهو ما نجده في قوله تعالى ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ. . .﴾ (الأعراف ٨٥).

كان أهل مَدْيَن عرباً سكنوا من الحجاز ما يلي أرض الشام قريباً من خليج العقبة وإلى الشمال منه. يقول الطبري إن بينها وبين مصر ثمان ليال، وهي حالياً تتبع محافظة البدع التابعة لمنطقة تبوك في الشمال الغربي من المملكة العربية السعودية.

ومَدْيَن مدينة تاريخية يعود تاريخها إلى ٣٥٠٠ سنة تنبع أهميتها التاريخية والدينية من أن ثلاثة أنبياء ذُكروا في مناحيها (موسى - شُعَيب - يوسف). وقد جمعت بين الزراعة والتجارة، حيث كانت مركزاً تجارياً ومحطة رئيسية على خط قوافل الحجّاج قديماً. وهي كثيرة الأشجار وافرة الثمار واسعة الحدائق والبساتين، ومن هنا جاءت تسمية القرآن لأهلها بأصحاب الأيكة، وهي مدينة تاريخية مطمورة تحت مئات الأطنان من ركام الأتربة والصخور. يعود تاريخها إلى ٣٥٠٠ ق.م، تدلّ على ذلك المعالم الموجودة حالياً ولا سيما الصخور المنحوتة على شكل أضرحة مختلفة الأحجام، والمنحوتات التي ربما استُخدمت

للسكن، والاستعمالات الأخرى، إضافة الى النقوش والمخلّفات الحضارية (المطمورة) في طبقات أرض مَدْيَن قديماً أو البدع حالياً، ويميّزها وجود تجويفات واسعة منحوتة داخل الصخور، وكل تجويف يشبه القُبّة من الداخل، وهذه التجويفات تكثر في جبلين متجاورين وذلك ضمن أربعة جبال متصلة ببعضها متوسطة، كل منها أقرب إلى الأكمة منه إلى الجبل وتشكّل هذه الجبال الأربعة ما يشبه نصف الدائرة.

وعندما تدخل التجويف من أبواب منحوتة أيضاً في الصخر تشعر برهبة الموقف وتشعر أنك أمام تاريخ أُمّة أو أمم سادت ثم بادت، وتركت خلفها ما يثبت حضارتها وقوّتها، ومن مظاهر هذه القوة نحت الصخور، وهذه الأضرحة المنحوتة داخل التجويفات الصخرية، حيث نحتت هذه القبور أو الأضرحة في قلب الجبل بشكل هندسي واحد من حيث الشكل العام، وأغلبها ذات مساحة واحدة. وقد تتعدد الأجساد في الضريح الواحد وتوضع بينها فواصل لوجود أجزاء منحوتة على حوافّ الضريح في أبعاد مختلفة. وتكون هذه الأضرحة منحوتة في أرضية التجويف وعلى جوانبه بشكل طولي، وهناك أحجام صغيرة قد تكون للأطفال، كما أن هناك منحوتات كبيرة الحجم، مع احتمال استخدام بعضها بيوتاً. وهناك شبه كبير بين تلك الأحافير الموجودة في مدينة البدع ومدائن نبي اللّه صالح عليه السلام في مدينة العلا، سواء في الواجهات، أو المنحوتات الداخلية إلا أن صخور جبال ثمود قوم صالح عليه السلام أكثر صلابة من صخور جبال مَدْيَن قوم شُعَيب عليه السلام، (وقد تكون واجهات أضرحة مدينة مَدْيَن حديثةً ومقلدة).

ثمة نقطة تستحق التوضيح هي أن أصحاب كتب قصص الأنبياء والمؤرخين يعتمدون في قصصهم على المراجع الإسرائيلية - أو على مراجع استقت معلوماتها من كتب اليهود - حين يذكرون الأنساب وأسماء الآباء والجدود. ويهتمون كثيراً بهذه الأنساب ليتمكنوا - في رأيهم - من رسم سلسلة تاريخية تُبيّن مَنْ من الأنبياء جاء قبلاً، ومن منهم جاء فيما بعد. وكان يمكن أن نحذو

حذوهم لولا أننا وجدنا أن القرآن الكريم يعتمد منهجاً آخر لرسم تلك التراتبية التاريخية، يراعي تطور القِيَم العليا في نبوّات الأنبياء ورسالات الرسُل وتراكمها، ويسير جنباً إلى جنب مع تطور الحضارة وتراكم المعارف، فأخذنا به واعتمدناه في بحثنا هذا. إننا نلاحظ بكل دقة أن التنزيل الحكيم لم يذكر نسباً لأي من الأنبياء والرسل بدءاً من نوح (ع) وانتهاء بمحمد (ص). ونلاحظ بكل دقة أيضاً أن معيار النسب في رسم التراتبية التاريخية لم يسعف من وَهَمَ أن شعيباً جاء بعد موسى بعدة قرون، أو أن شُعيباً عاصر موسى ظناً منهم أن موسى تزوّج بنت شعيب لأنه ورد ماء مَدْيَن، وفاته أن يقف بالتأمل عند قوله تعالى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ . . .﴾ (الأعراف ١٠٣)، ولو أنه فعل لرأى أن شعيباً ورد من بين الذين جاء موسى بعدهم. وقُلْ مثل ذلك في لوط وشعيب، فنحن لايهمنا كثيراً أن يكون شعيب زوج ابنة لوط أو لا يكون، أو أن يكون موسى زوج ابنة شعيب أو لا يكون، فما يهمنا أكثر هو قوله تعالى على لسان شعيب لقومه ﴿. . .وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (هود ٨٩)، بما فيه من دلالة واضحة على أن لوط جاء قبل شعيب في سُلّم النبوّات.

نأتي الآن إلى العِبَر والعِظات كما رأيناها في قصة شعيب:

١ - يقول تعالى شارحاً تفصيل رسالة شعيب: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف ٨٥).

أ - ونفهم من دعوته إلى التوحيد أن لقومه آلهة يعبدونها من دون اللّه.

ب - ونفهم من دعوته إلى الوفاء بالكيل والميزان، أن العلاقات الاقتصادية قد تطورت في مجتمع مدين حتى وصلت إلى مرحلة تبادل السلع التي لا بدّ فيها من وجود موازين تضبط الوزن ومكاييل تضبط الحجم، لمنع التلاعب والاحتيال في عملية التبادل، الذي يؤدي إلى بخس الناس أشياءهم، وهذه القاعدة ما زالت

سارية المفعول على المستوى الإنساني العالمي، فالثورات لم تقم، والنقابات لم تنشأ، والقوانين لم توضع، إلا من أجل قاعدة ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾.

٢ - وكان جواب قوم شعيب على دعوته لهم واضحاً في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ . . .﴾ (الأعراف ٨٨)، وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (هود ٩١).

أ - نحن في آية الأعراف ٨٨ أمام طبقة من وجوه القوم وأشرافهم، هي طبقة الملأ، بدأت بالظهور كما قلنا في عهد نوح، لكنها اكتسبت في هذه الآية صفة جديدة هي صفة (الذين استكبروا) التي تنفي عن الملأ كل جانب إيجابي محتمل.

ب - في ضوء هذا الاستكبار نقرأ قولهم لشعيب في آية هود ٩١ ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ وفقه القول هو فهمه وإدراك مقاصده ومعانيه. إنهم لم يفهموا ولم يدركوا قول صاحبهم ليس لأنهم أغبياء، بل لأن استكبارهم يمنعهم من الفهم والإدراك من جانب، ولأنهم يعتبرون التجارة «شطارة»، تماماً مثل العديد من تجار اليوم، من جانب آخر.

جـ - أما قولهم ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ﴾ فالضعف هنا ليس في القدرة العضلية أو الفكرية بدليل أنهم يقولون له في موضع آخر ﴿. . . إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ (هود ٨٧)، وليس في المكانة الاجتماعية بدليل أن لشعيب عشيرة وهو قوي بها. الضعف المقصود هو ضعف المركز المالي وقلة الثروة.

د - وأما قولهم ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ﴾ فنفهم منه أن العصبية العشائرية التي بدأت بالظهور في عهد صالح، قد رسخت وأخذت شكلها في عهد شعيب، ومنعت الملأ المستكبر من رجمه. ولكن ما هو الرجم المقصود في الآية؟ والجواب واضح في آية الأعراف ٨٨، إنه الطرد القسري والإخراج عنوة من الديار.

إننا لم نجد لفظاً تأثر في دلالته المفسرون واللغويون وأصحاب القواميس

والمعاجم بالطريقة المشخّصة الإسرائيلية أكثر من لفظ الرجم، الذي وردت مشتقاته في أربعة عشر موضعاً من التنزيل الحكيم ليس من بينها موضع واحد يدلّ على الرمي بالحجارة، ولا يخرج منها موضع واحد عن معنى الطرد القسري والإخراج عُنوة.

فالإمام الرازي في تفسير كلمة (لرجمناك) من آية هود ٩١ يقول: «الرجم في اللغة عبارة عن الرمي بالحجارة عند قصد القتل، ولما كان الرجم سبباً للقتل لاجرم سمّوا القتل رجماً، وقد يكون بالقول الذي هو القذف كقوله (رجماً بالغيب)، وقد يكون بالشتم واللعن ومنه قوله (الشيطان الرجيم) وقد يكون بالطرد كقوله (رجوماً للشياطين)» أهـ.

وفي تفسير كلمة (يرجموكم) من آية الكهف ٢٠ يقول: «أي يقتلوكم، والرجم بمعنى القتل كثير في التنزيل كقوله (ولولا رهطك لرجمناك) وأصله الرمي بالحجارة. قال الزجَّاج: أي يقتلوكم بالرجم، والرجم أخبث أنواع القتل» أهـ.

ونحن نستغرب - إن لم نقل نستنكر - عبارةً من مثل (والرجم بمعنى القتل كثير في التنزيل) أن تصدر عن إمام كالفخر الرازي بالذات ناسجاً فيها على منوال كثير من المفسرين الذين جاؤوا قبله ومعه. لأننا - ونكرر مرة أخرى - لم نجد في التنزيل الحكيم موضعاً واحداً ورد فيه الرجم بمعنى القتل رمياً بالحجارة. لقد كان الخطب يهون لو أنه حذا حذو مجاهد في قوله: «الرجم في القرآن كله بمعنى الشتم» (انظر التفسير الكبير للرازي ج٢١ ص ١٩٥).

قلنا إن الرجم ورد في أربعة عشر موضعاً من التنزيل الحكيم إليك بعضها:

- ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (الحجر ٣٤)، وص ٧٧. والقائل في الآية هو اللّه والمعني بالقول هو إبليس. والرجيم اسم فاعل بمعنى طريد قام مقام اسم مفعول هو المرجوم بمعنى المطرود بدلالة قوله (فاخرج) لأن الطرد هو الإخراج القسري. وعليه، يستحيل على العاقل أن يفهم من الآية أن اللّه أخرج إبليس من الجنة وشتمه، حسب قول مجاهد، أو رماه بالحجارة حتى الموت، حسب قول الرازي.

- ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ (هود ٩١). الملأ من قوم شعيب يعلنونها صريحة في وجه شعيب أنهم لولا عشيرته التي تحميه وأفرادها الذين هم جزء من الملأ لطردوه وأخرجوه بالقوة من مدين، بدلالة قولهم له في الأعراف ٨٨ ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾ ومرة أخرى لانجد علاقة للرجم في هود ٩١ لابالشتم حسب قول مجاهد، ولا بالرمي بالحجارة حتى الموت حسب قول الرازي.

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (مريم ٤٦). والقائل في الآية هو آزر أبو إبراهيم ومربّيه، قال ذلك حين ترك إبراهيم الأصنام المعبودة ورغب عنها وشتمها، فخلق بفعله هذا مشكلة لا حلّ لها في رأي آزر إلا بأحد أمرين: إما أن يطرده عنوة من المعبد ليحفظ ماء وجه آلهته بطرد شاتميها، أو أن يتطوع إبراهيم بهجر المعبد والابتعاد فترة من الزمن عن الأصنام وعن آزر سادن الآلهة ريثما تستقر الأمور والأحوال، والأمران لاعلاقة لهما لا بالشتم ولا بالرمي بالحجارة. ونلاحظ في الآية اقتران الطرد القسري بالهجر الطوعي.

- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ (الملك ٥). والمصابيح في الآية هي النجوم الساقطات على شكل شهب والرجوم هي الطوارد، وهي أدوات الطرد القسري للشياطين من أمكنتهم التي كانوا منها يسترقون السمع. ومرة رابعة لانجد أية علاقة للرجم في الآية لا بالشتم ولا بالرمي بالحجارة.

- ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ...﴾ (الكهف ٢٢)، هذا هو الموضع الوحيد من بين المواضع الأربعة عشر التي ورد فيها ذكر الرجم في التنزيل الحكيم الذي لا تحمل دلالته معنى الطرد القسري ولا الخروج الطوعي. كما لا تحمل بالتالي أي معنى للشتم أو للرمي بالحجارة، بل هو كلمة تخمين تم قذفها من الفم نقول عنها (أي كلام). وكان يجدر بمجاهد في ضوء ذلك ألا يطلق حكمه الجازم بأن

«الرجم في القرآن كله بمعنى الشتم»، وكان يجدر بالرازي بدلالة آية الكهف ٢٢ ألا يقرر بشكل مطلق أن «الرجم هو الرمي بالحجارة عند قصد القتل».

لقد انطلق المفسرون وأهل اللغة وأصحاب المعاجم من روح تشخيصية ظاهرية في فهم الرجم، تماماً كالروح التي انطلق منها اليهود في فهم الرجم الوارد في كتبهم، التي تحكم بالقتل على الزانية والزاني، وتحكم بالقتل على من يخالف أوامر القضاة اللاويين في الجبل، وطريقة القتل تنفيذاً لهذا الحكم واحدة، هي الرمي بالحجارة حتى الموت.

هذه الروح التشخيصية التي تأخذ اللفظ على وجه الحقيقة وتنكر المجاز، هي التي سدّت الطريق أمام المفسرين والفقهاء لفهم الطرد والإخراج والرجم بالغيب ورجوم الشياطين، وحصرت رؤيتهم للرجم بصورة ضيقة ظاهرية توراتية هي صورة الرمي بالحجارة حتى الموت، وقادتهم إلى الوقوع في أخطاء فاحشة لاتغتفر وهم ينظرون في أحكام الزنا واللعان تفسيراً وتطبيقاً، نذكر مثالاً واحداً هو تفسيرهم لقوله تعالى في الملاعنة ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (النور ٨). فرغم أنه تعالى يعني بالعذاب في الآية الجلد المنصوص عنه صراحة في الآية الثانية من سورة النور بقوله ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ . . . وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ورغم أن العذاب شيء والقتل بالرمي بالحجارة شيء آخر فالعذاب يمكن شطره إلى نصفين كما في حكم جلد الأمة الزانية في آية النساء ٢٥، أما القتل والرمي بالحجارة حتى الموت فلا نصف فيه كما يقول الإمام الشافعي في كتاب الرسالة. نقول رغم ذلك كلّه يصرّ المفسّرون والفقهاء على أن العذاب في الآية هو الرجم، وعلى أن الرجم هو الرمي بالحجارة حتى الموت، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم.

ولا ذكر للنبي شعيب خارج القرآن الكريم.

المراجع

- مجلة الفرقان - السياحة السعودية.

إبراهيم
عليه السلام

يعدّ إبراهيم (ع) بحق أبرز نقطة علاّم في تاريخ النبوّات والرسالات الذي تنقسم فيه النبوّات والرسالات إلى مرحلتين: مرحلة ما قبل إبراهيم (ع) ومرحلة ما بعد إبراهيم. فقد ظهرت في عهده مفاهيم جديدة عقائدية كالحنيفية والبر بالآباء بعد أن كان البر في عهد نوح مقصوراً على الوالدين، ستترك بصماتها على النبوّات والرسالات التي جاءت بعده وخصوصاً على الرسالة المحمدية، ومفاهيم جديدة أخلاقية كقِرى الضيف، ستأخذ مكانها بين المتراكم من القيم العليا. وتكاملت في عهده مظاهر ومفاهيم قديمة كانت قد بدأت بالظهور في عهد من سبقه من أنبياء ورسل، كتعدّد الآلهة وتعدّد اختصاصاتها، وشيوع أصنام الآلهة وتماثيلها في معابد خاصة بكل منها أو في معابد عامة تضمّها جميعاً، واكتمال ظاهرة سدنة تماثيل الآلهة وكهّان معابدها، وهو ما سيتحول في ما بعد إلى هامانات تنطق بلسان الآلهة وإلى رجال دين (العلماء الأفاضل) يحكمون ويصدرون الفتاوى باسم الله وبتفويض منه تحت عنوان الموقّعين عن الله أو قائمي مقام الرسول (ص).

يختلف المؤرّخون كعادتهم دائماً في كل صغيرة وكبيرة حول المكان الذي ولد فيه إبراهيم ونشأ. فمنهم من يذكر - حسب رواية صاحب تاريخ البداية والنهاية - أنه ولد بغوطة دمشق الغربية في قرية اسمها برزة عند سفح جبل قاسيون. إلا أن الصحيح المشهور - في رأيه - عند أهل السير والتواريخ أنه ولد ونشأ بمدينة بابل من أرض الكلدانيين في العراق، في عصر طاغية، هو النمرود بن

كنعان، قبض على زمام الملك في بابل، وأعلن نفسه إلهاً ودعا الناس إلى عبادته، من باب أنه أحق بالعبادة من معبوداتهم الحجرية التي لا تسمع ولا تبصر.

ويختلف المؤرّخون وأهل الأنساب في جانب والتنزيل الحكيم في جانب آخر حول اسم أبي إبراهيم أهو تارح أم آزر. فأما مولده ونشأته فالأرجح عندنا أنها في بابل من أرض كلدان لسببين: الأول، توفر حرية العبادة في عشرات معابد الآلهة المتعدّدة الاختصاصات المنتشرة في أنحاء المدينة ما جعلها مركزاً تجارياً يتوافد إليه التجار من كافة الأنحاء والمدن، ولا يوجد ما ينفي أن يكون إبراهيم قد نشأ في أحد هذه المعابد تحت رعاية آزر كبير سدنتها. والثاني وجود ملك طاغية يحكم المدينة يدّعي الربوبية ويدعو الناس إلى عبادته، ما يجعله قريب الشبه بالملك الذي أشار إليه تعالى بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ . . .﴾ (البقرة ٢٥٨).

وأما خلاف المؤرخين كالطبري وأهل الأنساب كعبد الله بن عباس مع ما ورد في التنزيل الحكيم، فخلاف لفظي ظاهري موهوم اعتبره اليهود دليلاً على جهل التنزيل الحكيم وصاحبه بالأنساب، وتابعناهم نحن - وما زلنا - على وهمهم هذا كالعميان من الأنعام.

لقد تحدّث المؤرّخون وأهل الأنساب عن والد إبراهيم باسم تارح، ولا يبعد مطلقاً أن يكون هذا صحيحاً. وتحدث التنزيل الحكيم عن أبي إبراهيم وسمّاه آزر، وهذا صحيح بلا ريب. والخلط بين الوالد والأب هو الذي قاد إلى توهّم وجود خلاف ليس موجوداً، لأن الوالد قد يكون أباً وقد لا يكون، والأب قد يكون والداً وقد لا يكون، والإنسان - من الناحية البيولوجية - له والد واحد حصراً، لكن من الناحية التربوية قد يكون له أكثر من أب[١].

---

(١) لمزيد من التفاصيل في الأدلة والشواهد القرآنية التي تؤكد الفرق بين الأب والوالد، انظر كتابنا **الإسلام والإيمان**.

الطريف في الأمر أن السيد الصابوني في كتابه **النبوة والأنبياء** ص ١٤٦ لم يكتف بأنه لم يلحظ الفرق بين الأب والوالد، بل راح يتعجّب مستنكراً من المؤرخين وجمهور أهل النسب كيف يأخذون علومهم من توراة وإنجيل ثبت تحريفهما عند المسلمين، ثم يمضي في الانتصار للرواية القرآنية مستشهداً بحديث رواه البخاري إن صح أن النبي (ص) قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني ألا تحزنني يوم يبعثون، وأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرّمت الجنة على الكافرين. ثم يقول لإبراهيم: انظر ما تحت رجليك. فينظر فإذا هو بذبح متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»، ثم يختم قائلاً: فهذا الحديث نص على أن اسمه آزر وهو الحق الذي لا محيد عنه. أهـ. ومرة أخرى لا يلحظ السيد الصابوني أن النبي (ص) في حديثه يتحدث عن أبي إبراهيم لا عن والده تماماً كما ورد في التنزيل الحكيم.

كان يمكننا أن نكتفي بهذا القدر لتوضيح وجهة نظرنا حيال هذه المسألة فلا نطيل، لولا أن السيد الصابوني وهو يدافع عن زعمه، يضعنا - عامداً أو غير عامد - أمام مزاعم أخرى أدهى وأمر، نجد أن لا بد من الوقوف عندها، لكونها وردت في كتاب جامعي مقرّر صاحبه أستاذ في كلية للشريعة والدراسات الإسلامية لها مكانتها في مكة المكرمة، ولكوننا نعلم - نتيجة خبرتنا الطويلة في التدريس الجامعي - أن كل عبارة يقولها الأستاذ في محاضراته وكتبه مقدّسة عند سامعيها وقارئيها في المدرجات.

١ - علم الأنساب علم جليل من علوم التاريخ قديماً وحديثاً. تفرع عنه علم اختص به العرب المسلمون دون غيرهم هو علم تراجم الرجال وطبقاتهم، لا يقلل من جلاله تعرّضه أحياناً للتصحيف والتحريف، وتوظيفه أحياناً أخرى في الخلافات الطائفية والمذهبية. ونسف معلومة توراتية في مجال الأنساب دون دليل قاطع بحجة ثبوت تحريف التوراة والإنجيل، إنما هو حكم على غير ما

ينبغي لا يجوز أن يصدر عن أستاذ جامعي عالم، لأن التحريف بالأساس يفترض بقاء أشياء صحيحة - قلّت أو كثرت - في النص المحرف.

٢ - الصحة في صحيح البخاري - وفي جميع كتب الصحاح الأخرى - صحة اصطلاحية لا صحة حقيقية، تشير إلى صحة السند عند صاحب الصحيح لا إلى صحة المتن. وفي متن الحديث موضع البحث مزاعم تتعارض عمودياً مع أبسط ثوابت الحساب يوم القيامة. أبرزها أن الله تعالى استجاب لشفاعة إبراهيم في أبيه الكافر عابد الأصنام، وفداه بذبح أدخله النار بدلاً منه، مفترضاً أنه سبحانه غيَّر قوله في كتابه العزيز ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (النساء ٤٨). وهل يكفي المشرك الذي يعصي رسل الله إليه أن يعلن طاعته يوم القيامة ليغفر الله له شركه وعصيانه؟ وهل تتبدل قوانين الحساب يوم الحساب التي أعلنها تعالى بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التحريم ٧)، وبقوله ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ (الحديد ١٥)؟

إننا نرى أن البخاري حين صح عنده هذا الحديث، قد اتهم رسول الله (ص) - دون أن يدري - بالعقوق بوالديه عبد الله وآمنة، فهما أحق بالشفاعة من آزر الذي دعاه إبراهيم إلى التوحيد وترك الأصنام فعصى، بينما مات والدا النبي (ص) قبل البعثة. فلماذا لم يشفع لهما النبي (ص) عند ربه وهو يرى شفاعة إبراهيم في أبيه مقبولة حسب حديث البخاري في صحيحه؟

ولكن قبل أن ندخل في تفاصيل قصة إبراهيم نضع نصب أعيننا ما يلي:

لقد ورد اسم إبراهيم في التنزيل الحكيم بصيغتين: الأولى - **إبراهم** - بدون ياء بين الهاء والميم وقد وردت خمس عشرة مرة في سورة البقرة. أما في بقية سور التنزيل كلها فقد ورد اسمه - **إبراهيم** - بوجود ياء بين الهاء والميم. فبالضرورة اختلف النطق بين اللفظين. وقد راجعنا العهد القديم فوجدنا وجود لفظين مختلفين: الأول أبرام والثاني إبراهيم، وقد ورد أبرام فقط في سفر

التكوين الإصحاحات (١١-١٣-١٤-١٥-١٦). وقد ورد في تتمة سفر التكوين وبقية الأسفار في الإصحاحات (١٧-١٨-١٩-٢٠-٢١-٢٢-٢٣-٢٤-٢٥-٢٦-٢٨-٣١-٣٢-٣٥-٤٨-٤٩-٥٠) وفي سفر الخروج في الإصحاحات (٢ - ٣ - ٤ - ٦ - ٣٢ - ٣٣) وفي سفر اللاويين الإصحاح (٢٦) وفي سفر التثنية الإصحاح (١). لذا وجب علينا أن نوجّه لأنفسنا وللقارئ سؤالاً وجيهاً جداً: هل لهذا الاختلاف في إبراهيم في التنزيل الحكيم وفي العهد القديم معنى ما؟ وهل اسم إبراهيم هو أبرام قبل البعثة أو قبل أن يؤتى رشده مثلاً، وإبراهيم بعد البعثة؟ فهناك تطابق ما حيث ورد اسم أبرام في جزء من سفر واحد، واسم إبراهيم في سورة واحدة فقط هي البقرة. مازالت الإجابة عندنا عن هذا السؤال غير متوفرة.

مرة أخرى نعتذر عن الإطالة ونعود إلى ما كنا فيه لنلقي الضوء على ما فهمناه من عبر وعظات في قصة (إبراهم - إبراهيم):

١ - لقد ظهر إبراهيم في منطقة ذات حضارة عريقة راسخة في منطقة شمال شبه الجزيرة العربية. تعددت فيها الآلهة حسب الاختصاص بين إله للمطر وإله للخصب وإله للجفاف وغيرها، تلك الظاهرة التي بدأت - كما قلنا - عند نوح وترسّخت عند هود واكتملت عند إبراهيم.

٢ - اكتمال ظهور فن النحت الذي بدأ - كما قلنا - في عهد صالح، بدليل قوله تعالى على لسان إبراهيم لقومه ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ (الصافات ٩٥)، وشيوع الأصنام والتماثيل، الذي استدعى ظهور طبقة سدنة وكهان يخدمون هذه الأصنام والتماثيل.

٣ - اكتمال تقديس ظواهر الطبيعة من شمس وقمر وكواكب لكل منها إله ومعبد وسدنة في بابل. ونشير هنا إلى ما رواه أصحاب الأخبار في تواريخهم وأصحاب التفسير في تفاسيرهم، من أن إبراهيم هاجر مع والده آزر ومع زوجته سارة من أرض الكلدانيين في العراق إلى أرض الكنعانيين وهي بلاد المقدس فأقاموا في بلدة قريبة من الشام اسمها حران، أهلها يعبدون الكواكب السبعة.

وكان أهل الشام والجزيرة - كما يروي ابن كثير - على هذه العقيدة الضالة يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة. ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها تقام فيه الأعياد وتقدَّم القرابين.

ولا ريب في أن ابن كثير كان يفتش عن سبب يربط فيه بين إبراهيم وبين الشمس والقمر والكواكب في رحلته بين الشك واليقين وهو يبحث عن الله، فلم يجد أفضل من ترحيله إلى حران مع والده آزر وزوجته سارة، ليقترب في فقرته مع ما استقاه من أخبار توراتية تزعم أن خروج إبراهيم إلى البيت العتيق في حضن جبال بكة كان من فلسطين.

لقد كان ابن كثير بغنى عن ذلك كله، لو عرف - كما عرفنا نحن من الدراسات الحديثة الموثقة - أن عبادة الشمس والقمر والكواكب لم تكن محصورة بحران، بل شاركتها فيها مدن كثيرة أشهرها ملطية في ديار بكر حيث الحكماء السبعة هم أنفسهم سدنة معابد الآلهة السبعة التي عرفتها بابل وسمح بها ملوكها لغايات تجارية بحتة.

٤ - كانت رحلة إبراهيم للبحث عن ربه وهو بين الشك واليقين، مذكورة بكل تفاصيلها في التنزيل الحكيم، بدأت مع تقليب أنظاره في ملكوت السماء والأرض:

- ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام ٧٦-٧٩).

كانت خطوة إبراهيم في بحثه عن ربه أنه بدأ - كما قلنا وقالت آية الأنعام ٧٥ - بتقليب أنظاره في ملكوت السماء والأرض فرأى كوكباً لامعاً منيراً لعله نجم القطب، قارنه مع مخزونات إدراكه حين كان يتردد على المعابد، فتوصل

إلى أن قال: هذا ربي، لكن هذا الكوكب غاب وانطفأ بريقه مع هبوط الظلام، فقارن هذه الصورة الجديدة مع ما يؤمن به عقلاً من أن الأرباب الحقيقية لا تأفل ولا تغيب، فتوصل إلى قرار يقول إنه لا يحب الأرباب المزيّفة التي تأفل، ثم رأى القمر بازغاً، فعرض الصورة على مخزون إدراكه وانتهى كما انتهى أول مرة إلى القول: هذا ربي. لكن القمر أفل كما أفل الكوكب قبله، وكانت المرتان كافيتين ليكتشف إبراهيم أنه لم يصل إلى ما يبحث عنه، فاتجه إلى الله طالباً الهدى، لكن رحلة البحث لم تكن قد انتهت بعد، وطلع الفجر وأشرقت الشمس وظنها إبراهيم ربه الذي يبحث عنه باعتبارها أكبر من القمر ومن الكوكب، لولا أنها أفلت. هنا غابت شمس الكون عن الكون لتشرق شمس معرفة من نوع آخر في أعماق إبراهيم، ليدرك على نورها أن ثمة فاطراً للسموات والأرض وخالقاً للشمس والقمر والكواكب لا يغيب إذا غابت ولا يأفل إذا أفلت. فما كان منه إلا أن صاح في بني قومه: إني بريء مما تشركون، إني انحرفت عما تتوجهون أنتم إليه من نجوم وكواكب وشمس وقمر، واتجهت نحو من خلقها وفطر السموات والأرض، وها أنا أعلن أنني لست ممن يشرك بربه أحداً.

بهذا المنهج الاستقرائي الرشيد الذي أنعم الله به عليه، كما في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء ٥١)، صار إبراهيم إماماً للناس بعد امتحان اختبره الله به ونجح، بدلالة قوله تعالى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا. . .﴾ (البقرة ١٢٤) وهذه الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم هي الكواكب والشمس والقمر حيث إن الوجود هو كلمات الله.

٥ - كان آزر، أبو إبراهيم لا والده، هاماناً يشرف على سدانة المعابد وخدمة تماثيل آلهتها، ومن هنا كان بإمكان ربيبه إبراهيم أن يصل إلى الأصنام بسهولة، إذ كان ذلك ممنوعاً على العامة.

٦ - وكان آزر المثل الأعلى لإبراهيم في الدين والعقيدة، ولا يبعد أنه كان ينوي إعداده ليتسلم مهمته من بعده. ومن هنا كان الجدل الكبير بينهما قاسياً على

نفس آزر، حين دار بينهما الحوار التالي:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا * يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ (مريم ٤٢-٤٥).

كان آزر أدرى الناس بما قاله إبراهيم عن معبوداته، وأكثر الناس إدراكاً أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تأكل ولا تشرب. وكان أعرف الناس بما يتمتع به إبراهيم من رجاحة عقل وشفافية روح، وأكثرهم إحساساً بمحبة إبراهيم له وخوفه عليه من أن يمسّه عذاب الرحمن إن هو رضي بأن يبقى عبداً للشيطان. لكن المسألة أكبر من هذا كله، ولا بد لها من حسم يتناسب مع حجمها. فغالب مرارة خيبة الأمل في ربيبه وسأله بهدوء ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ وصمت إبراهيم مطرقاً وتابع آزر قائلاً ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ (الأنعام ٤٦).

ينتقل التنزيل الحكيم من سورة الأنعام إلى سورة الأنبياء ليضع أمامنا القسم الثاني من الحوار الذي يدور بين آزر وقومه من جانب وإبراهيم من جانب آخر.

هذا الانتقال في القصة القرآنية الواحدة من سورة إلى أخرى ثم إلى ثالثة ورابعة، وهذا المزيج المدهش بين المحكم والمتشابه من الآيات في السورة الواحدة، أبرز سمة - عندنا - من سمات الإعجاز القرآني الذي تحدّى به صاحبه الإنس والجن مجتمعين. ولو اقتصر الأمر - كما يتوهم السطحيون من أهل اللغة - على الإضمار والإظهار والتقديم والتأخير والوقف والابتداء واستعمال الظن بمعنى اليقين، لكان في الأمة عشرات كالجاحظ ومئات كالمعري وآلاف كالبحتري والمتنبي يستطيعون تأليف مصحف مماثل.

المنظر في القسم الثاني من الحوار منظر مجلس يضم إبراهيم وأباه وقومه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا

عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ (الأنبياء).

٨ - لقد قام الحوار بين إبراهيم من جانب وأبيه وقومه من جانب آخر - بقسميه الأول والثاني - على المنطق الموضوعي من جهة وعلى الأدلة الحسية من جهة أخرى (عجز الأصنام عن النطق وعن دفع الضرر عن نفسها وعن غيرها وعن جلب النفع لنفسها ولغيرها). أما الحوار مع السلطة الحاكمة السياسية فأمر آخر مختلف تماماً، ينتقل بنا التنزيل الحكيم مرة ثانية معه إلى سورة البقرة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة ٢٥٨).

تلك أول مرة في تاريخ الأنبياء والرسل يأتي فيها التنزيل الحكيم على ذكر السلطة الحاكمة السياسية، بعبارة (أن آتاه الله الملك) في آية البقرة ٢٥٨، لم

نجدها في قصة أحد ممن سبق إبراهيم. والملك هنا ليس ملكاً عادياً، بل مستبد يدّعي الربوبية ويأمر الناس بعبادته، وسوست له شياطينه من الإنس والجن أن ملكه لا يبلى. فكان من الطبيعي أن يأتي الحوار معه مختلفاً.

٩ - قال رجل للإمام علي: يا أمير المؤمنين، إني أقرأ في كتاب الله فأجد في نفسي أشياء، أتراها وسوسة شيطان؟ قال: ويحك، هذا أول الإيمان. رحم الله الإمام، فلا أراه وهو يقول قوله هذا إلا متمثلاً بقوله تعالى في وصف المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (الفرقان ٧٣).

كان منهج إبراهيم - كما ذكرنا في الفقرة ٤ - منهجاً استقرائياً استدلالياً ينطلق في طريق البحث عن الله من الحواس إلى الفكر ومن الشك إلى الإيمان، فاستحق بذلك أن يكون إماماً للناس. ولعلِّ أبرز مظاهر هذا المنهج عند إبراهيم هو في قوله ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (البقرة ٢٦٠) الذي يتجلى في المنهج الإبراهيمي بالانطلاق من الشك إلى اليقين، وهذه انطلاقة يرضى الله عن صاحبها بدلالة قوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا...﴾ (النحل ١٢٠)[1]، وبدلالة أنه تعالى لم يكفره ولم يعنفه ولم يوبخه ولم يعاتبه، بل سأله بكل هدوء ﴿...قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن...﴾ (البقرة ٢٦٠). وفي هذا درس تربوي بليغ حبّذا لو عمل به علماؤنا الأفاضل ممن يتصدّرون المدرجات في الجامعات ومجالس العلم في المساجد، فالإيمان الأعمى لا يكفي عند الله إن لم يصحبه نظر وتفكر وبحث وسؤال يحمل صاحبه من حيرة الشك إلى اطمئنان اليقين. ويأتي جواب إبراهيم عن سؤال ربه واضحاً حاسماً في قوله ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ

(١) قوله (إن إبراهيم كان أمة) يعني أنه كان صاحب منهج سلوكي خاص به، وانظر تعريفنا للأمة في موضعه من هذا الكتاب ففيه ما يفيد. أما قوله (حنيفاً) فيعني منحرفاً عن الذين إذا تُليت عليهم آيات ربهم خروا عليها صماً وعمياناً والفطرة الحنيفية هي طبيعة التغيّر في الزمان والمكان ومنها جاء الدين الحنيف.

قَلْبِيۖ. . . ﴾ (البقرة ٢٦٠)، أي ليسكن تردّده وشكه مطمئناً على أرضية يقينية راسخة، وهذا لا يكون إلا حسب منهج استقرائي يرى فيه الباحث بعينه ويسمع بأذنه ويلمس بيده.

١٠ - يستوقفنا قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام ٧٥). ونفهم أن إبراهيم بعد رؤيته رؤية فؤادية ملكوت السموات، وبعد رؤيته رؤية عينية بصرية كيف يحيي الله الموتى صار من الموقنين. ونفهم أنه، وهو ينظر بعين فؤاده في ملكوت السموات باحثاً، كان يعرف أنه يبحث عن فاطر السموات والأرض وخالق الشمس والقمر والكواكب الذي لا يغيب إن غابت ولا يأفل إن أفلت بدليل قوله لقومه بعد أن نجا من النار ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ (الصافات ٩٩)، الذي نشم فيه رائحة مفهوم الهجرة إلى الله. هذا المفهوم الذي سيكتمل ظهوره على يد خاتم النبيين بعد قرون وقرون. لكن السؤال الكبير هو: هل كان إبراهيم وهو يجوب في ملكوت الأرض من بلاد الكلدانيين إلى بلاد الكنعانيين إلى بلاد الشام - إن صحت - إلى أرض مصر، ليحط في وادٍ غير ذي زرع لم يكن عند وصوله إليه يدري إن كان آخر محطة في رحلته الطويلة أم لا، يعرف عما يبحث؟ الأرجح عندنا أنه لم يكن يعرف بالتحديد عما يبحث، حتى جاء الأمر الإلهي برفع القواعد من البيت العتيق وتطهيره للطائفين والعاكفين والركّع السجود. لعل شيئاً ما كالحدس الغامض تحرك في داخله وهو عند بيت الله المحرم فدعا ربه - وما أكثر ما دعاه في رحلته الرضية تلك - قائلاً: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ (إبراهيم ٣٧). لكنه بقي مجرد حدس غامض توهّم إبراهيم معه أن سكناه في هذا المكان إنما هو لإقامة الصلاة لا غير، حتى جاء الأمر الإلهي كما ذكرنا. ونرى هذا تكرر مع موسى حين أحيط به، البحر من جانب وفرعون وجنده من جانب آخر عندما قال أصحابه (إنا لمدركون) فأجاب

موسى (كلا إن معي ربي سيهدين) وحتى لحظة هذا القول لم يكن موسى يعلم كيف سيهديه ربه حتى جاءه الأمر (اضرب بعصاك البحر).

١١ - حين تحدثنا عن الزمان، وأوضحنا أن معياره عندنا القرون والعقود والسنين والشهور والأسابيع والأيام والساعات والدقائق، أشرنا إلى أن له عند الله معايير أخرى. فاليوم عنده كألف سنة، والساعة عنده كلمح البصر بينما هي بمعاييرنا دهور متطاولة، ونحن نجد في قصة إبراهيم ما يشير إلى ذلك. فالقصة تنتقل بعفوية سلسة ومدهشة من إبراهيم الفتى الرشيد في معابد الآلهة برعاية آزر، إلى إبراهيم الشاب وهو يبحث عن ربه في ملكوت السموات، إلى إبراهيم الرجل وهو يعظ أباه وقومه ثم يلقى في النار ويخرج منها ثم يمضي في ملكوت الأرض مدفوعاً بما لا يدري وباحثاً عما لا يعرف، إلى إبراهيم الشيخ وزوجته العجوز العقيم، ثم لا يهتم التنزيل الحكيم كثيراً - في العديد من الأحيان - بتحديد مقدار الزمن الفاصل بين حدث وآخر، فالفاصل الزمني بمعيارنا بين قوله ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ (إبراهيم ٣٧)، وقوله بعد رفع القواعد من البيت وتطهيره ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾ (البقرة ١٢٧)، لا يقل عن عشرين عاماً، كان إسماعيل في الأولى وليداً وصار في الثانية قادراً على مشاركة والده في عملية تطهير البيت. ولا يهتم - في العديد من الأحيان الأخرى - باستكمال توضيح جميع التفاصيل، فنحن لا نعرف أين بقيت سارة أم إسحق وابنها، وهل كانا معه ومع هاجر أم إسماعيل عند بيت الله المحرم أم لا، ولا نعرف ما جرى لآزر بعد خروج إبراهيم من بابل، ولا نستطيع أن نتصوّر عدد ونوع المخاطر التي يتعرّض لها رحّالة كإبراهيم - رغم رجاحة عقله - وهو يضرب بعصاه بطون الأودية ورؤوس التلال، ولا نعرف إلى أين ذهب إبراهيم حين ترك زوجته هاجر ورضيعها إسماعيل تسعى بين الصفا والمروة بانتظار عودته. لكن ذلك كله ليس عندنا محل استغراب، فالتنزيل الحكيم، رغم أنه لا يهمل مطلقاً الجانب الروائي، ليس كتاب حكايا، غايته التسلية وإلهاب الخيال، بل هو كتاب قصص هدفه العبر وقصده العظة وغايته التعليم.

١٢- نعود إلى قوله تعالى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (البقرة ١٢٥)، ثم إلى قوله تعالى بعدها مباشرة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (البقرة ١٢٧). فإذا نحن وضعنا قبلهما قوله تعالى ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ. . .﴾ (إبراهيم ٣٧)، بان معنا بما لا يقبل الشك أن البيت العتيق المحرم كان موجوداً قبل قدوم إبراهيم. ودليلنا الأول أن الأمر لإبراهيم وإسماعيل جاء بالتطهير لا بالبناء. والثاني قوله (القواعد من البيت) ولو كانت القواعد هي الأساسات - كما توهّم المفسرون - التي لا بد من رفعها لبناء الكعبة عليها لقال «قواعد البيت». وهذا يضعنا - للإنصاف - أمام احتمال وجود قواعد وأساسات سليمة ومثلها مخربة والمطلوب إعادة بناء المخرب، لولا أن العملية في هذه الحالة اسمها ترميم لا بناء، والترميم عادة لا يطال الأساسات. الثالث أن رفع القواعد جاء تنفيذاً للأمر بالتطهير، وتطهير البيوت - سواء المساجد منها أو المساكن - لا يشمل عقلاً حفر الأساسات وبناءها.

يقول الإمام الرازي في تفسيره الكبير (ج٤ ص ٥٢):

«القواعد جمع قاعدة هي الأساس والأصل لما فوقها، ويجوز أن يكون المراد بها سافات البناء لأن كل سافٍ هو قاعدة لما يبنى عليه ويوضع فوقه، ومعنى رفع القواعد رفعها بالبناء. والأكثرون من أهل الأخبار على أن هذا البيت كان موجوداً قبل إبراهيم (ع). . . وإنما قال (القواعد من البيت) ولم يقل (قواعد البيت) لأن في إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام من تفخيم الشأن ما ليس في العبارة الأخرى» أهـ.

إننا لا نعرف سبباً يدعو المفسّرين إلى الإصرار منفردين بعيداً عن أهل الأخبار وغيرهم، على أن القواعد في البقرة ١٢٧ هي الأساسات أو السافات بلغة المعماريين عند الرازي، وأن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان رفعا قواعد البيت

وأساساته بالبناء، رغم أنف الدلائل القرآنية التي تشير إلى غير ذلك.

وإذا كان الإمام الرازي لا يرضى أن يأخذ عن أهل الأخبار تفسيرهم للقرآن، فنحن ايضاً بدورنا لا نرضى أن نأخذ منه التعاريف في علم العمارة والهندسة. فالقواعد عند أهل هذا العلم هي الإشغالات، فكل المنشآت الخشبية المؤقتة التي يقيمها الباعة المتجولون على الأرصفة وفي الساحات العامة إشغالات، وكل أكوام المخلفات في المواقع الهندسية إشغالات. والقواعد في التنزيل الحكيم جمع مؤنث مفرده قاعدة خلاف واقفة، وردت بمعنى لا علاقة له بالأساسات من قريب ولا من بعيد في قوله تعالى ﴿وَٱلْقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ...﴾ (النور ٦٠). ولا ننسى أبداً أن المسيح عيسى بن مريم رفع القواعد وأخلى بيت المقدس من الإشغالات حين طرد الصيارفة اليهود منه، وكانوا قد جعلوه مركزاً مؤقتاً لهم، وأن النبي الأعظم (ص) رفع القواعد من الكعبة يوم فتح مكة وأخلاها من إشغالاتها حين أزال ما فيها من أصنام وتماثيل.

١٣ - لقد رأينا كيف شاع التشخيص قبل إبراهيم وانتشرت ظاهرة تعدّد الآلهة من كواكب ونجوم وأصنام وتماثيل، وكيف كان مفهوم الإله المجرد غامضاً لا اسم له لعدم اكتمال القدرة العقلية على التجريد عند أهل تلك العصور، فقد كان اسمه عند الأسباط «إله إبراهيم» وذلك في قوله تعالى ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة ١٣٣). وكان اسمه عند فرعون «إله موسى» كما في قوله تعالى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ (غافر ٣٦-٣٧)، وكان اسمه عند سحرة فرعون «رب العالمين» و«رب موسى وهارون» كما في قوله تعالى ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ (الأعراف ١٢١-١٢٢)، أو لم يكن له اسم على الإطلاق كما عند فرعون في

قوله تعالى ﴿. . . حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ (يونس ٩٠).

ثم يأتي إبراهيم ليبدأ رحلته الطويلة في البحث عن الله من المشخص إلى المجرد، وليولد عنده مفهوم الإسلام والتسليم لهذا الإله المجرد لأول مرة في تاريخ الإنسان، بدلالة قوله تعالى ﴿. . . مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ . .﴾ (الحج ٧٨)، وليترسّخ عنده مفهوم المشخص والمجرد منفصلين ومتصلين. فالمشخص منفصلاً تجسّد لديه بالبيت الحرام (الكعبة)، والمجرد منفصلاً تجلى لديه بالركوع والسجود في الصلاة، واتصالهما يظهر عند القيام والتوجّه أثناء الصلاة نحو الكعبة.

١٤ - كان الناس قبل إبراهيم يقدمون القرابين البشرية لآلهتهم، وكان ذلك طقساً شائعاً في تلك الأوقات في جميع المعابد الوثنية[1]، لكن ذلك انتهى في عهد إبراهيم كما سنرى.

إن ذكر القرابين ينبهنا إلى العلاقة بين المشخص والمجرد، ويذكرنا بالأضحيات في شعيرة الحج، ويعيدنا إلى خبر رؤيا إبراهيم في قوله لإسماعيل ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ فلنبدأ من البداية:

أ - كان إسماعيل لا يزال رضيعاً حين وصل إبراهيم إلى وادٍ أجرد بين أربعة جبال فيه بيت قائم لعبادة الله. وهذا معنى قوله تعالى على لسان إبراهيم ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ . . .﴾ (إبراهيم ٣٧)، ويستوقفنا في الآية أمران: الأول، قوله (بيتك). فالبيت العتيق لم يكن فقط موجوداً عند وصول إبراهيم إلى الوادي القاحل - كما شرحنا في فقرة سابقة -

(١) لا أحد ممن قرأ تاريخ مصر يجهل أن المصريين كانوا يقدمون لنهر النيل في يوم معين يسمونه «وفاء النيل» من كل عام بنتاً من بناتهم كقربان يسترضونه به، واستمر ذلك حتى عهد عمر بن الخطاب الذي أمر بالكف عن هذا الطقس الوثني، في قصة طريفة رواها ابن عبد الحكم في تاريخ فتح مصر.

بل كان معروفاً لدى إبراهيم على الأقل بأنه بيت الله. الثاني، قوله (المحرم) معرفاً بأل العهد، مما يدل على أن المعروف المعهود عن بيت الله هو التحريم. ولكن محرم من ماذا؟ وعلى ماذا؟ وماذا حرم فيه.. الشرك أم القرابين أم الاثنان معاً؟

ب - ننتقل الآن إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ * فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا...﴾ (آل عمران ٩٦-٩٧).

حتى نفهم القصد من قوله تعالى (أول بيت) نسأل: ما هو البيت المقصود الموجود في مكان بعينه من مكة المكرمة؟ وهل هو مكان مبيت الله أو سكن الله أم ماذا؟ وكيف نفهمها علماً بأنه تعالى لا يحدّه زمان ولا مكان؟ من هنا نفرق بين البيت والسكن[١].

* البيت: (الباء والياء والتاء) أصلٌ واحد، وهو المأْوَى والمآب ومَجْمَع الشَّمْل. يقال بيتٌ وبُيوتٌ وأبياتٌ. ومنه يقال لبيت الشِّعر بيتٌ على التشبيه لأنه مَجْمَع الألفاظِ والحروفِ والمعاني، على شرطٍ مخصوصٍ هو الوَزْن. وإيَّاهُ أراد القائل:

بَيتٍ على ظَهْرِ المَطِيّ بَنَيْتُه   بأسمَرَ مَشْقُوق الخياشِيم يَرْعُفُ

أراد بالأسمر القلم. والبيت: عِيالُ الرّجُل والذين يَبيت عِندهم.

يقال: ما لِفُلانٍ بِيتةُ ليلَةٍ، أي ما يَبيت عليه من طَعامٍ وغيرِه. وبيّتَ الأمْرَ إذا دَبّرَه ليلاً. قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء ١٠٨]، أي حينَ يجتمعون في بُيوتهم. غير أنّ ذلك يُخَصّ بالليل. النهار يظَلُّ كذا. والبَيُّوتُ: الماءُ الذي يبيت ليلاً. والبَيُّوتُ: الأمر يُبَيِّتُ عليه صاحبُه مهتَمّاً به. قال أُمَيّة:

---

(١) نقدّم الشكر إلى الباحثة المغربية لطيفة الحياة حيث نبّهتنا إلى أن هناك فرقاً كبيراً بين البيت والمسكن. وهنا نلاحظ كيف أن منهج عدم الترادف وتقاطع الآيات بعضها ببعض والمصداقية على أرض الواقع كيف أن هذا المنهج يؤدي إلى نتائج سليمة.

وأَجْـعَـلُ فُـقْـرَتَـهـا عُـدَّةً   إذا خِفْتُ بيُّوتَ أَمْرٍ عُضالِ.

والبَيَات والتَّبْييت: أن تأتي العَدُوَّ ليلاً، كأنّك أَخَذْتَه في بَيْتِهِ. وقد روي عن [أبي] عبيدة أُنه قال: بُيِّتَ الشيءُ إذا قُدِّر، ويُشَبَّه ذلك بتقدير بيوت الشَّعر. وهذا ليس ببعيدٍ من الأصل الذي أصّلناه وقِسْنا عليه). أهـ (معجم مقاييس اللغة).

نرى أن له عدة فروع معظمها وردت في المصحف في معانيها وأهم ما نرى فيها هو جمع الشمل الذي ينطبق على مفهوم البيت الحرام أي إن كل من يريد أن يجمع شمله مع الله وإنشاء علاقة روحية معه فليأت إلى البيت الحرام وهو مكان مشخص يمكن أن يُرى بالعين لنزوع الإنسان إلى المشخص، لذا فهو ليس مكان مبيت الله وإنما هو مكان إقامة علاقة روحية مع الله، ولذا طلب منا أن نتجه في الصلاة إليه أينما كنا. وكما قلنا فقد ربط قمة المجرد، وهو الصلاة، بقمة المشخص وهو البيت الحرام.

ونرى أن وقوف المؤمنين في الصلاة متجهين للمسجد الحرام مهما بعدوا هو عملية لم شمل عالمية. ولنفهم فهماً أفضل ننظر إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت ٤١). نرى هنا أن للعنكبوت بيتاً لا سكناً حيث إن بيت العنكبوت هو شبكة تنسجها العنكبوت حول محيطها وهي في مركزها، وعن طريقها تتصل بالعالم الخارجي، وهو ليس مكان المبيت بل العلاقات مع العالم الخارجي. وكذلك نفهم قوله تعالى ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ...﴾ (النور ٣٦) ففي هذه البيوت تحدث العلاقة الروحية بين الله والإنسان. وكذلك نفهم قوله تعالى ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ (إبراهيم ٤١) أي دخل في علاقة الإيمان معي وليس بالضرورة سكني أو مكان مبيتي.

* السكن: السين والكاف والنون (س ك ن) أصلٌ واحد مطّرد، يدلُّ على خلاف الاضطراب والحركة. يقال سَكَن الشّيءُ يسكُن سكوناً فهو ساكن.

والسَّكْن: الأهل الذين يسكُنون الدّار. وفي الحديث: «حتَّى إنَّ الرُّمّانَة لَتُشْبِعُ السَّكْن». والسَّكَن: النار، في قول القائل: * قد قُوِّمَتْ بسَكَنٍ وأَدْهانْ وإنّما سمّيت سَكَناً للمعنى الأوّل، وهو أنَّ النّاظر يَسْكُن إليها وإلى أهلها. ولذلك قالوا: «آنَسُ من نار». ويقولون: «هو أحسن من النّار في عين المقرور». والسَّكَن: كلُّ ما سكنتَ إليه من محبوب. والسِّكِّين معروف، قال بعضُ أهل اللغة: هو فِعِّيل لأنّه يسكّن حركةَ المذبوح به. ومن الباب السّكينة، وهو الوقار، وسُكان السفينة سمِّي لأنَّه يُسكّنها عن الاضطراب، وهو عربيٌّ. أهـ. (معجم مقاييس اللغة).

هنا نرى أن السكن شيء والبيت شيء آخر حيث لإن المسكين هو القليل الحركة، وهو الذي يقال عنه المعاق أو ذو الاحتياجات الخاصة كالأعمى والأصم والأبكم والمشلول، وكل أصحاب الإعاقات هم مساكين. فالسكن هو مكان السكينة والهدوء لذا قال تعالى (ومساكن ترضونها).

والغريب أن كل كتب الفقه إلى يومنا هذا ليس عندها وصف لذوي الإعاقات على أنهم هم المساكين، علماً بأنهم ذكروا في التنزيل الحكيم أكثر من ذكر الفقراء.

يصف تعالى بيته المحرّم هذا بأنه أول بيت للعبادة (وإنما أضفنا كلمة للعبادة بدلالة قوله تعالى (هدى للعالمين) (بيت الله هو ليس مبيت الله ولا سكن الله) ثم يصفه بأنه وُضع للناس ولم يقل وضع للبشر، والناس جمع إنسان، ليدل على أنه وضع ليتعبّد فيه العقلاء الذين ورثوا نفخة الروح عن أبيهم آدم. ثم يصفه بأنه مبارك ليدل على رسوخه وثباته من جانب وعلى نموّ أثره وتنامي قيمته من جانب آخر وعلى رسوخ فكرة التوحيد فيه ثم انتشارها منه في نمو متزايد من جانب ثالث. ثم يحدد أن مكانه ببكة. وبكة اسم قديم لمكة عرفت به منذ عصور وعصور يشير إلى قلة الكلام ومحدودية المفردات اللغوية آنذاك. ثم يقرر أن فيه آيات واضحة قابلة للمشاهدة بالعين وباللب يذكر واحدة من بينها هي مقام إبراهيم الذي ما زلنا حتى اليوم نراه أثناء الطواف، ويغفل ذكر الباقي. ولعل

حجر إسماعيل من بين الآيات البيّنات التي جرى إغفالها. ثم يصفه بأنه هدى للعالمين، ولم يقل للمؤمنين ولا للمسلمين. والمقصود بهم الناس من أهل الأرض جميعاً بدلالة أن الحج تكليف ونداء للناس جميعاً (ولله على الناس حج البيت.. الآية). نصل أخيراً إلى صفة لهذا البيت يقرّر فيها سبحانه أن من دخله كان آمناً. وكما وقفنا عند كلمة (المحرم) في إبراهيم ٣٧، كذلك نقف عند كلمة (آمناً) في هذه الآية لنتساءل: آمناً من ماذا؟ إن قلنا آمناً من الشرك أخطأنا، فالكعبة - قبل الفتح في العهد المحمدي - لم تخل يوماً من أصنام الآلهة وأنصابها وتماثيلها. وإن قلنا من وسوسة الشيطان أخطأنا أيضاً، لأن الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم. وإن قلنا آمناً من القتل أخطأنا أيضاً وأيضاً، لأن الواقع لا يؤيّد ذلك، فهناك العديد ممن قتل داخل المسجد الحرام ولم يكن آمناً.

١٥ - قلنا إن تقديم القرابين البشرية للآلهة قبل عهد إبراهيم كان ظاهرة شائعة في العديد من بقاع العالم، وفي أغلب الهياكل والمعابد، ونرى الآن أن هذه الظاهرة قد اختفت تماماً، علماً أن الحروب ما زالت موجودة والقتل ما زال موجوداً، هنا يأتي التنزيل الحكيم ليحكي لنا في قصة إبراهيم متى اختفت هذه الظاهرة وكيف.

١٦ - عندما اهتدى إبراهيم للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، واكتشف عبر رحلته الطويلة بين الشك واليقين أن الله هو الواحد الأحد الذي لا يتغير ولا يتبدل وأن الكون بكل ما فيه متحرك حنيف، احتار ماذا يفعل ليتقرب من هذا الإله. فالناس يقدّمون قرابين لآلهة مزيفة لا تملك ضراً ولا نفعاً لأحد، والمنتفع الوحيد من هذه القرابين على اختلاف أشكالها هم السدنة والكهنة والهامانات من أمثال آزر أبي إبراهيم الروحي ومربيه.

١٧ - ظلت فكرة تقديم القربان لله تدور في رأس إبراهيم حتى سيطرت عليه، وبدأ يرى في المنام أنه يذبح ابنه. ثم تكررت الرؤيا حتى ترسّخت، فقرر إبراهيم أن يحوّلها إلى فعل على أرض الواقع، بعد أن أيقن أنها ليست مجرد رؤيا، بل تكليف وأمر إلهي. وهذا ما نفهمه من قوله تعالى مصوّراً القسم الأول

مما دار بين إبراهيم وابنه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الصافات ١٠٢).

إننا لا يعنينا كثيراً - ونحن نرصد في التنزيل الحكيم كيف جرى وضع حد لتقديم القرابين البشرية للمعبودات - أن يكون الذبيح إسماعيل أم إسحق، خصوصاً ونحن نجد أن القائلين بإسحق هم: عمر وعلي والعباس وابن مسعود وكعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهري والسدي ومقاتل، وأن القائلين بإسماعيل هم: ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبي ومجاهد والكلبي. ولكل من هؤلاء وأولئك حجة ودليل.

ولا يعنينا كثيراً أن يكون المكان الذي جرت فيه هذه الأحداث هو بمنى أم بالشام أم ببيت المقدس.

ولا يعنينا كثيراً إن كان التكليف المأمور به هو الذبح بقطع الحلقوم أم هو مقدمات الذبح من إضجاع، وربط بالحبال، وسنّ سكين، وما ينتج عن كل من الأمرين في حال ترجيحه.

فقد اقتضى ذلك كله من الإمام الرازي في تفسيره الكبير (ج٢٦ ص ١٣٢-١٣٧) حوالى ١٣٠ سطراً/ ٢٦٠٠ كلمة. ولو أننا مضينا خلفه في الشرح والبيان لشغلنا - كما شغله تماماً - عن القصد الأساسي الأول من هذا الجزء من قصة إبراهيم.

ما يعنينا ويهمنا من آية الصافات ١٠٢ هو التالي، مفترضين دون دخول بالتفاصيل، أن الذبيح هو إسماعيل ودليلنا هو قوله تعالى عندما بشر إبراهيم بإسماعيل قال ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ (الصافات ١٠١):

آ - قوله ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ الذي نفهم منه أن إسماعيل بلغ سناً يستطيع فيها مع أبيه القيام بالمسعى النبوي الأول عند الأنبياء وهو الدعوة إلى التوحيد. أي إن إسماعيل في لحظة أحداث الآية كان نبياً.

ب - قوله (إني أرى) ونفهم أن الرؤية ليست بالعين وأنها إدراك بالفؤاد لأنها

في المنام، وأنها تكررت أكثر من مرة بدلالة استعمال الفعل المضارع «أرى» لا الفعل الماضي «رأيت»، كما في قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا. . .﴾ (يوسف ٤).

ج - قوله (فانظر ماذا ترى) ونفهم أن فعل «ترى» فيه هو من الرأي لا من الرؤية.

د - قوله (افعل ما تؤمر)، الذي يمثل رأي إسماعيل النبي فيما رآه أبوه مناماً، والذي يذكرنا بقول موسى للعبد الصالح بعد قتله الغلام ﴿. . .أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ (الكهف ٧٤). وإذا كان قتل النفس الزكية - أياً كانت هذه النفس - أمراً نكراً حسب تعبير آية الكهف ٧٤، فما بالك بقتل الأنبياء والرسل؟ قد يقول قائل: تلك أحكام نزلت على موسى في ما بعد ضمن الوصايا العشر، لعلها لم تكن في عهد إبراهيم وإسماعيل؟ لذا قال تعالى ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا. .﴾ (المائدة ٣٢). إننا نفهم أن جواب إسماعيل لأبيه كان أن يفعل ما يؤمر لا ما يرى في المنام لأن إسماعيل أيضاً لا يقبل أن يقتله أحد بمجرد منام حتى لو كان أباه. فإن كانت المسألة أمراً بالقتل فليفعل، وإن كانت رؤيا فلا.

هـ - قوله ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ الذي نرى فيه إشارة تدل على أن إسماعيل فهم من مقام النبوة القصد الإلهي من الرؤيا ومن التكليف بالذبح، وأن المسألة ابتلاء وامتحان، وهذا ما سيتضح جلياً في القسم الثاني من القصة بقوله تعالى ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ (الصافات ١٠٦). فإن قال مستنكر: أليس في زعمك هذا انتقاص من إبراهيم باتهامه بأنه لم يفهم المقصود الإلهي، وأن ابنه فهمه؟ نقول: كلا، ليس فيه ما ذكرت بدليل أمرين: الأول، قوله تعالى ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ. . .﴾ (البقرة ٢٥٣)، والتفضيل شيء والانتقاص من المفضول شيء آخر. والثاني،

قوله تعالى ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا. . .﴾ (الأنبياء ٧٨-٧٩)، ولكي يؤكد أن تفهيم المسألة لسليمان لا يعني مطلقاً الانتقاص من أبيه داود، راح سبحانه يعدّد ما خص به داود قائلاً: ﴿. . . وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ * وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ (الأنبياء ٧٩-٨٠).

إن الانتقاص الحقيقي كان بحق إسماعيل على أيدي المفسّرين حين زعموا جميعاً بدون استثناء أن الصبر المذكور في آية الصافات ١٠٢ هو الصبر على الذبح وآلامه، وكأن إسماعيل واحد من العوام الذين لا يعرفون شيئاً عن المعاناة النفسية والروحية والفكرية، ومنتهى الصبر عندهم هو احتمال الألم المادي الجسدي الناتج عن لسع سوط أو حز سكين أو بتر ساطور.

١٨ - بالانتقال إلى القسم الثاني من مشهد الذبح تبدأ الأمور بالوضوح وتبدأ النقاط بالتوضع فوق حروفها: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (الصافات ١٠٣-١١٠).

أ - قوله (فلما أسلما) إشارة إلى أن معركة المعاناة قد حُسمت لمصلحة التسليم لله تعالى، وإلى أن نار تنازع الأفكار وتجاذب الوساوس في أعماقهما قد انطفأ لمصلحة الإيمان والإنابة، وإلى أن الحيرة عندهما قد اطمأنت للطف الله ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ. . .﴾ (الشورى ١٩). ولعلم الله بما هو خير للإنسان وإن كرهه وبما هو شر له وإن أحبه ﴿. . . وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢١٦).

ب - قوله ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ تجسيد عملي بالجوارح للتسليم النظري بالفكر، سواء كانت الواو استئنافية أم حالية، والأخيرة أقوى عندنا.

ج - قوله ﴿وناديناه يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ وفيه يستوقف سبحانه إبراهيم عن المضي في استكمال الذبح عملياً، إذ المراد ليس الذبح، بل امتحان إيمان إبراهيم وإسماعيل بربهما تسليماً، وقد أثبتا ذلك فعلاً وعملاً.

د - قوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي جاء متأخراً، وفيه دليل ما فهمه إسماعيل من أن المسألة ليست مسألة قتل وذبح بقدر ما هي مسالة ابتلاء واختبار.

هـ - قوله ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذي جاء متقدماً، وفيه إشارة إلى الفداء الذي خص به تعالى إبراهيم وإسماعيل جزاءً لهما على إحسانهما في الإسلام لله والتسليم لأمره.

و - قوله (وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه في الآخرين) عبارتان، في الأولى يقر سبحانه أولاً القرابين من حيث المبدأ، لكنها تتحول عنده إلى صدقات عينية للفقراء والمساكين، وقروض حسنة للغارمين والمحتاجين، وأعمال صالحة يقصد بها وجه الله تعالى، فإذا كانت أضحيات نبّهنا إلى أنه ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ...﴾ (الحج ٣٧). ويضع ثانياً نهاية لمسألة القرابين البشرية. أما في العبارة الثانية فهو يطمئننا بأن ما وضعه من منع للقرابين البشرية واستبدالها سيبقى ساري المفعول إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، وأنه ليس محصوراً بعصر إبراهيم، بل سيشمل ما بعده من عصور متأخرة.

الآن فقط نستطيع أن نفهم معنى قوله تعالى حين قال ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ..﴾ (آل عمران ٩٧). ونستطيع أن نفهم لماذا تكررت عبارة (كذلك نجزي المحسنين) مرة في الآية ١٠٥ ومرة في الآية ١١٠ من سورة الصافات. فإبراهيم أحسن بإسلامه لله وتسليمه لأمره، فجاءه الجزاء بأن فدى الله إبنه اسماعيل بقربان جليل الشأن وأعلن سبحانه قانون جزاء الإحسان والمحسنين، وهذا معنى كلمة (إنا) في الآية ١٠٥.

وإبراهيم أحسن في الإنابة إلى الله والاتكال عليه، فجاءه الجزاء مرة ثانية

خاصاً به وهذا معنى قوله تعالى ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ بأن زاده مقاماً على مقام، فبعد أن جعله إماماً (البقرة ١٢٤) وللمؤمنين المسلمين أسوة (الممتحنة ٤) ترك ما نزل عليه من منع القرابين البشرية واستبدالها بالحيوان سنَّة يعمل بها كل من يأتي بعده إلى بيت الله الحرام. وبهذا استقر مفهوم الأضحية في الحج والفداء في القرابين، ليبيّن أن كل من دخل المسجد الحرام كان آمناً من تقديمه إلى الله كقربان بشري، وصدق الله العظيم. أما ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنه آمن من اغتيال الآخرين له أو إيذائهم له أو قتله فليس عندنا بشيء. والتاريخ يؤكد عدم صحة هذا الفهم.

١٩ - كانت الفقرة الأولى من رسالة إبراهيم الدعوة إلى التوحيد، الذي يشكل محوراً دارت حوله دعوات من سبق من أنبياء ورسل. وكانت الفقرة الثانية ترسيخاً لمفهوم بر الوالدين الذي جاء به نوح، وتوسيعاً لهذا المفهوم بحيث أصبح يشمل الأبوين، تماماً كما اتسع مفهوم الدعوة إلى التوحيد ليشمل مع القوم السلطة الحاكمة. وكانت الفقرة الثالثة تضع الأسس الأولى لفكرة الهجرة إلى الله، التي جاءت لتتوّج عملياً ومادياً مرحلة البحث عنه بين المعبودات الزائفة الأخرى.. ثم الاهتداء إليه، ثم التعرف حسياً على قدراته في إحياء الموتى استنباطاً من قدرته على إحياء الشمس والقمر وباقي الكواكب والنجوم بعد أفولها. وكانت الفقرة الرابعة تتضمّن الإجابة عن سؤال كبير: ماذا يفعل الباحث عن ربه الواحد الأحد بعد أن يهتدي إليه ويتعرف إلى قدراته؟ وأين وكيف يتقرب إليه ليرضى؟

لقد جاءت هجرة إبراهيم إلى منطقة مكة المكرمة عند بيت الله المحرم، وتطهيره من كل ما يشغل قاصديه ويعوقهم عن الطواف والاعتكاف والركوع والسجود، لتجيب عن الشق الأول من السؤال. وجاءت قصة الرؤيا والذبيح والنداء - التي فصلناها آنفاً - لتجيب عن الشق الآخر منه، وليأخذ مفهوم القرابين شكله الصحيح على يدي إبراهيم وإسماعيل، وليتكرّس استبعاد تقديم القرابين البشرية إلى يومنا هذا.

٢٠ - لكن أبرز وأهم ما أرساه إبراهيم كنبي ورسول - مع عدم التقليل من أهمية ما أشرنا إليه في الفقرة السابقة - هو أمران:

الأول، ظهور مفهوم التجريد في التقرّب من الله في الفكر الإنساني، إذ كان التشخيص هو السائد، وكان لا بد في عصر إبراهيم وما قبله من شكل بعينه واسم بعينه لكل رب معبود، ولا بد من مكان بعينه يسكنه هذا الرب المعبود يُعبد فيه وتقدَّم القرابين لنيل رضاه. والثاني، اكتمال الانتقال من التشخيص إلى الرمز للوصول إلى التجريد. هذا الانتقال الذي بدأت بذوره مع أول مخلوق بشري نفخ الله فيه من روحه فتحوّل إلى إنسان عاقل، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى وهو يستهل فصلاً من فصول قصة إبراهيم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء ٥١).

٢١ - لعل أوضح شعيرتين من شعائر الإيمان عند الأمة المحمدية تعودان في العديد من تفاصيلهما إلى إبراهيم، وتتجلى فيهما تلك النقلة من المشخص إلى المجرد عن طريق الرمز، هما: التجريد في الصلاة، والمشخص في الحج، وارتباطهما بعضهما ببعض.

أ - الصلاة

نبدأ بقوله تعالى:

- ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا . .﴾ (البقرة ١٢٤-١٢٦).

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (الحج ٢٦).

هذه الآيات تروي فصولاً من قصة إبراهيم مع بيت الله المحرم في وادٍ غير ذي زرع، لكن الأحداث فيها ليست مرتبة حسب وقوعها، فمثلاً:

أ - جعل البيت مثابة للناس وأمناً حصل قبل جعل إبراهيم للناس إماماً، بدليل الفرق بين قوله (وإذ جعلنا البيت) وقوله (إني جاعلك).

ب - اهتداء إبراهيم لمكان البيت المحرم وتلقيه الأمر بتطهيره، حصل قبل صدور الأمر له ولإسماعيل مرة أخرى بتطهير البيت.

ج - صدور الأمر للناس بقوله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) لا بد أن يأتي بعد تطهير البيت لا قبله.

ما يهمّنا في هذه الفقرة أن نشير إلى أمرين في الآيات الأربع السالفة: الأول أن إمامة إبراهيم للناس أصبحت تشمل إمامتهم في الصلاة إلى جانب كونه إماماً لهم في منهجه الاستقرائي الذي قاده إلى التوحيد وفي الشك الذي قاده إلى اليقين. والثاني، أن تطهير البيت في المرتين المذكورتين إنما هو تطهير من أجل «الطائفين» ليتمكنوا من الطواف، ومن أجل «العاكفين» ليتمكنوا من الاعتكاف، ومن أجل «الركع السجود» ليتمكنوا من أداء صلواتهم. ولا يفوتنا أن نفهم أن الطائفين هم الوافدون، وأن العاكفين هم المقيمون، الذين سنتحدث عنهم تفصيلاً في الفقرة التالية حين نتحدث عن الحج.

إننا نرى في ضوء تكليف الناس (جمع إنسان وهو كل مخلوق عاقل) باتخاذ مقام إبراهيم مصلى[1]، وفي ضوء إشارة آيتي البقرة ١٢٥ والحج ٢٦ إلى وجود طائفين وعاكفين وركع سجود في العصر الإبراهيمي، أن إقامة الصلاة بركوعها وسجودها جاءت لإبراهيم أول مرة مقترنة بالبيت المحرم أي بالكعبة المشرفة، ثم اختلفت بعد إبراهيم على أيدي أهل الملل الأخرى من يهود ونصارى. وكذلك صلوات الملل الأخرى حيث لكل ملة صلاة خاصة بها وكلهم يشترك في ظاهرة

---

(١) ثمة قراءتان لآية البقرة ١٢٥، في الأولى تلفظ الخاء من كلمة (واتخذوا) مكسورة بصيغة الأمر، وهذه قراءة ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم والكسائي وهي الأرجح عندنا. وفي الثانية تلفظ مفتوحة بصيغة الخبر، وهي قراءة نافع وابن عامر وليست عندنا بشيء، إذ في الأولى تأكيد لإمامة إبراهيم من جانب، وتأكيد للقبلة الإبراهيمية من جانب آخر، دون أن يتعارض ذلك مع وجود طائفين وعاكفين وقائمين وركع سجود قبل إبراهيم ومعه.

التأمل والخشوع. ويقودنا التأمل في الآيات الأربع إلى عدد من النتائج:

(١) - الأمر بتطهير البيت نزل مرتين، مرة لإبراهيم منفرداً عقب نزوله بجوار بيت الله المحرم، بدلالة آية الحج ٢٦، حين كان إسماعيل لا يزال طفلاً رضيعاً، ومرة لإبراهيم وإسماعيل معاً، بدلالة الآية ١٢٥ من سورة البقرة، بعد أن بلغ إسماعيل أشده وصار نبياً.

(٢) - الأمر بالتطهير في المرتين يقتضي أن الكعبة قائمة، وأنها مثابةٌ للناس وأمنٌ، وأنها عامرة بالطائفين والعاكفين والقائمين والركع السجود.

(٣) - رفع القواعد بمعنى إزالة الإشغالات، سواء أكانت أنصاباً أم أصناماً أم منصات للنخاسين والصيارفة، داخل في أعمال التطهير ولا علاقة له بالبناء والأساسات من قريب ولا من بعيد.

(٤) - حين نقول إن إقامة الصلاة بركوعها وسجودها نزلت لأول مرة على إبراهيم مقترنة بالكعبة لا نعني أن الصلاة كصلة بين العبد وربه لم تكن معروفة عملياً قبل ذلك، وإلا فماذا كان يفعل الطائفون والعاكفون في البيت المحرّم؟ فالصلاة في الأصل صلة بين العبد وربه عمودها الدعاء تضرّعاً لدفع شر وحمداً لجر خير. وحين نقول إن الصلاة بركوعها وسجودها - كما أمر الناس أن يأتموا بإبراهيم في أدائها هي التي بدأت بإبراهيم - قد اختلفت في ما بعد على يد أهل الملل الأخرى، فإننا نقول ذلك ناظرين إلى قوله تعالى يصف صلاة الكافرين في الكعبة لنبيّه (ص) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأنفال ٣٥) (المكاء والتصدية: الصفير والتصفيق).

(٥) - يؤكد ما ذهبنا إليه، دليل قرآني هو قوله تعالى ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ (آل عمران ٤٣). وهنا نجد أن ترتيب الركوع والسجود عند مريم اختلف عما كان عليه عند إبراهيم، إلا أنهما لم يختلفا من حيث شكل الأداء تطبيقياً. فالركوع - بالأصل - هو جلوس المتضرّع المستعطف

القانت جاثياً على ركبتيه، وهذا ما كان عليه ركوع إبراهيم ومريم، ثم صار الركوع عند الأمة المحمدية انحناءً يعبّر عن الاحترام والتعظيم بحيث تستقر راحتا الراكع المنحني على ركبتيه، تماماً كما تحوّل الصوم من امتناع عن الكلام إلى امتناع عن الطعام والشراب في أوقات معلومة على مدى شهر معلوم. ونفهم من آية آل عمران ٤٣ أن الركوع والسجود كانا موجودين في عصر مريم وابنها المسيح، تماماً كما كانا قبل ذلك في عصر إبراهيم، والسجود عند مريم والمسيحيين هو وضع الذقن على الصدر وذلك في قوله تعالى ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ونفهم أن الركوع الجثو على ركبتين يليه السجود وهو وضع الذقن على الصدر، ونرى هذا إلى اليوم في صلاة المسيحيين.

(٦) - يؤكد ما ذهبنا إليه أيضاً خبر تاريخي يرويه الطبري في تاريخ الرسل والملوك (ج٢ ص ٣١١) عن إسماعيل بن إياس بن عفيف عن أبيه عن جده قال: كنت امرأً تاجراً، قدمت أيام الحج فأتيت العباس، فبينا نحن عنده إذ خرج رجل يصلي، فقام تجاه الكعبة، ثم خرجت امرأة فقامت تصلي معه، وخرج غلام فقام يصلي معهما. فقلت: يا عباس، ما هذا الدين؟ إن هذا الدين ما أدري ما هو. قال: هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به، وأن كنوز قيصر وكسرى ستفتح عليه، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به، وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب آمن به. قال عفيف: فليتني كنت آمنت به يومئذ وكنت رابعاً. أهـ.

(٧) - فإذا نحن وقفنا متأملين في قوله تعالى لنبيه الكريم في سورة هي من أوائل ما نزل عليه ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ (العلق ٩-١٠)، فهمنا أن الصلاة هنا هي صلة بين العبد وربه وليست الصلاة الشعائرية وكانت معروفة قبل النبي حتى وقبل إبراهيم.

(٨) - حين توجّه النبي (ص) في صلاته إلى الكعبة المشرفة كان ذلك تأسّياً بقبلة إبراهيم قبله، لأن الأمر الإلهي في قوله تعالى ﴿...فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ (البقرة ١٤٤)، نزل في المدينة المنورة بعد الهجرة.

(٩) - كان النبي (ص) طوال فترة سبعة عشر شهراً في المدينة يتوجّه في صلاته إلى المسجد الأقصى ويقلب وجهه في السماء، حسب تعبير آية البقرة ١٤٤، بانتظار نزول أمر إلهي يكرّس اجتهاده أو يأمره باستبداله. وإذا كانت مسألة القبلة في التوجّه نحو الكعبة لم تخلق مشكلة للنبي (ص) وأصحابه وهم في مكة، فإنها بدأت تتحوّل إلى مشكلة بعد هجرتهم إلى المدينة.

(١٠) - كان لتأخير نزول الأمر بتحديد القبلة حكمة وسبب أوضحه تعالى بقوله ﴿...وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ...﴾ (البقرة ١٤٣). والجعل في الآية يعني تحويل الاجتهاد النبوي إلى أمر إلهي، و«القبلة التي كنت عليها» تعني الكعبة التي كنت وما زلت تتوجّه إليها، تماماً كقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران ١١٠)، أي صرتم وما زلتم.

(١١) - كل ما قاله أهل الأخبار وأصحاب التفاسير، عن نزول أمر إلهي بالتوجّه إلى بيت المقدّس في الصلاة ثم نسخه بآية البقرة ١٤٤، ليس عندنا بشيء. وكل ما زعموه من أن النبي اتجه بأمر ربه إلى بيت المقدس في صلاته استرضاءً لليهود واستمالة لهم (انظر تفسير الرازي ج٤ ص ٩٤) مرفوض عندنا جملة وتفصيلاً، القائل به من عبيد الإسرائيليات. وكل ما صاغه القائلون بالنسخ من أن آية البقرة ١٤٤ نزلت ناسخة لآية آية أخرى لا يدري أحد عنها شيئاً، جعلت من النبي (ص) وأصحابه محل سخرية اليهود على مدى سبعة عشر شهراً، إنما هو نسيج خيال ركيك وخطير في آن معاً. فالله تعالى يقول ﴿...وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ...﴾ (البقرة ١٥٠) فهل يعقل بعد هذا القول أن يتخذ النبي (ص) قبلة جديدة غير التي اعتمدها على مدى أربعة عشر عاماً يعطي فيها الحجة عليه لليهود؟

(١٢) - ثمة - في ما نرى - أكثر من علاقة وثيقة تربط الصلاة بالحج من

جانب، وهذا ما سنفصله في الفقرة التالية، وبين التجريد والتشخيص من جانب آخر، الذي يتجلى في عدد من الصور، منها:

أ - توجّه المصلي إلى الكعبة المشرفة حيث بيت الله الحرام، وهذا توجُّهٌ (حجٌ) روحي معنوي مجرد.

ب - التسبيح باسم الله العظيم في الركوع وباسم الله الأعلى في السجود.

ج - التسليم بعد الانتهاء من الصلاة، الذي يمثل صورة حسية لإيمان المصلي بوجود الملائكة.

ب - الحج إلى بيت الله الحرام

في كتابنا الثاني الإسلام والإيمان شرحنا أركان الإيمان الخمسة (الشهادة بأن محمداً رسول الله/ الصلاة/ الزكاة/ الصوم/ الحج)، وتبيّن لنا من قراءة قصة إبراهيم أن شعيرتين من الشعائر الأربع التي تحدد هوية المؤمن بالرسالة المحمدية تعودان إلى العصر الإبراهيمي هما: الصلاة الشعائرية والحج.

والحج مفردة قرآنية وردت في ثلاثة عشر موضعاً من التنزيل الحكيم، وأصل صحيح في اللسان يدل على أحد أربعة معانٍ: الأول: القدوم والقصد، كما في قوله تعالى ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ. . .﴾ (التوبة ٣). وقوله تعالى ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ. . .﴾ (البقرة ١٩٧)، والحاء فيه قد تُفتح كما في الآيتين السابقتين، وقد تكسر كما في قوله تعالى ﴿. . . وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. . .﴾ (آل عمران ٩٧). والثاني، الدليل والبرهان كما في قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الجاثية ٢٥)، ومنها قولنا اليوم: الحجة صك الملكية ودليلها. والثالث، الجدال والإمعان في الحوار بين المتخاصمين كما في قوله تعالى ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ (الأنعام ٨٠)، وقوله تعالى ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ. .﴾ (آل عمران ٦٦). والرابع،

السنة والعام كما في قوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ . . .﴾ (القصص ٢٧). وما يهمنا في هذه الفقرة هو المعنى الأول للحج وهو: القصد إلى بيت الله الحرام والتوجه إليه في أشهر معلومات من العام لأداء مناسك معينة لقوله تعالى: ﴿. . . وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . . .﴾ آل عمران ٩٧، أو القصد للعمرة أو ما يمكن أن نقول عنه (الحج الأصغر) في الأشهر الحرم والمذكورين في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا . . .﴾ (البقرة ١٥٨).

من هنا، وفي ضوء هذا التعريف، فنحن نرى بداية تبلور فكرة الحج عند إبراهيم تتجلى في قوله تعالى على لسان إبراهيم ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ (الصافات ٩٩). ثم تبدأ الفكرة بالنضوج وهو يدعو ربه قائلاً ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم ٣٧). ونرى أن مكان الحج قد تحدد منذ عصر إبراهيم بالكعبة المشرفة، في بلد صغير شحيح بالماء والثمر، لا يزيد عدد قاطنيه على المئات، ولا يتجاوز عدد قاصديه العشرات. والسؤال الآن: هل أضافت البعثة المحمدية جديداً إلى الحج من حيث المكان؟ والجواب: نعم، بكل تأكيد. فقد استجاب الله لدعاء إبراهيم وجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وأمر الناس باتخاذ مقام إبراهيم مصلى، وصارت العشرات ألوفاً، والمئات عشرات ألوف، ولم يعد المكان على هيئته الأولى يتسع للوافدين المحرمين (قيل إن عدد من شارك في حجة الوداع بلغ مئة ألف حاج، وهذا رقم على قلته بالمقارنة بعدد الحجاج اليوم البالغ حوالى ٢,٣ مليون حاج بين قادم ومقيم، يعدّ فريداً من نوعه في منتصف القرن السابع الميلادي في شبه جزيرة العرب) وكان لا بد لحدود الحرم المكي من أن تمتد لتستوعب هذه الخلائق المهاجرة إلى ربها، فكان أن رسم النبي (ص) مواقيت

الحرم من جهاته الأربع، لا يتجاوزها الحاج والمعتمر إلا محرماً، ولا نرى أن هذه المواقيت كانت من عهد إبراهيم، ويؤكد هذا ما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله (ص) قال: نحرت ها هنا ومنى كلها منحر، ووقفت ها هنا وعرفة كلها موقف. ونفهم أن المواقف في الحديث الرسولي - إن صح - هي الأماكن التي يقف فيها الحاج لقضاء مناسكه، وهي الشعائر كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة ١٥٨)، وهي المشاعر كما في قوله تعالى ﴿. . . فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ. . .﴾ (البقرة ١٩٨).

والجديد في الحج الذي جاءت به البعثة المحمدية لم يقتصر على المكان بل امتد حتى شمل الزمان أيضاً، إذ لا بد لكل فعل من ظرف مكاني وظرف زماني يقع فيهما. وإذا كان الجديد في الحج بظرفه المكاني جاء توسيعاً لحدود المكان - كما رأينا - فصار عرفة عرفات كما في آية البقرة ١٩٨، وصار المنحر مناحر كما في الحديث الرسولي، فإن الجديد في الحج بظرفه الزماني جاء تنظيماً هدفه التقليل من الازدحام في مواقف الحج حتى بعد توسيعها. ونبدأ بقوله تعالى ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ. . .﴾ (البقرة ١٩٦)، الذي نجد أنفسنا معه أمام أمرين: الأول، قوله (وأتموا) والثاني تفريقه بالعطف بين الحج والعمرة. أما الأول ففيه أمر تكليفي بالإتمام، أي أداء الشعائر والمناسك متتابعة دون فواصل زمنية بينها، تماماً كما في الصوم حين يقول تعالى ﴿. . . ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ. . .﴾ (البقرة ١٨٧)، أي دون انقطاع وهذا يقودنا إلى شرح التمام والكمال.

فصل في الفرق بين التمام والكمال

انقسم اللغويون في مسألة الترادف إلى قسمين، بعضهم قال به وبعضهم أنكره، وكان من الطبيعي أن نجد معاجمهم وقواميسهم - باعتبار أن كل أصحابها من اللغويين - تعكس القسم الذي ينتمون إليه في مسألة الترادف. ونذكر على سبيل المثال من معاجم القائلين بالترادف «لسان العرب» لابن منظور، و«تاج

العروس» للزبيدي. ومن معاجم منكري الترادف «مقاييس اللغة» لابن فارس و«أساس البلاغة» للزمخشري.

وإذا كان من الطبيعي أن نجد في معاجم القسم الأول «دارات مغلقة» لمعاني الألفاظ المترادفة، تفسّر معنى الكذب بالبهتان، والبهتان بالإفك، والإفك بقول الزور، ثم تعود لتفسّر قول الزور بالكذب، فإن من غير الطبيعي أن نجد مثل ذلك في معاجم القسم الثاني.

نقول هذا ونحن نقف أمام قوله تعالى ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا...﴾ (المائدة ٣). ونقف مع ابن فارس في مقاييسه وهو يقول: كمل: أي تم. وكمل الشيء إذا تم. تمَّ: أي كمل. وتم الشيء إذا كمل. ومع الزمخشري وهو يقول: أعطاه حقه كاملاً وكملاً: أي وافياً، وهذه تكملته وتتمته. ولم يخرج صاحب المعجم المدرسي الصادر عن وزارة التربية في الجمهورية العربية السورية عام ١٩٨٥، عن هذا الإطار وهو يقول: كمل الشيء: تمّت أجزاؤه. الكمال: التمام. التكملة: التتمة.

ورغم أن الجميع متفقون على أن الكامل خلاف الناقص، إلا أن أحداً منهم لم يسأل نفسه: لماذا يستعمل العرب مصطلح «البدر التمام» ولا يستعملون «البدر الكمال»؟ وهل يجوز - إذا كان تمَّ وكمل بمعنى واحد - أن نقول مثلاً: اليوم أتممت لكم دينكم وأكملت عليكم نعمتي؟؟ والجواب: لا يجوز ذلك قطعاً.

نحن مع التمام والكمال أمام لفظين اختلفت حروفهما. فالأصل ت م م، غير الأصل ك م ل. ومن هنا لا يمكن حسب رأي منكري الترادف إلا أن يختلفا في المعنى، ولا يمكن إلا أن يكون في أحدهما ما ليس في الآخر. لكن المشكلة أن «المرجعيات اللغوية»، ونعني بها المعاجم والقواميس والموسوعات، لا تفيد في تبيان هذا الفرق وتوضيح ذلك الاختلاف، فكان لا بد من استقراء آيات التنزيل الحكيم التي ورد فيها كل من اللفظين. يقول تعالى:

١ - ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ

ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ. . .﴾ (البقرة ١٨٥).

٢ - ﴿. . .فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ. . .﴾ (البقرة ١٩٦).

٣ - ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ. . .﴾ (النحل ٢٥).

٤ - ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ. . .﴾ (البقرة ٢٣٣).

٥ - ﴿. . .ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا. . .﴾ (المائدة ٣).

تلك هي المواضع الخمسة التي ورد فيها لفظ ك م ل بمشتقاته وصيغه في التنزيل الحكيم. أما لفظ تمم فقد ورد خمساً وعشرين مرة في التنزيل، اشترك في مرتين منها مع لفظ ك م ل هما: البقرة ٢٣٣ والمائدة ٣. وانفرد في باقيها. كما في قوله تعالى:

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً. . .﴾ (الأعراف ١٤٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ. . .﴾ (يوسف ٦).

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا. . .﴾ (البقرة ١٢٤).

﴿. . .وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ. . .﴾ (البقرة ١٨٧).

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ. . .﴾ (القصص ٢٧).

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ . . .﴾ (الفتح ٢).

إن من فضائل ترتيل آيات التنزيل - كتاباً وقرآناً - ذات الموضوع الواحد أنه يساعد كثيراً على دقة فهمه واستجلاء معانيه. فالمتأمل في مجموعة الآيات الأولى سيجد أن لـ«الكمال» خصوصية يلتزمها هي «البدء ثم الانقطاع ثم المتابعة حتى الاكتمال»، وأن لـ«التمام» خصوصية أخرى هي «البدء والاستمرار دون انقطاع حتى التمام».

فآية البقرة ١٩٦، تتحدث عن المتمتع بالحج، وتوجب عليه ذبيحة مقابل تمتعه هذا من الهدي المتوفر المتاح حسب استطاعته المالية، فإن كان غير ذي قدرة مالية، فعليه أن يصوم عشرة أيام على قسمين: ثلاثة في الحج ثم ينقطع، وسبعة بعد العودة إلى دياره، ولهذا قال سبحانه ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[١].

وآية البقرة ١٨٥، تتحدث عن صوم شهر قمري هو رمضان، صوماً متتابعاً مستمراً لا انقطاع فيه، واجباً على كل من يشهده. ولما كان الصوم من الشعائر (من أركان الإيمان) التي تحكمها الاستطاعة تحت مقتضى قوله تعالى (اتقوا الله ما استطعتم)، وكانت هذه الاستطاعة تضعف أو تنعدم لدى المكلف الراغب بالصيام في حالتين: المرض والسفر، والله تعالى لا يريد تصعيب التكاليف على عباده بحيث تخرج عن استطاعتهم، فقد رخَّص سبحانه للمرضى والمسافرين أن ينقطعوا عن الصوم، على أن يصوموا في أيام أخر بدلاً من الأيام التي انقطعوا فيها عن الصوم. ولهذا قال سبحانه ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾، ولم يقل (ولتتموا العدة)، لأن الذي يصوم شهراً مع انقطاع يكمل، أما الذي يصوم شهراً دون انقطاع فيتم.

---

(١) لقد أشرنا في موضع آخر إلى أن لفظ (عشرة) في الآية يشير أيضاً إلى النظام العشري في العد، فقد كان أهل الحساب من العرب يعرفون أنظمة أخرى للعد كالنظام الاثني عشري والنظام الستة عشري عند الكلدانيين وغيرهم. ومن هنا فإن قوله تعالى (تلك عشرة كاملة) يؤدي مقصدين معاً. الأول أنها متقطعة غير متصلة، والثاني أنها مجموعة غير ناقصة حسب النظام العشري. ولو نظرنا إليها في ضوء نظام عددي آخر لانتفى أن تكون كلملة.

وآية النحل ٢٥، تتحدث عن أوزار يحملها مرتكبوها يوم القيامة، والأوزار لا يكتسبها الإنسان دفعة واحدة وباستمرار لا انقطاع فيه، بل هي تتراكم مع الزمن، ولهذا قال تعالى ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾.

ننتقل الآن إلى آية الأعراف ١٤٢، التي تتحدث عن موعد مضروب ولقاء بين موسى (ع) وربه مدّته أربعون ليلة مقسومة أيضاً إلى قسمين: (٣٠ + ١٠)، ليس بين القسمين انقطاع بدليل قوله تعالى ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾، ولو كان بينهما انقطاع لقال (وأكملناها بعشر) تماماً كما قال في آية البقرة ١٨٥ عن الصوم في أيامٍ أخر. إن استكمال عدة الصيام إلى شهر في البقرة ١٨٥، وإتمام الميقات إلى أربعين ليلة في الأعراف ١٤٢، شاهد واضح على خاصية الانقطاع في الكمال وخاصية الاستمرار دون توقف في التمام.

وآية يوسف ٦، تتحدث عن نعمة الله على عبده ونبيه يوسف، سواء منها نعمة الاصطفاء أو نعمة تأويل الأحاديث، هذه النعمة يصفها تعالى بأنها تامة وليست كاملة، أي إنها نعمة متصلة مستمرة لا انقطاع فيها على مدى الأجيال، تشمل كل آل يعقوب (أبي يوسف ووالده) بدءاً من إبراهيم ثم ابنه إسحاق ثم يعقوب ابن إسحاق ثم يوسف ابن يعقوب في سلسلة متصلة الحلقات. ولهذا قال تعالى ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ... كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾، في إشارة إلى أن النعمة لا تتجزأ ولا تنقطع إلى يومنا هذا.

أما آية البقرة ١٨٧، فتعود بنا إلى مسألة الصوم عن الطعام والشراب. وإذا كانت آية البقرة ١٨٥ تتحدث عن الصيام الشهري الذي قد يقع فيه انقطاع عند المريض والمسافر، فإن هذه تتحدث عن الصيام اليومي الذي يبدأ منذ خيوط الفجر الأولى ليستمر دون انقطاع إلى الليل، ولبيان هذه الاستمرارية فقد قال تعالى ﴿أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾.

وأما آية القصص ٢٧، فهي واحدة من ٤٣ آية تروي طرفاً من قصة موسى مع فرعون، تبدأ بقوله تعالى ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ (القصص ٣). تتحدث الآية عن أن والد المرأتين اللتين استقى لهما موسى يريد أن يزوّجه إحدى ابنتيه، مقابل أن يعمل عنده راعياً لمدة ثماني سنوات. فإذا شاء موسى - تكرّماً منه - أن يجعلها عشراً، ويستمر في العمل سنتين إضافيتين فذلك متروك له. ولبيان الاستمرارية وعدم الانقطاع قال له ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾.

ننتقل الآن إلى آيتي البقرة ٢٣٣ والمائدة ٣، اللتين ورد فيهما ذكر الكمال والتمام معاً. فآية البقرة ٢٣٣ تتحدث عن مسألة إرضاع الوليد، وترسم لها فترة زمنية مقدارها عامان يجري بعدها فصاله وفطامه، لكننا نلاحظ أن الآية تذكر الكمال (عامين كاملين) وتذكر التمام (لمن أراد أن يتم) في موضوع واحد بعينه هو الرضاعة، مما يزرع الحيرة لأول وهلة في أيهما يقصد تعالى، لكن الانتباه إلى قوله سبحانه (لمن أراد) يبدّد كل حيرة لدى المتأمل. فعدة الرضاعة - أي الفترة الزمنية - كما قررها سبحانه في الآية حولان[1] (والحول هو السنة الشمسية لأن الأرض تدور حول الشمس مرة واحدة)، وقد أكد ذلك في قوله ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ (لقمان ١٤)، دون أن يشير إلى كمال أو تمام. هذان العامان إما أن يكونا كاملين، أي فيهما انقطاع، لمن أراد الكمال، وهذا كثيراً ما يحدث، أو أن يكونا مستمرين لا انقطاع فيهما لمن أراد التمام، والخيار متروك للوالدة المرضعة شرط ألا تتعدى فترة العامين - كاملين أو تامين -، لحكمة إلهية لم تكن واضحة في زمن نزول الآية. هي أن ذاكرة الطفل تبدأ في التكوّن عند بلوغه العامين من العمر، فيصعب فطامه بعدها من جهة، وتؤثر على استقلال شخصيته في المستقبل من جهة أخرى. وإن الرضاعة بعد السنتين لا

---

(١) آية البقرة ٢٣٣ من آيات الأحكام، فيها تكليف وأمر للوالدات بإرضاع أولادهن، رغم أن بناءها القواعدي لا يحوي فعل أمر في ظاهره. وقوله ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾ يعني (على الوالدات أن يرضعن) تماماً مثلما أن قوله ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ يوسف ٤٧ يعني (ازرعوا سبع سنين).

تولد أي حرمة بغض النظر عمن هي المرضعة أكانت الوالدة أم أيّ امرأة أخرى. لذا فحديث إرضاع الكبير يتعارض كلياً مع التنزيل الحكيم.

بعد هذا التفصيل والتوضيح في الفرق بين الكمال والتمام، أصبح من السهل فهم قوله تعالى ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وقوله ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ في آية المائدة ٣، واضعين في ذهننا أن:

الكمال ⟵ تمام متقطع.

التمام ⟵ كمال مستمر.

ونفهم أن الإسلام - كدين - لا يمكن أن يكون إلا كاملاً، أي متقطعاً وعلى فترات عبر الحقب الزمنية، وأن النعمة لا يمكن أن تكون إلا تامة، أي مستمرة عبر التاريخ كله بحقبه الزمنية.

يشير تعالى في الآية إلى أنه رضي الإسلام ديناً لعباده، بل لقد مضى إلى أبعد من ذلك. فأعلن في موضع آخر أنه لن يقبل غيره، فقال ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ...﴾ (آل عمران ٨٥). وقرر في موضع ثالث ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ...﴾ (آل عمران ١٩). لكن هذا الدين بشعائره ومثله العليا وتشريعاته لم يجئ دفعة واحدة، بل جاء على فترات زمنية متقطعة، بدأ بنوح ثم انقطع حتى جاء هود، ثم انقطع حتى صالح، وهكذا إلى أن اكتمل بمحمد مروراً بإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم أجمعين. وإذا انطبق هذا الانقطاع على الجانب الشعائري والتشريعي من الدين، وتنوّعت الملل، واختلفت الطقوس، فإن الجانب الأخلاقي منه بقي مستمراً متراكماً من رسالة لأخرى دون انقطاع لا كالشعائر والشرائع، الأمر الذي كان واضحاً في ذهن النبي العربي (ص) لقوله - إن صح -: «إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق». هناك إذاً - حسبما يقرره تعالى في تنزيله الحكيم - دين واحد هو الإسلام، رأسه الإيمان تسليماً بالله واليوم الآخر والعمل الصالح النافع للخلق، وهناك ملل وشرائع شتى، تدخل فيها ملة إبراهيم وملة نوح وملة موسى وعيسى والملة المحمدية،

وكلها ضمن دائرة واحدة هي الإسلام، إن توفرت فيها شروط الإسلام التي نصت عليها آية المائدة ٦٩. ومثال ذلك أصحاب التوراة المسلمون الذين قال فيهم تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ (المائدة ٤)[1]. ورغم أن العديد من أئمة التصوّف لا يستنكرون تعدد الملل، ويرون فيها «طرقاً» مختلفة في الشكل، تقود في المضمون - من حيث المحصلة - كلها إلى الله، إلا أن ما ساد لدى فقهاء الإسلام التاريخي من مسخ لعالمية هذا الدين وتقزيم لكونيته، حوَّل الإسلام إلى دين محلي، حين اعتبروا أن الملة المحمدية وحدها هي الإسلام وأن كل ما عداها في النار، فكفَّروا بذلك - عملياً وتطبيقياً عامدين أو غير عامدين - أنبياء ورسلاً لم يسمعوا بمحمد (ص)، يأمرهم تعالى - نظرياً - بالإيمان بهم دون تفريق أو تمييز بينهم كجزء لا يتجزأ من إيمانهم بنبوة محمد (ص) وتصديقهم برسالته، وكتتمة للإيمان بالله نفسه، في قوله عز من قائل ﴿... فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران ١٧٩) وفي قوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء ١٥٢).

نعود بعد هذا الاستطراد في التفريق إلى ما كنا فيه من تأمل في قوله تعالى ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ...﴾ (البقرة ١٩٦)، لنشرح الأمر الثاني الذي استوقفنا فيه، وهو التفريق لأول مرة بين الحج والعمرة، الذي يجده قارئ التنزيل الحكيم واضحاً لا لبس فيه في الآيات ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨ من سورة البقرة، إضافة إلى التفريق بين الوافدين والمقيمين في أحكام الإحرام. ونعني بالوافدين كل من جاء حاجاً أو معتمراً من خارج المربع الذي ترسمه المواقيت، سواء جاء من المدينة المنورة أو من دمشق أو من لندن أو من الرياض، ونعني بالمقيمين كل من كان

---

(١) لمزيد من التفصيل، انظر كتابنا الثالث **الإسلام والإيمان** ص ٣١ وما بعدها. ولا بد هنا من الإشارة - قبل أن يستغل المغرضون عبارتنا هذه كعادتهم - إلى أن توراة الهدى والنور في الآية لا علاقة لها بما بين أيدينا اليوم من عهد قديم يزعم أنه التوراة، ولا بالتلمود وملاحقه وشروحاته وتفاسيره والفقه المستنبط منه. فافهم هذا.

مقر سكنه داخل مكة، كأهل مكة وغيرهم، الذين يبدأ إحرامهم من مكان سكنهم.

مواقيت الإحرام من الجهات الأربع لمكة:

(١) – الجُحفَة: ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة المنورة، فإن هم مروا فميقاتهم ذو الحليفة. قرية كبيرة بينها وبين المدينة ست مراحل وبينها وبين مكة أربع مراحل.

(٢) ذو الحُلَيفَة: ميقات أهل المدينة، قرية تبعد سبعة أميال عن المدينة.

(٣) ذاتُ عِرْق: ميقات أهل العراق، الحد بين نجد وتهامة، أي بين الجبال والسهول.

(٤) يَلَمْلَم: ميقات أهل اليمن، جبل في الطائف على بعد ميلين من مكة.

(٥) قرن المنازل: ميقات أهل نجد، جبل صغير يبعد يوماً وليلة عن مكة من جهة الطائف.

(المرجع: معجم البلدان لياقوت الحموي)

ننتقل الآن إلى قوله تعالى ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ (البقرة ١٩٧)، لنقارنه بقوله تعالى ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ (البقرة ٢٠٣) وبقوله تعالى ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ (الحج ٢٨).

نبدأ بقوله تعالى في سورة البقرة الآية ١٩٧ ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ والإشارة واضحة في لفظة (معلومات) إلى الأشهر الحرم، وهي رجب، ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، في قوله تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ...﴾ (التوبة ٣٦). والإشارة واضحة أيضاً إلى أن هذه الأشهر الحرم معروفة ومعلومة ومشهورة عند العرب قبل البعثة المحمدية[1]. وهذا يقودنا إلى آية الحج ٢٨ وقوله تعالى ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾، فكما أن ثمة أشهراً معلومات هي الأشهر

(١) هناك من يعتبر أن الأشهر الحرم هي أربعة أشهر متتالية لا انقطاع فيها.

الحرم، كذلك هناك أيام معلومات معروفات ومشهورات هي الأيام التسعة الأولى من شهر ذي الحجة وآخرها يوم الوقوف بعرفة[1]. ولا يطعن في معلوميتها وشهرتها أنها لم تذكر بالنص في التنزيل الحكيم، فهي الموسم السنوي الأبرز عند أهل شبه الجزيرة العربية، وفيها كانت قريش تمارس دور المضيف في رفادة الحجاج وسقايتهم منذ عهد إبراهيم، بدليل أن الإشارة إلى هذه الأيام المعلومات وردت في سياق خطابه تعالى لإبراهيم ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ...﴾ (الحج ٢٧-٢٨) أي إن الأيام المعلومات بدأت منذ إبراهيم.

ثمة أيام معدودات تأتي في الترتيب القرآني بعد الأيام المعلومات هي التي تبدأ بالوقوف بمزدلفة وتنتهي بطواف الإفاضة، وهي التي لا إثم على الحاج إن تعجل بأداء ما بقي عليه من مناسك في يومين، ولا إثم عليه إن تأخر، حسب النص الحرفي لآية البقرة ٢٠٣، التي قد تكون في أي أيام من أيام الأشهر الحرم وليست حصراً في الأيام المعلومات كما سنبيّن ذلك لاحقاً.

تلك هي المصطلحات الزمانية التي وردت في كتاب الله تعالى حول الحج، نراها أشبه ما تكون بمرسوم تنظيمي، جاءت السنة الرسولية لتوضح عملياً ترتيب ما يجب أن يقوم به الحاج:

١ - الإحرام في الميقات، ولقد شرحنا مواقيت الإحرام سالفاً فلا نعيد.

٢ - دخول المسجد الحرام لطواف القدوم.

٣ - الانطلاق بعد صلاة الصبح من يوم التروية (الذي كان الثامن من ذي الحجة في حجة الرسول) إلى منى.

٤ - التوجّه بعد صلاة الصبح من يوم عرفة (الذي كان التاسع من ذي الحجة

(١) وهذه الأيام لا علاقة لها إطلاقاً بقوله تعالى ﴿وَٱلْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ (الفجر ١-٣) حيث إن هذه الآيات من القرآن (النبوة)، والحج من الأحكام (الرسالة).

في حجة الرسول) إلى جبل عرفة للصلاة والدعاء والوقوف على الصخرات حتى المغيب.

٥ - التوجه بعد غروب الشمس من عرفة إلى مزدلفة حتى فجر يوم النحر.

٦ - جمع الحصى للرمي بعد صلاة الصبح في مزدلفة.

٧ - رمي الجمرات، وذبح الهدي، والحلق أو التقصير.

٨ - التوجه إلى مكة بعد الحلق للطواف والسعي.

إننا بالتأكيد لسنا بصدد ضبط أداء المناسك والشعائر في الحج، والرخص فيها، وأحكام مخالفة بعضها عمداً أو بغير عمد، وما يجب فيه التكفير بأضحية وما لا يجب فيه، لكننا نتساءل بحيرة: إن كانت هذه الأركان والأعمال لا تحتاج إلى أكثر من أيام معدودات، وإن كان الحج عملياً عند الرسول (ص) كما ورد في حديث رواه الحاكم في مستدركه وأحمد في مسنده عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي - إن صح - هو الوقوف بعرفة يوم التاسع من ذي الحجة، رغم أن هذا الحديث غير موجود في الصحيحين، فما المقصود من قوله تعالى ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ (البقرة ١٩٧)؟ والجواب: إن الآية تتحدث عن الحج عموماً بنوعيه: الحج، والحج الأصغر أي العمرة[1] في الأشهر الحرم، أما تخصيص الحج بالوقوف بعرفة يوم التاسع من ذي الحجة فهو من القصص المحمدي، فسنوضح ذلك بعد أن نبيّن أنواع القصد لبيت الله. حيث لدينا ثلاث حالات:

الحالة الأولى: الحج ويتم فيه أداء الشعائر في أي (أيام معدودات) من الأشهر الحرم، وفيه الوقوف بعرفات في أي يوم من أيام الأشهر الحرم لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ (البقرة ١٩٧)، ومنه المفرد وهو الحج فقط، وفيه القارن وهو إحرام العمرة والحج معاً، وفيه التمتع حيث يمكن أن تكون العمرة (الحج الأصغر) مع الحج.

---

(١) ما زال بيننا إلى اليوم من يخلط بين العمرة، أي الحج الأصغر، والزيارة وهي العمرة خارج الأشهر الحرم. ومازال البعض يزعم أن زيارة المسجد الحرام في رمضان هي عمرة تجزئ عن حجة، وهذا ليس عندنا بشيء.

الحالة الثانية: الحج الأصغر وهو ما نسمّيه العمرة مفردة في الأشهر الحرم.

الحالة الثالثة: العمرة فقط وهي القدوم إلى البيت العتيق والطواف والسعي فيه في باقي الأشهر، فهي لا حج ولا حج أصغر، وإنما هي عمرة، حتى ولو كانت في رمضان.

وعندما نتأمل التنزيل الحكيم نجده يضع تسهيلات للمؤمنين في حياتهم، وفي أدائهم لكل الشعائر، فمثلاً نجده في رمضان يجعل رخصة الإفطار لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة ١٨٥)، ولكن هذا التيسير لا نراه موجوداً في الحج، مع أنه بيّن في الآية السالفة الذكر الخاصة بالصوم عند تقديم الرخصة أن الغرض منها هو التسهيل على الناس في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، فهل التيسير موجود في الصيام دون الحج؟ طبعاً لا فالتيسير في هذه الآية مقصود به التسهيل على الناس في كل الشعائر وفي كل نواحي حياتهم، لأن هذه هي الغاية من الدين لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة ٢٨٦)، لهذا طلب الله من الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً.. لكن النبي (ص) حج في الأيام العشرة من ذي الحجة، وصار المؤمنون بعده من أمته يحجون في هذه الأيام حصراً، ما جعل الزحام شديداً في موسم الحج المتعارف عليه إلى يومنا هذا، حتى صار أداء مناسك الحج عسيراً جداً على الحجاج، لتوافدهم جميعاً على نفس المكان لأداء نفس المناسك في نفس الوقت، ونحن نتساءل عما سيؤول إليه الوضع في العهود والقرون المقبلة رغم التوسعات التي تقوم بها السلطات السعودية والإجراءات التي تتخذ سنوياً للحد من هذه المعاناة التي ستظل قائمة وستزداد مع الأعوام، إذا لم نتمكن من إيجاد حل عملي يتوافق مع المقصود الإلهي في التيسير على الناس؟

ولو راجعنا كتب الروايات وكتب الفقه لوجدناها تحرص وتؤكد على الحج في هذه الأيام المعلومات فقط، فآل الوضع إلى ما آل إليه اليوم من زحام

ومعاناة، كما نجد ذلك في التفسير الكبير للفخر الرازي (ج٥ ص١٥١) في قوله: «اعلم أن أهل الجاهلية كانوا قد غيّروا مناسك الحج عن سنة إبراهيم (ع)»، وهذا صحيح لأن الحمس من قريش، وهم جماعة من المتشددين كانوا لا يقفون في عرفة، وآخرون من أصحاب التجارات كانوا يؤخرون حرمة شهر إلى شهر آخر ليست له تلك الحرمة حرصاً على مرابحهم وتجاراتهم، فقال فيهم تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ...﴾ (التوبة ٣٧). والمتأمل في البعثة المحمدية يجد أنها جاءت عموماً لتعيد إلى السنة الإبراهيمية أصلها الأول دون تحريف، وأن الوحي الإلهي نزل على قلب النبي العربي (ص) يأمره باتباع ملة إبراهيم بدلالة قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل ١٢٤)، ويأمره مع أصحابه المؤمنين به بالتأسّي بإبراهيم في منهجه الاستقرائي الذي جعله الله بفضله إماماً للناس بدلالة قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ...﴾ (الممتحنة ٤). ومن هنا فإبراهيم عندنا ليس «أبا الضيفان» و«أبا الأنبياء» كما يقول التراث، وليس «أبا الإسلام» كما يقول التنزيل الحكيم فحسب، بل هو «أبو الهجرة إلى الله» و«أبو المنهج التجريبي» و«أبو الحنيفية» و«أبو الصلاة والحج» أيضاً.

لكن ألا يبدو هذا الكلام متناقضاً مع ما جاء في التنزيل أيضاً بخصوص الحج، فكيف يطلب منه الله عز وجل من جهة اتباع ملة إبراهيم في الحج في الأيام المعلومات فقط كما فهم الفقهاء التراثيون ذلك لما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ (الحج ٢٧-٢٨)، ثم يفسح له من جهة أخرى، مجال الحج إلى أربعة أشهر في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ (البقرة ١٩٧)، ألا يبدو التناقض صارخاً بين الحالتين؟

لإزالة هذا التناقض، يجب علينا مقاربة قوله تعالى في الحالتين بالتطرق إلى آيتي الحج ٢٧ و٢٨ بالتوضيح والشرح.

- الأذان هو الإعلام والإبلاغ والدعوة، وكلمة (وأذن) فعل أمر مجزوم على الطلب. والآمر هنا هو الله تعالى والمأمور هو الرسول (ص) باتباع سنة إبراهيم في الحج في أيام معلومات، وأما من زعم أن نزول الآية هو ابتداء فرض الحج من الله تعالى للرسول (ص) حسب تعبير الرازي في تفسيره فهو عندنا زعم لأنه إما صاحبه يجهل أو ينكر بكل وقاحة وجود طائفين وعاكفين وركع سجود في البيت العتيق المحرم قبل العصر النبوي، بل هو أمر فيه طلب إحياء سنة إبراهيم.

- المعني بالدعوة إلى الحج في الآية هم الناس. فمن هم هؤلاء الناس؟ ولماذا اتسع التكليف بهذا الركن الخامس بالذات حتى شمل جميع الناس؟

- النون والألف والسين اسم جنس بصيغة الجمع مفرده إنسان، وأصله: إنس وأُناس وأناسي، وردت جميعها في ٣٢٩ موضعاً من التنزيل الحكيم. إلا أن أهل اللسان انقسموا في دلالتها إلى ثلاثة أقسام: أما أهل القسم الأول فاعتبروا أن الإنسان مشتق من النسيان وإنما سُمي الإنسان إنساناً لأنه عاهد فنسي، بدلالة قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ (طه ١١٥). يقول أبو الفتح البستي في هذا المعنى:

يا أكثر الناس إحساناً إلى الناس ... وأكثر الناس إفضالاً على الناس
نسيتُ عهدك والنسيان مغتفر ... فاغفر فأول ناس أول الناس

وأما أهل القسم الثاني فاعتبروا أن الإنسان مشتق من الأُنس وهو نقيض الوحشة والنفور، ذكره تعالى بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا...﴾ (النور ٢٧). ومن هذا المعنى ميزوا بين الحيوانات البرية والحيوانات المستأنسة، وبهذا المعنى قال الشاعر الناقم على صحبة الناس:

عوى الذئب فاستأنستُ بالذئب إذ عوى
وصوَّتَ إنسان فكدت أطيرُ

وأما أهل القسم الثالث فاعتبروا أن الإنسان مشتق من المؤانسة وهي الرؤية المقرونة بارتياح وطمأنينة، بدلالة قول موسى لقومه ﴿. . . إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ (طه ١٠). ومن هنا سمي الإنسان إنساناً لإمكان رؤيته وسُمي الجن جناً لاختفائه.

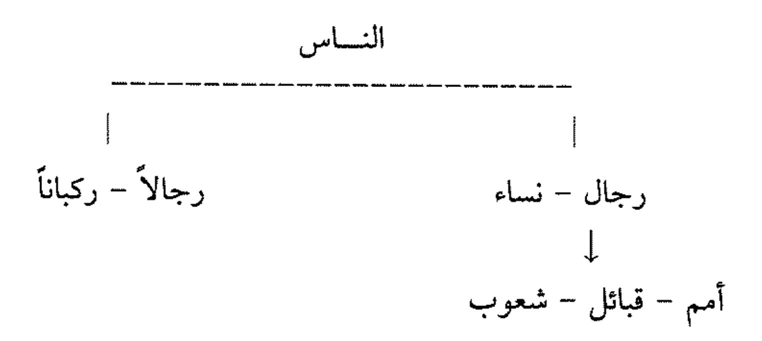
أما عندنا، فهذه التعاريف للناس والإنسان - رغم صحتها - لا تفيدنا في فهم آية الحج ٢٧، إن لم ننتبه إلى جملة من العلوم والمعارف استقرت أسسها في العصور الحديثة لم يكن أهل التراث يعرفون عنها شيئاً في زمانهم، كعلوم الاجتماع والإحصاء التي تضع تعاريفها وتصانيفها في ضوء علم حديث فرعي هو علم المجموعات والزمر والعناصر.

إننا نفهم بفضل هذه العلوم اليوم لماذا لا نجد في كتاب الله تعالى عبارة من مثل «يا أيها الخلق» أو من مثل «يا أيها البشر»، والجواب: لأن الخطاب بالأصل لا يكون إلا للعاقل. والخلق اسم عام لمجموعة كبرى تضم الحيوان والنبات والجماد وهذه لا يجوز عقلاً توجيه الخطاب إليها[١]. والبشر اسم عام لمجموعة أصغر تفرعت من مجموعة الخلق تضم بشراً يدبون على أربع ثم على اثنتين لم تصلهم نفخة الروح الإلهية بعد، أي ليس لديهم عقل ولا لب، وهؤلاء أيضاً لا يجوز عقلاً توجيه الخطاب إليهم.

أما الناس فهم البشر العقلاء بعد نفخة الروح:

---

(١) قد يصيح بنا مستنكر: فأين أنت من قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ (فُصّلت ١١)؟ نقول: الخطاب هنا لسان حال وليس لسان مقال، والقول هنا على وجه المجاز لا على وجه الحقيقة، وإلا لزم أن يكون للأرض أذن ولسان وفؤاد، وهذا لا يقول به عاقل.



إن النظر في الشكل السابق يعين على فهم جملة من آيات التنزيل الحكيم، منها قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ . . .﴾ (الحجرات ١٣). الذي يوضح كيف تتوالد المجموعات وتتفرع من مجموعة كبرى هي الخلق وتتألف من عنصرين أساسيين هما الذكر والأنثى موجودين تكوينياً في كل أنواع الخلق من حيوان ونبات، الغاية منهما التكاثر للحفاظ على النوع. ويبيّن أن الميل البشري للعيش في مجتمعات (أمم وأقوام، قبائل وشعوب) هو أيضاً ميل فطري هدفه التعارف والعيش المشترك.

والتأمل في الشكل السابق يساعد على فهم قوله تعالى ﴿. . . وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . . .﴾ (آل عمران ٩٧)، الذي يبيّن أن حج بيت الله الحرام، سواء أكان حجاً أم عمرةً في الأشهر الحرم (حج أصغر) أو عمرة زيارة في بقية الأشهر، وسواء أكان التوجه فيه حقيقياً مشخصاً في الحج أم مجازياً مجرداً كما في الصلاة، هو تكليف إلهي للعقلاء من الخلق، أي الناس. تماماً كما يساعد على فهم آية الحج ٢٧ التي نحن بصددها وخصوصاً قوله تعالى ﴿. . . يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾. فقوله (رجالاً) يشير إلى أمرين: الأول أن الآتين هم من الذكور العاقلين البالغين الراشدين، والثاني أنهم يأتونك راجلين. وقوله (يأتين) يشير أيضاً إلى أمرين: الأول أن الآتيات هن من الإناث العاقلات البالغات الراشدات بدلالة نون النسوة، والثاني أنهن يأتين راكبات على الدواب المخصصة للركوب من جمال وبغال

وحمير وخيول أهزلها السفر بدلالة قوله (وعلى كل ضامر). علماً بأن الرجال فيهم الذكور والإناث، والنساء فيهم الذكور والإناث، ونفهم ذلك حسب سياق الآية: إما رجال فيهم ذكور وإناث، أو رجال هم أزواج النساء. وكل من لم يستطع أن يطوف ويسعى مترجلاً ذكراً كان أو أنثى فقد سقط عنه الحج لسبب صحي، أي فقد الاستطاعة الجسدية.

إننا في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وقد طحنتنا الحروب الساخنة والحروب الباردة، ومزقتنا الصراعات الدموية الدينية والطائفية والمذهبية والعرقية، نودع عشرين قرناً انقضت على مولد السيد المسيح (ع) وأربعة عشر قرناً ونيفاً على مولد النبي العربي محمد (ص)، غارقين في أمواج العصبيات العرقية والعشائرية والقومية، يصيبنا الذهول ونحن نفتح كتاب الله تعالى لنقرأ قصة رسول اسمه إبراهيم عاش قبل ستين قرناً من الآن على الأقل، في عصر يطبعه التشخيص والتجسيد في الفكر والطغيان والاستبداد في الحكم، يبحث عن ربه بين الكواكب والنجوم، ويفتش عن بيت ربه المحرم بين الجبال والأودية ثم يجدهما بعد رحلتين طويلتين أولاهما رحلة نظر والثانية رحلة سفر، ويقف بعدهما يدعو إلى عبادة إله واحد أحد، إله مجرد لا يُرى ولا يُلمس ولا يُشم، ويدعو للتوجّه إليه في بيت محرم بوادٍ غير ذي زرع عند بلدة شحيحة بالثمر والشجر هي بكة. ولا يخرج في هذا كله - من حيث الشكل العام - عما دعا إليه الرسل والأنبياء الذين سبقوه وأولهم نوح، والذين جاؤوا بعده وخاتمهم محمد (ص). المذهل أن هؤلاء جميعاً جاؤوا لأهلهم وعشيرتهم وقومهم إلا إبراهيم الذي استهدف في دعوته «الناس» لأول مرة في تاريخ الرسل والأنبياء لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾ (البقرة ١٢٤). بعبارة أخرى: المذهل عند إبراهيم هو تلك النكهة الأممية الإنسانية السابقة لعصرها التي لا نجد لها مثيلاً إلا عند حفيده محمد بن عبد الله (ص) في قوله تعالى عنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧)، وفي قوله عن نفسه ﴿... يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾

(الأعراف ١٥٨)، وكذلك في الآيتين محل الشرح ٢٧ و٢٨ من سورة الحج في قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ...﴾. والمتأمل للآيتين يدرك أنهما تتضمنان أمراً للرسول (ص) بالأذان للحج، لأنه طلب منه أن يدعو الناس إلى الحج في «أيام معلومات»، وهذه الأيام معلومات كما ورد ذكرها في الآية كانت معروفة قبل البعثة لهذا قال له: (في أيام معلومات)، وهي التي كان يحج فيها الناس على عهد إبراهيم كما رأينا. وهذا يبيّن أن الأمر الوارد في الآيتين لم يكن من الممكن أبداً أن يكون المقصود به هو إبراهيم في أي حال من الأحوال، لأنه في هذه الحالة ستصبح معرفة (الأيام المعلومات) مبهمة، لأن الآية تدعو إلى الحج في أيام معلومات حيث كانت هذه الأيام معروفة قبل إبراهيم لو كان الأمر في آية الأذان موجهاً له؟

وهذا يبيّن، دون أن يدع مجالاً للشك، أن الأمر صدر للنبي (ص) لأنه هنا يتحدث عن الأيام المعلومات التي كانت معروفة قبله أي على عهد إبراهيم، ثم طلب الله منه إتباعه بالأذان في الناس بالحج في هذه الأيام، فعلى هذا النحو فقط يستقيم معنى الآيتين، وما يؤكد أيضاً أن الأمر بالأذان في الناس موجّه إلى الرسول (ص) ما جاء في قوله في سورة الحج نفسها في الآيتين ٢٩ و٣٠ أي بعد الآيتين ٢٧ و٢٨ محل الدراسة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ * ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾.

إن هاتين الآيتين جاءتا بعد أن طلب من الرسول الأذان في الناس بالحج، لبيان ما على الحجاج من الناس تقديمه لله من أضحيات، بقوله: (وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم)، هذا الجزء من الآية هو الشاهد الذي نستدل به لبيان أن الأمر بالأذان جاء للرسول محمد (ص) لا لإبراهيم، لأن يبيّن لهم ما أحل

لهم من الأنعام لتقديمه كأضحية بأنها كلها حلال إلا ما حُرّم بالنص في التنزيل الحكيم لهذا قال لهم: (إلا ما يتلى عليهم)، وكما هو معروف فإنه على عهد إبراهيم لم يكن قد ورد بعد التحليل والتحريم في الأطعمة، بل جاء ذلك في ما بعد على عهد بني إسرائيل مع موسى وعيسى ثم على عهد الرسول (ص) بعد ذلك، وهذا يبيّن أن الخطاب وجّه له لا لغيره بالأذان للناس بالحج الوارد في الآية ٢٧ من سورة الحج.

لكن هنا يجب علينا الوقوف وقفة تأمل في الآيتين ٢٧ و٢٨ من سورة الحج، ومعرفة ما إذا كان المقصود فيهما بالناس كل الناس إلى يوم الدين، أم فقط من كان في عهد الرسول (ص)؟ لمعرفة ذلك يجب علينا التنقيب أكثر في الآية ٢٧ لندرك أن الخطاب في هذه الآية يخص فقط الناس على عهد الرسول (ص) أي ممن عاصره، لأن فعل (يأتوك) دليل ظرفية زمانية ومكانية، فهو فعل يستدعي وجود طرفين: الأول مستقبل والثاني قادم، ولو تأمّلنا كل آيات التنزيل الحكيم التي ورد فيها هذا الفعل على كثرتها لوجدناها تدخل في هذا المضمار، ونعرض بعضاً منها هنا للتدليل فقط:

- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ (البقرة ٢١٠).

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة ٢٤٨).

- ﴿. . . قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة ٢٦٠).

- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ (الأنعام ١٥٨).

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ (الأعراف ٣٥).
- ﴿. . . وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ (الحشر ٧).

عند تأمّل هذه الآيات وغيرها كثير في التنزيل الحكيم، ندرك أنه عندما يرد فعل (يأتي) يستدعي ذلك وجود طرفين اثنين في الأمر: طرف قادم وطرف مستقبل له، وآية الحج ٢٧ التي طلب فيها الله من النبي (ص) أن يؤذن في الناس بالحج ليأتوه، إنما كانت نداءً لمن عاصروه، ولم تكن أمراً مطلقاً للناس إلى يوم الدين، فذلك غير معقول، إذ كيف يمكنهم أن يأتوه بعد وفاته؟ لكن مع الأسف هذا هو الفهم الخاطئ لدى أغلب الناس بتوجههم في الحج أو العمرة لزيارة قبر النبي (ص)، علماً بأن هذه الزيارة لا تدخل ضمن مناسك الحج أو العمرة، ولو كان الأمر من الله للناس بالقدوم للرسول في حياته معقولاً فإن الأمر بالقدوم إليه بعد مماته غير معقول ويتعارض مع التنزيل الحكيم في عدة مواضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر ٣٠)، إذ كيف يطلب الله من الناس القدوم على ميت؟ لذلك نرى أن هذه الآية من القصص المحمدي، ونزلت على النبي (ص) بأمر إلزامي ظرفي (زماني- مكاني) بالأذان في الناس للقدوم إليه، في الأيام المعلومات التي كان يحج فيها الناس على عهد إبراهيم (ع)، ونرى أن الله طلب منه (ص) دعوة جميع الناس للحج في هذه الأيام المعلومات، دون أن يجعل الحج في هذه الأيام إلزاماً، ليبيّن أن الحج شعيرة إنسانية، وليس شعيرة خاصة بالأمة المحمدية فقط، حيث تم الأذان للناس جميعاً في الأيام التي كان يحج فيها الناس جميعاً على عهد إبراهيم. فكانت تلك دعوة عامة في الحجة الوحيدة التي حجها النبي (ص) في حياته، فكانت بمثابة موعد لتجمهر إنساني حافل، وحدث إنساني هز المنطقة يومها في الأيام العشرة الأولى من شهر ذي الحجة، وكان اجتماعاً ذا طابع سياسي لبيان شوكة الدولة الحديثة النشأة وقوتها لفرض هيبتها

على المستوى الخارجي، بالإضافة إلى كونه اجتماعاً دينياً شعائرياً، كما نرى أنه كان كذلك موعداً لختم الرسالة المحمدية بدليل خطبة الوداع التي تناقلها التراث دون أن يعطيها حقها في التحليل لبيان عالمية الرسالة المحمدية لأنه رسول الله إلى الناس جميعاً، فكان منطقياً أن يدعوهم جميعاً ليقيم عليهم الحجة بأنه قد أبلغهم رسالته لأن الأذان هو الإبلاغ والإعلام، وما الفائدة من الأذان فيهم أي دعوتهم للحضور في هذا المحفل الإنساني لو لم يكن القصد منه تبليغهم رسالة معينة، فيصبح مصطلح (أذّن) الوارد في الآية في غير محله، وحاشا لله أن يضع مفردة دون أن تكون ذات معنى دقيق تقصده، إذ لم لو يكن القصد بالأذان لإبلاغهم بشيء فما كانت الفائدة في تجميع الناس في تلك الأيام؟ وهذا ما يرجح عندنا فكرة أنه قد تم جمع الناس من الرسول (ص) يومها لإقامة الحجة عليهم في ختم الرسالة المحمدية، خاصة أن حجة الوداع تمت قبل ثلاثة أشهر من وفاته، لأنها كانت في شهر ذي الحجة سنة ١٠هـ ووفاته (ص) حسبما قدرها المؤرخون كانت في ربيع الأول من سنة ١١هـ، لهذا كان الإبلاغ موجهاً للناس جميعاً ولو كان مخصوصاً بالمؤمنين من أمته لكان قال له (وأذن في المؤمنين يأتوك)، ولأصبحت رسالته محلية لقومه فقط، ولكن بما أنه خاتم الأنبياء والمرسلين ورسالته جاءت عالمية فكان الأجدر أن يتم ختمها عالمياً أيضاً، واختيرت هذه الأيام لأنها الأيام التي كانت تحج فيها كل الملل منذ عهد إبراهيم إلى عهد الرسول حيث حُدّد هذا اللقاء الإنساني الهام فيها للإبلاغ عن ختم الوحي في هذه الأيام المعلومات دون إلزام بأن يكون الحج فيها دون غيرها لأن الآيتين ٢٧ و٢٨ من سورة الحج هما من القصص المحمدي، وهي للعبرة وليس فيها أي إلزام تشريعي أو شعائري بحصر أداء مناسك الحج في الأيام العشرة الأولى من شهر ذي الحجة، ولا يمكن أن يكون ذلك لأن نفس الذي أمر بالأذان في الناس للحج في هذه الأيام وهو الله تعالى، هو نفسه الذي جعل مجاله مفتوحاً وممتداً لأربعة أشهر هي الأشهر الحرم لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ...﴾

(البقرة ١٩٧)، ولا يمكن أن يناقض نفسه في كلامه، تعالى الله وتنزّه عن ذلك، لهذا فالحج كشعيرة يمكن أن يكون في أي أيام معدودات من الأشهر الأربعة الحرم كما بيّناه، أي إن أي يوم من الأشهر الحرم يمكن أن يكون يوم عرفة، وأي يوم من الأشهر الحرم يمكن أن يكون يوم النحر، كذلك أيام التشريق. وطبقاً للتاريخ الهجري الحالي فإن الأشهر الحرم وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم تأتي متتالية، وشهر منفرد وحده هو الشهر السابع رجب.

وليتضح الأمر أكثر علينا أن نتطرق بالشرح والتحليل إلى أذان آخر ورد في التنزيل الحكيم في قوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة ٣)، بتوضيح المعنى الصحيح منه. ففي هذه الآية ورد أذان من الله ورسوله إلى الناس جميعاً ببراءتهما من المشركين، وبناءً على ذلك فإن هذا الأذان يعد بمثابة مرسوم يتضمّن الإعلان الرسمي للمشركين، وجاء هذا الإعلان في (يوم الحج الأكبر)، الذي ترجعه كتب التراث إلى اليوم العاشر من ذي الحجة والذي يسمّى عندهم يوم النحر، ونحن لا ندري من أين جاؤوا بهذا المعنى الذي يتناقض تماماً مع معنى الآية ومع سياق السورة التي وردت فيها ألا وهي سورة التوبة التي هي من القصص المحمدي وأحادية الموضوع، حيث تناولت موضوع القتال حصراً، كما بيّنا ذلك في كتابنا الأول[1]، ولا علاقة لها بالحج كشعيرة، بل هو يتحدث في هذه الآية عن القدوم والقصد للقتال لا لأداء مناسك الحج، فالآية تتوجّه بالخطاب إلى الناس في بلاغ رسمي من الله ورسوله ببراءتهما من المشركين، ولو كانت الآية تتحدث عن الحج كشعيرة وعن الوقوف بعرفة كما سمّاه الفقهاء

(١) تم التطرق لموضوع سورة التوبة، وكونها من القصص المحمدي وأحادية الموضوع الذي هو موضوع القتال في النسخة المنقحة التي نُشرت أخيراً (سنة ٢٠١١) بعنوان **الكتاب والقرآن رؤية جديدة**.

الحج الأكبر، فما علاقة ذلك بالقتال والحرب، ويعطيهم فرصة لمراجعة أنفسهم بالتوبة والإنابة إلى الله، أما من استمر في عناده وأصر على القتال فهو يبشره بعذاب أليم، كما جاء في الآية التي وردت بعدها وهي مرتبطة بها ولا يمكن فصلهما إطلاقاً وهي قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة ٤). فهذه الآية تبيّن أن التي قبلها إنما جاءت في يوم اللقاء للقتال الذي وقع في غزوة تبوك، حيث وقعت هذه الغزوة في شهر رجب من السنة ٩ هـ وهو شهر من الأشهر الحرم، لهذا جاء في الآية ٤ من سورة التوبة قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة ٥). فسورة التوبة سورة تناولت موضوع القتال، وسمّى الله يوم اللقاء للقتال بالحج الأكبر لأنه وقع في أحد الأشهر الحرم التي يقصد فيها الناس بيت الله للعبادة والإنابة، ولكن في هذه المرة كان توجّه المؤمنين في هذا الشهر الحرام لغاية أعظم هي القتال في سبيله، وليلاحظ القارئ الكريم هذه المقاربة الخطيرة التي وردت في هذه التسمية (الحج الأكبر)، ففي الحج تقدّم الأضحيات قرباناً لله، أما في هذا اليوم فقد قدم المؤمنون أنفسهم قرباناً لله بالقتال في سبيله، وتلك أكبر تضحية يقدّمها الإنسان، لهذا سمّاها الله (يوم الحج الأكبر)، وقد حدث مرة واحدة في عهد الرسول وكان في غزوة تبوك ولا يمكن تكراره أبداً لأنه حدث تاريخي، والعبرة المأخوذة منه هي أن الذين خرجوا في الشوارع متحدّين آلة القمع عراة الصدور هم من قاموا بالحج الأكبر في أيامنا وإلى أن تقوم الساعة. وعلى هذا الأساس فتسمية يوم الوقوف بعرفة «حجاً أكبر» تسمية خاطئة وتظهر إلى أي مدى لم يتمكن التراث من الغور في أعماق التنزيل الحكيم وفهمه دون تناقض، لأن هذه التسمية خاصة بيوم القتال في غزوة تبوك، أما الحج كشعيرة فيمكن أداؤه في الأشهرالأربعة الحرم دون تفضيل أيام على

أيام، لأنه كما جرت فيه التوسعة في المكان جرت فيه التوسعة في الزمان أيضاً ممتداً إلى أربعة أشهر، في أيام معدودات خلال هذه الأشهر، لا في أيام معلومات كما جاء في التراث، ولا يمكن التيسير على الناس خلال أدائهم مناسك الحج إلا بالتوجه للقراءة المعاصرة للحج، لأن الإسلام دين يسر لا دين عسر، لكن الفقه هو الذي حصره في خريطة شبه الجزيرة العربية، وجعله محلياً، وخلط بين الشعائر والتشريعات الإلهية، وبين القصص المحمدي والمرويات الظرفية، فضيّقوا على الناس دينهم وجعلوه عسيراً عليهم، حتى أصبح الحاج عند توجّهه إلى الحج يذهب بنية اللاعودة لشدة الزحام والمشقة التي يدرك مسبقاً أنه ملاقيها للاكتظاظ الشديد للملايين من الناس في ذات الأمكنة وذات الأزمنة، فهل هذا هو دين التيسير؟ وكيف يفرض الله على الناس أمراً يعجزون عن القيام به؟ الدين الإسلامي بريء من ذلك، والله ورسوله بريئان من ذلك كبراءتهما من المشركين، فمتى نستفيق من غفلة اتباع الفقه الموروث دون إعادة دراسة تنقيحية له في ظل التنزيل الحكيم؟

إن الإسلام دين إنساني عالمي، دعوة جاء بها إبراهيم (ع) لأول مرة، وختمها محمد (ص) آخر مرة في محفل إنساني ضخم يشهد له التاريخ. وما دمنا مع قصة إبراهيم فلنرجع إليها لنتساءل باستغراب متزايد:

- أين ولماذا اختفى ذلك الوهج الإنساني في رسالة إبراهيم؟ ولماذا عادت رسالتا موسى وعيسى لتنحصرا في فئة بعينها من الناس هي بنو إسرائيل؟

- ولماذا تراجع التجريد الذي بدأ بإبراهيم ليفسح الطريق أمام تشخيص تجسيدي نجد معه قوم موسى لا يؤمنون حتى يروا الله جهرة؟ ونجد معه حواريّي عيسى لا يطمئنون في إيمانهم إلا إذا نزّل الله عليهم مائدة من السماء؟

- متى بدأ تحوّل الناس عن بيت الله المحرم في توجّههم وتوبتهم واستغفارهم وقرابينهم إلى أمكنة أخرى؟ ومتى بدأوا يشركون مع الكعبة معالم أخرى - شاعت بين العوام - يزعمون أن الحج لا يتم إلا بها.

وبما أن الحديث عن الحج وعن المسجد الحرام، وعن بيان أنه شعيرة إنسانية، وليس خاصاً بالأمة المحمدية فقط، فكما أن للأمم الأخرى طرق صوم وصلاة خاصة بهم ومختلفة عن طريقة صوم وصلاة الأمة المحمدية، فللأمم الأخرى كذلك مناسك حج خاصة بهم تختلف عن مناسك المؤمنين من أمة محمد، لهذا قال الله عز وجل في محكم تنزيله: (ولكلّ أمّة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشّر المخبتين) الحج ٣٤. وبما أن الحج كشعيرة يُقصد لأدائها بيت الله الحرام، فلهذا جعل الأذان والدعوة لأدائه للناس جميعاً لا للأمة المحمدية فقط، على أن يقدم كل القربان حسبما تدعوه إليه ملّته مع توحيد لله في ذلك وعدم الشرك به، لأن الدين الإسلامي عالمي، وهنا يجب علينا الوقوف عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ٢٨).

هذه الآية جاءت في سورة التوبة، وقد اعتُمد عليها كمرجع لمنع كل أهل الأرض، ما عدا أتباع الرسالة المحمدية، من دخول مكة ومنطقة الحرم على أساس أنهم نجس، فهل هذا منطق مقبول؟ هل يعقل أن يكون ٨٠٪ من سكان الأرض نجساً والباقي ناساً وهم أتباع الرسالة المحمدية ويمثلون نسبة ٢٠٪ من سكان الأرض؟؟؟

يجب أن نضع النقاط على الحروف بالنسبة لهذه الآية الواردة في سورة التوبة كما يلي:

قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ٢٨).

الشرك ليس صفة لصيقة بصاحبها على الدوام بل هي حالة اعتقادية فقط

بالنسبة للشرك وقد تتحول إلى حالة سلوكية تسمّى الكفر في حال التعبير عنها بالمقال أو الفعل، وبالتالي فإن كلتا هاتين الصفتين متغيّرة إذا تغيّر الموقف الاعتقادي للإنسان، فقد يكون الإنسان مشركاً أو كافراً ثم يتحول إلى التوحيد فتنتفي عنه صفة الشرك أو الكفر، كما أن مفهوم الشرك كما رأينا ليس ثابتاً لأن المشركين على عهد الرسول كانوا عبدة الأصنام، أما في عصرنا فهذه الظاهرة ليست منتشرة، وذلك لأن تطوّر الوعي الإنساني مكن الإنسانية من الانتقال تدريجاً من عبادة الأصنام والتقرب إلى الله بواسطتها إلى مرحلة التجريد (توحيد الله الذي ليس كمثله شيء)، لذا فإن هذه الصفة سارت إلى طريق الانقراض على نحو واسع، وهذا ما يستوجب علينا نحن كأمة محمدية عدم إلصاق تهمة الشرك والكفر بالغير من أهل الملل الأخرى جزافاً لأن الله وحده فقط يعلم بالسرائر وما تخفي الأنفس، وبالتالي يحسن بنا التنزّه عن نعت كل أهل الملل الدينية الأخرى بهذه الصفة وتركيب أحكام شرعية بناءً عليها عن طريق التقوّل على الله.

ولتوضيح هذه المسألة علينا إعادة قراءة الآية ٢٨ من سورة التوبة قراءة معاصرة، الواردة في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ٢٨)، التي يعتمد عليها الفقهاء في إلصاق صفة الشرك بكل من هم ليسوا أتباعاً للرسالة المحمدية بمن فيهم أهل الكتاب، والحكم عليهم بناءً على ذلك بالنجاسة، وتحريم دخول منطقة المسجد الحرام عليهم، وفي ذلك تقوّل على الله بغير علم، خاصة أن هؤلاء يمثلون حوالى ٨٠٪ من سكان المعمورة، علماً بأن التنزيل الحكيم قد فرّق بين أهل الكتاب والمشركين في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ (البينة ١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ (البينة ٦). وهنا (الذين كفروا من أهل الكتاب) هم من اتخذ موقفاً عدائياً علنياً

ضد الدعوة المحمدية وهم في هذه الحالة اليهود لذا قال (من أهل الكتاب) وليس كل أهل الكتاب.

ولذلك فالأجدر بنا أن نشرح ما جاء في هذه الآية من خلال السورة التي جاءت فيها لإزالة الغموض واللبس الحاصلين حولها.

سورة التوبة كما ذكرنا سابقاً من القصص المحمدي، وهو عبارة عن حدث تاريخي صار قرآناً بعد حدوثه لا قبله، لذا فإن هذه السورة لا علاقة لها بالإنزال الذي حدث في ليلة القدر، لأنها كانت أخباراً بالنسبة لأهلها أما بالنسبة لنا فقد صارت أنباءً، ومن هذا المنطلق فهي ليست من الرسالة ولا تحمل أيّ أحكام تشريعية، والطريقة العلمية المثلى لإعادة قراءة هذه السورة هي النظر إليها نظرة تاريخية كباقي القصص القرآني لاستخلاص العبر منها فقط لا لاستنتاج أحكام تشريعية، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هذه السورة تحديداً قد وصفها الله عز وجل بالسورة المحكمة أي السورة الأحادية الموضوع، وموضوعها جاء خاصاً بالقتال والقضايا المتعلقة به حصراً، وبالتالي لا يمكن أن نفهم الآية محل الدراسة إلا من خلال سورتها لوحدة موضوعها. فالآية تقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فهل المقصود بهم كل المؤمنين من أمة محمد عبر كل العصور المتعاقبة كما يظن الفقهاء؟ طبعاً لا، لأنه يقصد بهم المؤمنون الذين عاصروا النبي في الفترة التي نزلت فيها هذه السورة، لذا فإن الخطاب موجّه إلى فئة معيّنة ومخصوصة تاريخياً وهم أتباع محمد في تلك الحقبة الزمنية، وينتج عن ذلك أن قوله في الآية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، لا يُقصد به مشركو كل الأزمنة والعصور كما يظن الفقهاء، بل يقصد به الفئة الثانية المقابلة لفئة أتباع الرسول في تلك الفترة والتي أبدت عداءً للرسول ومن معه، وهنا يتضح لنا الأمر بأننا بصدد حادثة تاريخية معينة لا يمكن إسقاطها على كل الأزمنة لأن طرفي المسألة فيها معنيان تحديداً، وما يوضح ذلك بما لا يقبل الشك بداية سورة التوبة في قوله تعالى ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة ١)، فهذه الآية تبيّن أن صراعاً سياسياً كان بين فئتين بينهما عهد نُقض بواسطة هذه الآية، أي إن الأمر

يتعلق بصراع سياسي وفق مفهوم السلم والحرب الذي كان سائداً يومها، أما بخصوص قوله بأنهم (نجس) فهذه المفردة ذكرت مرة واحدة في التنزيل الحكيم وفي هذه الآية فقط، والنجس في اللغة العربية أصل صحيح يدل على خلاف الطهارة كما جاء في معجم مقاييس اللغة، وقد اختلف المفسرون والفقهاء حول معنى صفة النجس التي ألصقت بهؤلاء المشركين فذهب البعض منهم إلى أن نجاستهم حسية وذهب البعض الآخر إلى أن نجاستهم معنوية. ونحن نرى أنها معنوية في قوله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، وقد بيّنا أن المشركين في سورة التوبة هم الذين عاصروا الرسول وأتباعه في حقبة زمنية معينة، وبما أن مفردة (النجس)، وهي النجاسة المعنوية المقابلة للطهارة المعنوية ومتعلقة بالشرك، فهذه النجاسة هي التي تخرج من الفم (أي النطق) والتي تتمثل في جعل شريك لله عز وجل عن ذلك. وهذا النطق الذي كان سائداً عند المشركين هو تلبية الحج، والذي هو (لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إلا شريك لك ملكته وما ملك)، ولاحظ قوله تعالى ﴿. . . كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف ٥).

ونجد أن التصحيح الذي قام به المسيح في مفهوم النجاسة كان واضحاً في نقاش دار بينه وبين تلامذته، لما جاءه الكتبة والفريسيون يحتجون على كون أتباعه لا يغسلون أيديهم حينما يأكلون خبزاً (حِينَئِذٍ جَاءَ إِلَى يَسُوعَ كَتَبَةٌ وَفَرِّيسِيُّونَ الَّذِينَ مِنْ أُورُشَلِيمَ قَائِلِينَ: «لِمَاذَا يَتَعَدَّى تَلاَمِيذُكَ تَقْلِيدَ الشُّيُوخِ فَإِنَّهُمْ لاَ يَغْسِلُونَ أَيْدِيَهُمْ حِينَمَا يَأْكُلُونَ خُبْزاً؟» فَأَجَابَ: «وَأَنْتُمْ أَيْضاً لِمَاذَا تَتَعَدَّوْنَ وَصِيَّةَ اللَّهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ؟ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْصَى قَائِلاً: أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ وَمَنْ يَشْتِمْ أَباً أَوْ أُمّاً فَلْيَمُتْ مَوْتاً. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: مَنْ قَالَ لأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ هُوَ الَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي. فَلاَ يُكْرِمُ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ. فَقَدْ أَبْطَلْتُمْ وَصِيَّةَ اللَّهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ! يَا مُرَاؤُونَ! حَسَناً تَنَبَّأَ عَنْكُمْ إِشَعْيَاءُ قَائِلاً: يَقْتَرِبُ إِلَيَّ هَذَا الشَّعْبُ بِفَمِهِ وَيُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيداً. وَبَاطِلاً يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ». ثُمَّ دَعَا

الْجَمْعَ وَقَالَ لَهُمُ: «اسْمَعُوا وَافْهَمُوا. لَيْسَ مَا يَدْخُلُ الْفَمَ يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ بَلْ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْفَمِ هَذَا يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ». حِينَئِذٍ تَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَقَالُوا لَهُ: «أَتَعْلَمُ أَنَّ الْفَرِّيسِيِّينَ لَمَّا سَمِعُوا الْقَوْلَ نَفَرُوا؟» فَأَجَابَ: «كُلُّ غَرْسٍ لَمْ يَغْرِسْهُ أَبِي السَّمَاوِيُّ يُقْلَعُ. اُتْرُكُوهُمْ. هُمْ عُمْيَانٌ قَادَةُ عُمْيَانٍ. وَإِنْ كَانَ أَعْمَى يَقُودُ أَعْمَى يَسْقُطَانِ كِلاَهُمَا فِي حُفْرَةٍ». فَقَالَ بُطْرُسُ لَهُ: «فَسِّرْ لَنَا هَذَا الْمَثَلَ». فَقَالَ يَسُوعُ: «هَلْ أَنْتُمْ أَيْضاً حَتَّى الآنَ غَيْرُ فَاهِمِينَ؟ أَلاَ تَفْهَمُونَ بَعْدُ أَنَّ كُلَّ مَا يَدْخُلُ الْفَمَ يَمْضِي إِلَى الْجَوْفِ وَيَنْدَفِعُ إِلَى الْمَخْرَجِ وَأَمَّا مَا يَخْرُجُ مِنَ الْفَمِ فَمِنَ الْقَلْبِ يَصْدُرُ وَذَاكَ يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ لأَنْ مِنَ الْقَلْبِ تَخْرُجُ أَفْكَارٌ شِرِّيرَةٌ: قَتْلٌ زِنىً فِسْقٌ سِرْقَةٌ شَهَادَةُ زُورٍ تَجْدِيفٌ. هَذِهِ هِيَ الَّتِي تُنَجِّسُ الإِنْسَانَ. وَأَمَّا الأَكْلُ بِأَيْدٍ غَيْرِ مَغْسُولَةٍ فَلاَ يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ) (سفر متى١٥: ١-٢٠). أما الخلط لدى الفقهاء بين النجس والرجس والقول بأن لهما نفس المعنى فهذا هراء كقولهم عن الخمر بأنه نجس، ولكن واقع الأمر أن الخمر فيه رجس، ورجس الخمر هو السُّكر، ولا علاقة للنجس بذلك من قريب ولا من بعيد.

أما قوله تعالى في نفس السورة ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾، فقد فهمه الفقهاء على أنه تحريم أبدي، فألصقوا صفة الشرك على كل أهل الكتاب ومنعوهم من الاقتراب من المسجد الحرام، وفي ذلك تقوّلٌ على الله وتحريمٌ لما أحل، لأن التحريم إلهي أبدي شمولي، أما ما جاء في هذه الآية من سورة التوبة فهو منع أي إنسان يلبّي تلبية فيها شرك حين دخول منطقة المسجد الحرام، وهذا الخطاب موجه للمؤمنين للتعامل مع هذه الفئة التي كانت موجودة فعلاً، وبعد فتح مكة انتهت بدون رجعة ولا علاقة لبقية سكان الأرض بهذا. فخطاب النهي في الآية ليس أزلياً بل ظرفي. وقد يحتج علينا الفقهاء بأن هذه الآية أبدية بدليل قوله (بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)، وقد يبدو كلامهم مقبولاً للوهلة الأولى لكن هناك آية أخرى في نفس السورة (سورة التوبة) تبيّن مفهوماً معاكساً لمفهوم الأبدية والإطلاق الذي قال به الفقهاء هو قوله تعالى ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ

يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٢٦)، فالآية توجه الخطاب للمنافقين بأنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين حيث جاءت بعد قوله ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (١٢٥)، فهل نقول بأن حالة الافتتان التي كانوا يعيشونها أبدية؟ نقول في كل عام مرة أو مرتين إذا كان لها الطابع الأبدي، فأين الفتنة مرة أو مرتين في كل عام منذ نزول هذه السورة حتى يومنا هذا؟ وكان وجب أن يكون هناك ١٤٠٠ إلى ٢٨٠٠ فتنة حتى يومنا هذا. فهل من متطوع يخبرنا ما هي هذه الفتن؟ لذا فهذه الآية تصف حالة معينة لأهل حقبة زمنية محددة هي عهد البعثة المحمدية فقط، وكذلك آية الجزية فهي من القصص المحمدي حدثت في شروط الجزيرة العربية في القرن السابع. علماً بأن الشروط الحالية في العالم لا تسمح بشيء اسمه الجزية ولا لزوم لها، وأن آية الجزية وغيرها في سورة التوبة هي تاريخ وليست تشريعاً.

وختاماً، يمكننا أن نستنتج أن الفقه المتوارث بكل فروعه في الشعائر أو العبادات كما يسمّيها الفقه، وفي التشريعات أو العادات، بحاجة لإعادة قراءة، حتى نعيد الاعتبار للدين الإسلامي، ونعيد له صفة العالمية التي أفقده إياها الفقه والفقهاء وعلى رأسهم الشافعي، سامحهم الله.



الأوثان والأصنام والتماثيل

هذه الألفاظ الثلاثة مفردات قرآنية وردت في آيات من التنزيل الحكيم، وقد وردت ألفاظ الأصنام والتماثيل لأول مرة مع إبراهيم، لذا فقد وُضع هذا الفصل مع قصة إبراهيم.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الألفاظ الثلاثة ليست مترادفات كما يزعم القائلون بالترادف لأن في كل منها جانباً أو معنى لا يوجد في غيرها، كما سنرى حين نتناولها بالبحث شكلاً ومضموناً.

- الأوثان

الواو والثاء والنون (و ث ن) حسب ما جاء في المعاجم اللغوية هو كل معبود مقدس مشخص سواء أكان تمثالاً صنعته اليد الإنسانية أم كان ظاهرة طبيعية كالرعد والبرق أم كوكباً من الكواكب كالشمس والقمر.

ورد هذا اللفظ ثلاث مرات في التنزيل الحكيم:

- ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت ١٧).

- ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ...﴾ (العنكبوت ٢٥).

- ﴿... وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ (الحج ٣٠).

ولفظ الوثن في اللسان العربي، اسم مذكر وقليلاً ما يؤنث مفرده ومثّناه، أما جمعه فيعامل معاملة المؤنث. والوثن كما يقول ابن فارس (مقاييس اللغة ج٦ ص ٨٥): حجارة كانت تعبد، وأصلها قولهم استوثن الشيء قوي وأوثن فلان الحمل كثَّره وأوثنت له أعطيته جزيلاً، ولا يوجد غير ذلك. ونرى أن الوثنية هي إعطاء الشيء صفات أكثر مما هي فيه.

والناظر في التاريخ يرى أن عبادة المعبودات من أبرز الظواهر وأكثرها وجوداً، ويلاحظ أنهم يطلقون عليها اسم «الوثنية»، ولم نسمع أن أحداً سمّاها الصنمية أو التمثالية. والوثن قد يكون قطعة حجر تلفت النظر بشكلها الطبيعي كما قال ابن فارس، ومثال ذلك مناة وهي صخرة ملساء كانت لهذيل وخزاعة. إلا أن الوثن قد يكون شجرة ومثال ذلك العزّى وهي شجرة كانت لغطفان بعث النبي (ص) بخالد بن الوليد يوم الفتح فأحرقها. وقد يكون منحوتاً على نحو يشبه الآدمي ومثال ذلك اللات وهو صنم لقريش.

فإذا تأملنا آيتي العنكبوت ١٧ و٢٥ وجدناه سبحانه يبيّن فيهما عدداً من الأمور:

١. الشرك وعبادة الأوثان لا يقل أحدهما سوءاً عن الآخر، لكن الوثنية أسوأ من الشرك بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فالمشرك هو الذي يعبد مع الله إلهاً آخر، أما الوثني فهو الذي اختار شيئاً آخر يعبده من دون الله.

٢. عابد الأوثان يفتري الكذب ويخلق الإفك حين يعلن أنها تتحكم في فقر الإنسان وغناه وفي صحته ومرضه. وهذه الصفات غير موجودة فيها أبداً.

٣. الله وحده عنده الرزق، والله وحده هو المخصوص الآمر بالعبادة والشكر، والله وحده هو المآل والمستقر والمرجع.

وإذا تأملنا الواقع المعيش من حولنا وجدنا أنفسنا غارقين في الوثنية دون أن

ندري ونحن نلتمس الرزق عند أهل الإفك من علماء الأبراج الذين يزعمون أنهم يقرأون ما رسمته الكواكب للإنسان من أحداث في المستقبل. والسؤال الآن هو: إن نحن استطعنا القضاء على الأصنام وتحطيم التماثيل ومنع صناعتها ونحتها، فهل نستطيع القضاء على المطر والرعد والبرق، وتحطيم الشمس والقمر؟ وهل علينا ذبح البقر في العالم للقضاء على عبادته وتقديسه؟ وهل وجود أحد يعبد النار يفرض علينا أن نطفئ المواقد والأفران في البيوت والمعامل خوفاً من أن يعبدها الناس؟

ويأتي جواب هذه الأسئلة شافياً في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ...﴾ (الحج ٣٠). ولم يقل: اجتنبوا هذه الأوثان بذاتها عيناً.

فالرجس هو الاختلاط CONFUSION، فإن اختلطت أصوات السيوف بالطبول بصيحات المتأهبين للقتال بصهيل الخيول قيل في وصفه: جيش رجّاس. وكما أن رجس الخمر هو اختلاط الأمور مع السكر بحيث لا يعلم السكران ما يقول، كذلك رجس الأوثان هو اختلاط الأمور بحيث نظن أن لمظاهر الطبيعة والنجوم والكواكب والبقر والنار قدرة على إرادة الخير والشر بينما هي مجرد أشياء وظواهر طبيعية (أوثان) لا تملك للإنسان رزقاً.

إن الله لا يطلب منا القضاء على فن النحت ولا تدمير الطبيعة بنجومها وكواكبها ولا قتل البقر ولا منع إشعال النار، كل ما طلبه منا هو ألا نجري وراء زعم كاذب وإفك مفترى فتختلط علينا الأمور. طلب منا اجتناب الرجس لأن الأوثان بذاتها موجودة في كل مكان، فهناك تمثال لطلعت حرب وجمال عبد الناصر في القاهرة، وتمثال لرياض الصلح في بيروت، وتمثال لأبراهام لنكولن في أميركا، وهذه كلها ليست أوثاناً معبودة ويمر أمامها عشرات ألوف الناس يومياً دون أن تختلط عليهم الأمور بحيث يظنون أنها تضر وتنفع. (ونحن نعرف أن عمرو بن العاص شاهد تمثال «أبو الهول» في مصر ولم يفعل شيئاً تجاهه).

نحن لا نظن أن الناس سابقاً كانوا على هذا القدر من الغباء المطلق بحيث لا

يعرفون أن الحجر والخشب والمعدن لا تدفع ضرراً ولا تجر نفعاً، ونعتقد أن ثمة من أقنعهم بأن هذه الأوثان تقرّب من الله زلفى. وهؤلاء هم السدنة أو الهامانات أصحاب هذه اللعبة التي تستند إلى جهل الإنسان وعجزه وتعتمد على خوفه الفطري من المجهول، وتستغل ميله نحو المشخص. وهؤلاء هم السدنة الوسطاء الذين ما زالوا حتى اليوم تحت أسماء مختلفة يمارسون لعبة تمثيل الآلهة والتحدث باسمها. حتى إن السادة العلماء الأفاضل يسمون المفتي (الموقع عن الله) كما سمّاه ابن قيم الجوزية في أعلام الموقعين، أو (قائم مقام الرسول) كما سمّاه الشاطبي، ثم يقولون إنهم ليسوا رجال دين بل علماء أفاضل. وكذلك الكهنة في المسيحية هم نواب المسيح على الأرض والمجامع المسكونية يقابلها مجامع الفقه الإسلامي. وعلينا نحن المسلمين أن نصحّح عقيدتنا وأنه لا أحد يوقع عن الله لأنه في هذه الحالة يصبح سبحانه وتعالى ضمن هذا المفهوم وكأنه نائب عام أو رئيس مخفر شرطة، الفقهاء يفتون، وعليه تنفيذ ما يفتونه، وفي هذا قال تعالى ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ (القلم ٣٥-٤٠)، وأشعر بهذه الآيات كأنها نزلت الآن تصف حال الفقهاء ومجامع الفقه الإسلامي الذين يوزعون الحرام والحلال ذات اليمين وذات الشمال زاعمين أنهم يمثلون الله وغير عالمين أن أقوالهم هي تفاعل إنساني مع التنزيل الحكيم. والتبست عليهم آيات التنزيل الحكيم مع أقوال الصحابة. فالتنزيل الحكيم له جانبان الأول مطلق إلهي، والثاني نسبي إنساني فافهم هذا.

إن كل ما علينا فعله كمسلمين مؤمنين، لكي نتجنّب رجس الأوثان ونتحاشى الاختلاط في الأمور كتقديس أقوال السلف والأئمة السابقين، ألاّ نضع أية أنصاب أو تماثيل أو مجسمات طبيعية في المساجد ودور العبادة، أما في غير هذه الأماكن فلا محذور في وجودها، لأن الإنسانية في تقدم مستمر والإنسان معني بالجوانب الجمالية في صنع التماثيل والأنصاب التذكارية.

من هنا فإننا نرى خطأ هدم وتحطيم تمثال بوذا في أفغانستان (ماذا عن تماثيل معبد الكرنك في مصر؟). أرأيت لو أن تمثالاً موجوداً في مسجد، فهل نهدم المسجد أم نهدم التمثال؟ إن الجواب بيد مصلحة الناس وليس بيد الأحكام الشرعية، فالمصلحة هي التي تحدّد ما فيه نفع الناس وما ليس فيه نفعهم.

ثمة أيضاً ناحية مهمة جداً قرأناها في السيرة النبوية، هي أن النبي (ص) حين فتح مكة أزال الأصنام من الكعبة ومن الأماكن العامة. لكنه لم يرسل أحداً لتفتيش بيوت الناس ليزيل ما فيها من أصنام صغيرة وتماثيل - إن وجدت - بحجة أنهم ما زالوا حديثي العهد بعبادة الأوثان. إننا نرى اليوم أنهم يمنعون في أوربا وضع صورة أو تمثال لهتلر في الأماكن العامة، لكنهم لم يهتكوا حرمة البيوت لمنع بعض الناس من وضع صورة له في بيوتهم.

- الأصنام

الصاد والنون والميم (ص ن م) أصل صحيح في اللسان العربي. والأصنام جمع مفرده صنم، هو حسب تعريف ابن فارس: كان شيئاً يتخذ من خشب أو فضة أو نحاس فيُعبد (مقاييس اللغة ج٣ ص٣١٤). ولقد لاحظنا ما لاحظه ابن فارس أن الصنم «كلمة واحدة لا فرع لها». فاللفظ قرآني ورد في التنزيل الحكيم خمس مرات كلها في قصة إبراهيم الخليل (ع)، وكلها بصيغة الجمع، وكلها أسماء ليس فيها فعل ولا صفة. وهذا ما قصده ابن فارس في تعريفه. لكننا لم نجد ما يبرّر لابن فارس ألا يعتبر الأوثان في التنزيل الحكيم مثل الأصنام تماماً، أي كلمة واحدة لا فرع لها، فقال إن الفعل من الوثن هو استوثن بمعنى قوي واشتد، وكان بغنى عن هذا التكلف الواضح لو أنه اكتفى بالشكل الذي جاءت عليه اللفظة في التنزيل الحكيم.

الأوثان والأصنام - عندنا - مصطلح يدل على ظاهرة عبادة الأشياء والمشخصات. ولقد سادت هذه الظاهرة في الفكر الإنساني قبل أن يرتقي هذا الفكر إلى مرتبة التجريد. وحين نزلت الرسالة على قلب النبي العربي (ص) كان

كثير من الناس ما زال تشخيصياً تجسيدياً في أعماقه لا يؤمن إلا بما يرى ويسمع ويلمس، ومن هنا أجاز الإسلام إبقاء عدد من الشعائر ذات الجانب التشخيصي، كالطواف حول الكعبة، وتقبيل الحجر الأسود، ورمي الجمرات، في أيام الحج والعمرة. وتتجلى ظاهرة الصنمية في عبادة وتقديس الآباء والسلف ﴿. . . قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ (الزُّخرف ٢٢) فالصحابة والأئمة كانوا في حياتهم أشخاصاً عاديين، ثم تحولوا الآن في أذهاننا وعقولنا إلى أصنام. وكذلك ليس على مثال ما مثل أبو الهول والمنحوتات الآشورية، وهنا نلاحظ الخلاف بين التماثيل والأصنام.

فالكعبة عبارة عن بناء مربع مسقوف، يقوم في وسط المسجد الحرام، ندور حوله ونراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا. كذلك الأمر مع الحجر الأسود الذي توجّه إليه الخليفة عمر بن الخطاب بالقول: والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله يقبلك ما فعلت. وهناك أيضاً نصب يمثل الشيطان في منى نرميه بالجمرات، إلى جانب السعي بين صخرتي الصفا والمروة تيمّناً بما فعلته زوجة إبراهيم الخليل (ع) حين تركها في حمى بيت الله الحرام مع وليدها إسماعيل وهي تلتمس له الماء ليشرب.

هذه كلها شعائر مشخصة قديمة قدم التاريخ، مارسها الإنسان بفطرته قبل البعثة النبوية، وجاءت الرسالات السماوية قبل الإسلام حافلة بها، وحافلة بمختلف المشخصات الأخرى كالبعث والجنة والنار والساعة التي حفظها لنا القرآن الكريم، لأنها ترتبط بطبع الإنسان وميله نحو المشخص. فالحج من أقدم الشعائر عند الإنسان ودليل قِدمها أن جميع مناسكها مشخصة، وقد غطى القصص القرآني هذا الميل الإنساني نحو المشخص وروى لنا تاريخ البيت الحرام قبل البعثة المحمدية بقرون، ثم أخذت الرسالة المحمدية بيد الإنسان لتنقله من التشخيص إلى التجريد، ومن عبادة «الأشياء» إلى عبادة «الواحد الأحد المجرد»، فربطت الصلاة (قمة الشعائر المجردة) بالحج (قمة الشعائر المشخصة) حين أوجبت على المصلي التوجّه في صلاته إلى البيت الحرام بكعبته التي تمثل رمز

الأماكن المقدسة لا فقط في الرسالات السماوية، بل أيضاً في جميع المعتقدات غير السماوية، نظراً لارتباط هذه الأماكن ووجوب تقديسها عند الإنسان بطبعه التشخيصي. ومن هنا تبدأ رحلة الإنسان مع السدنة والهامانات ورجال الدين، هذه الرحلة التي تقوم على ركائز ثلاث هي:

١ - الخوف من المجهول، فمعظم ظواهر الطبيعة من أعاصير وزلازل وطوفانات ونجوم وكواكب كانت عبارة عن ألغاز.

٢ - الخوف من الموت وجهل ما بعد الموت.

٣ - الميل إلى المشخص الذي نسمعه ونراه لتطمين النفس الخائفة من هذين المجهولين.

وبما أن التشخيص من المظاهر القديمة بدأ في التاريخ الإنساني كله، ومناسك الحج تمثل قمة التشخيص حيث بدأ الحج بإبراهيم (ع) لذا قال تعالى عن الحج: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (البقرة ١٢٥). والحج لكل الناس وليس للمؤمنين فقط لأن ظاهرة التشخيص فيه قديمة قدم التاريخ، والكعبة مكان مشخص رمزي وليست بيتاً سكنياً، سبحانه وتعالى عما يصفون. فكل إنسان يؤمن بالله يحق له حج البيت الحرام، ولكن بدون أي رموز لأي شيء، فلا تماثيل ولا صلبان ولا أعمدة حكمة، ولا تماثيل بوذا. فالبيت الحرام هو بيت الله صافٍ من كل شائبة، لذا جاء لباس الإحرام ليخلع الإنسان أي مؤشر أو رمز ملة من ملل الأرض قاطبة، لأن شعار هذه الملة قد يظهر في اللباس وغطاء الرأس أيضاً، وجعله لباساً موحداً ليبيّن عالمية الدين الإسلامي، وليبيّن أنه لا ينتمي إلى ملة بعينها.

- التماثيل

الميم والثاء واللام (م ث ل) أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء، فيقال: هذا مثل هذا، أي نظيره. والمثل والمثال في معنى واحد، وربما قالوا

مثيل كشبيه. تقول العرب: أمثل السلطان فلاناً، أي قتله قوداً، والمعنى أنه فعل به مثل ما كان فعله. والمثل أيضاً كشبه، والمثل المضروب مأخوذ من هذا لأنه يؤتى مورّى به عن مثله في المعنى، وقولهم مثَّل به أي نكَّل هو من هذا أيضاً، لأنه فعل فيه مثل ما فعله. وفي هذا قال تعالى ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ...﴾ (الرعد ٦)، أي العقوبات الزاجرة عن مثل ما وقعت من أجله.

هذا اللفظ القرآني وردت مشتقاته في ١٦٩ موضعاً من التنزيل الحكيم أولها في قوله تعالى ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ...﴾ (البقرة ٢٣)، وآخرها في قوله تعالى ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (الفجر ٨).

أما التماثيل، وهي جمع مفرده تمثال، فقد وردت مرتين في القرآن الكريم:

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (الأنبياء ٥٢).
- ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ...﴾ (سبأ ١٣).

ونلاحظ ونحن نتأمل الآيتين أن للتماثيل وجهاً سلبياً يستحق الاستنكار في حالة العكوف عليها، وأن لها وجهاً إيجابياً ليس فيه ما يوجب الاستنكار حين لا تكون محلاً للعكوف عليها. هنا يظهر الفرق واضحاً بين التماثيل من جهة والأوثان والأصنام من جهة ثانية. فالأوثان والأصنام دائماً لها رجس، أي إن لها وجهاً واحداً سلبياً، لكونها مقدسة ومعبودة. أما التماثيل فليس لها رجس إلا في حالة العكوف عليها بالتقديس والعبادة.

ونفهم من الآية الأولى أنه في زمن إبراهيم (ع) ساد نوعان من التماثيل. النوع الأول مصنوع من الحجر أو غيره يتحول إلى وثن أو صنم بالعكوف عليه تقديساً وعبادة، وإنما سُمي تمثالاً لأن صانعه صنعه - في زعمه - على مثال الإله المعبود وشبهه. ومثال هذا النوع تماثيل الفراعنة في مصر وتماثيل شيفا في الهند وتماثيل آلهة الرومان في روما وآلهة اليونان في أثينا. وهذا النوع هو المحرّم

المحظور صنعه والمنهي عنه على رأس الوصايا العشر في ألواح موسى، وهو عنوان الشرك بالله الذي لا يغفره تعالى لعباده حسب قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ . . .﴾ (النساء ١١٦).

أما النوع الثاني فهو الذي تشير إليه آية سبأ ١٣، وهو المصنوع من الحجر أو غيره ليماثل ويشبه الإنسان، ومثاله تمثال عدنان المالكي في دمشق، وليماثل ويشبه الحيوان، ومثاله تماثيل الأسماك والطيور والسباع المنتشرة في كل أنحاء العالم. ويعدّ ذلك مماثلة وإن اختلفت المادة ولا يعدّ تماهياً.

في آية سبأ ١٣ لا مجال للتشكيك في عقيدة التوحيد عند النبي سليمان (ع)، لعدم وجود عكوف بالتقديس والعبادة على هذه التماثيل. لكن ثمة من يزعم أن صناعة التماثيل كانت عند داوود ثم نسخت في ما بعد. لهؤلاء نقول: في عقيدة التوحيد لا يوجد نسخ ولا يوجد ناسخ ومنسوخ، بدليل قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (الزُّمر ٦٥).

فإذا تأملنا باقي الآيات التي وردت فيها مشتقات هذا اللفظ نجد أنه ورد على عدة أوجه:

١ - وصف صفة معينة لحالة معينة وتخصيصها وذكرها، كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا. . .﴾ (التحريم ١٠). وصفة الكفر هنا هي محط المثل، حيث ربطها أيضاً بالخيانة. وكذلك وصف نعيم الجنة قال تعالى ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ. . .﴾ (الرعد ٣٥) وذكر العسل المصفى حيث العسل الحالي فيه الشمع، أما في الجنة فإنه مصفى، وكذلك الخمر في الآخرة فيه صفة مشتركة مع خمر الدنيا وهي اللذة.

٢ - وصف صفة معينة لحالة معينة كالبهيمية مثلاً في قوله تعالى ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ . . .﴾ (الجمعة ٥).

فضرب المثل توضيحاً للتماثل والتشابه في صفة بعينها وليس شاملاً لكل شيء. والآية تشير إلى التماثل في الغباء بين الحمار وبين الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها.

٣ - ضرب الأمثال للتحدي، كما في قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يس ٧٨). فضرب المثال هنا للتحدي، والمماثلة هنا هي في صفة إحياء الموتى. ولهذا تابع في الرد على هذا التحدي الموجه للخلق قائلاً ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس ٧٩).

وكذلك التماثل بالرفض كما في قوله تعالى ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ (يس ١٣). والتماثل في صفة النور كما في قوله تعالى ﴿...لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى ١١)، أي لا شيء يماثله فهو واحد في كمّه أحادي في كيفه.

ولكن هناك مماثلة في صفة، وهذه المماثلة في كل شيء في الأمثلة التي ذكرت سابقاً، والتي لم تذكر لا تحتوي إطلاقاً على التماهي، أي إن قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾ (النور ٣٥). فهنا لا تماهيَ بين الله ومثل نوره، بل مماثلة في الصفة لكي يقرب هذا الفهم للإنسان. فالضوء لا يحمل عنصر الزمن إطلاقاً وكذلك الله سبحانه لا ينطبق عليه عنصر الزمن.

إن الوقوف بالتأمل أمام هذه المفردات القرآنية الثلاث (الأوثان والأصنام والتماثيل)، وأمام الآيات التي ورد فيها ذكر كل من هذه المفردات، يبيّن لنا كيف انتقل الإنسان من عبادة آلهة متعددة مشخصة إلى عبادة واحد أحد مجرد ليس كمثله شيء هو الله سبحانه.

فقد بدأت الأنسنة التي كانت ضمن مجموعة من أمثالها فاختارها الله وانتقاها بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران ٣٣). وبدليل بمجموعة آدم قوله تعالى ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة ٣٥). وشهدنا في هذه الآية ضمير المخاطب المفرد المنفصل (أنت) الذي يجب حسب قواعد سيبويه أن يكون مستتراً وجوباً، والذي قال بعضهم إنه جاء ظاهراً للتأكيد، بينما نحن نراه أداة انتقاء وتخصيص، إذ لا يمكن أن يقال لمخاطب: اجلس أنت، إلا إذا كانت هناك مجموعة أشخاص وقوفاً وأمرنا واحداً منهم بالجلوس.

لقد بدأ تعليم آدم - الإنسان بالمشخصات ولهذا قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا...﴾ (البقرة ٣١) قبل الهبوط الأول. ثم انتقل إلى المجردات قبل الهبوط الثاني، وهذا معنى قوله تعالى ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ...﴾ (البقرة ٣٧). فالتوبة لا يمكن أن تكون مشخصة. من هنا بدأ التجريد بالإنسان العاقل وهم أجدادنا واستمر حتى يومنا هذا. فالإنسان والعلوم والفنون والقوانين والأخلاق لا يمكن أن تتقدم بدون لغة مجردة، تشكل أداة التفكير وأداة الاتصال وأداة انتقال الخبرات من الآباء إلى الأبناء.

وكذلك بدأ الأمر والنهي مشخصين، كما في عبارة (ولا تقربا هذه الشجرة) فالنهي هنا مشخص ينهى عن الاقتراب من مشخص، وقد ذُكرت الشجرة لأنها أكثر الأشياء شيوعاً في الغابة، ويمكن أن تكون أي شجرة، ثم استمر التعليم بالتشخيص، فأرسل تعالى تعاليمه مع ملائكة مشخصين سمّاهم النذر، وعندما بدأ الوحي للإنسان مع بداية تشكل لغة مجردة بأبسط صورها في زمن نوح، ظلت هذه النذر المشخصة موجودة جنباً إلى جنب مع الوحي، وكان الناس يعلمون أنهم ليسوا من جنسهم، ونعتقد أن هذا أدّى إلى أطروحة أن الملوك أتوا من السماء. وهذا بالضبط ما نفهمه من قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء ١٠٥).

لكننا نبدأ برؤية المشكلة مع قوله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا

سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا. . .﴾ (نوح ٢٣-٢٤). والمشكلة هي في قوله (وقد أضلوا). فهل الأحجار التي سمّوها آلهة تملك العون والغوث كما في يغوث وتملك المنع والتعويق كما في يعوق وتملك القدرة على إضلال الناس؟ وهل الزلازل والبراكين والنجوم والكواكب قادرة على الكلام وعلى إقناع السامع بالضلال؟ أم أن ثمة أناساً يقومون بهذه المهمة ويزعمون أنهم أهل الاختصاص بالآلهة أو بالإله الواحد؟ وهذه هي أسماؤهم. فالذي يُضِل هو العاقل، والذي يُضَل هو العاقل أيضاً، والرسول يهدي إلى صراط مستقيم (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وكل هذا يعود للعاقل.

الحقيقة أن هناك سدنة وهامانات اختصت كل مجموعة منهم بمعبود بعينه منذ فجر التاريخ، حتى إننا نرى هذا في أكثر القبائل بدائية، حيث ساحر القبيلة (الشامان) هو الطبيب وهو العراف، ومهما اختلفت العقائد والمعبودات فإن ثمة كثيراً من أوجه الشبه بين هؤلاء السدنة والهامانات أهمها أنهم يتلفظون بألفاظ معينة أو يقومون بحركات معينة، لأنهم جميعاً يتوهمون أن مجرد لفظ هذه الألفاظ المعينة سينتج عنه حتماً حقائق موضوعية تحصل في الواقع، وهذه من أكبر الكوارث الموجودة في الفكر العربي الإسلامي، ومن هنا جاءت الأذكار والأوراد وما يسمى بالرقية الشرعية والحجاب وإخراج الجن، والظن بأن التطبّب بالقرآن يشفي من الأمراض العضوية من قوله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ. . .﴾ (الإسراء ٨٢) ومفهوم الشفاء هنا وفي كل آيات الكتاب هو شفاء معنوي (كشفاء ما في الصدور) وهذه الظاهرة أيضاً تدل على طفولة الفكر والوعي الجمعي المؤمن بها، ومنه نرى أن ردود فعل ما يسمّى الشارع العربي على الأحداث هي ردود فعل غريزية طفولية وليست عقلانية. وقد كسرت شعوب تونس ومصر واليمن وليبيا وسوريا هذه القاعدة وناضلت بشجاعة من أجل الحرية ضد الاستبداد والفساد، أي لقد بدأ العرب يكتشفون أن الحرية أهم من الحجاب.

ومن هنا نشأ السحر واستحضار الجن ونشأت التمائم والتعاويذ لفك السحر. فالسحر ألفاظ تلفظ لعقد السحر والتعاويذ ألفاظ تلفظ لفك السحر، وهذه الظاهرة ما زالت موجودة في كل أنحاء الأرض بدرجات متفاوتة وبأسماء مختلفة تارة تحت اسم الأبراج وتارة تحت اسم قراءة الكف والفنجان ووشوشة الودع. فكتب الأبراج تحتل مرتبة متقدّمة على سلم المبيعات أكثر من كثير من الكتب العلمية، وزاوية الأبراج في الصحف اليومية وفي عدد من المحطات التلفزيونية لها قراؤها ومشاهدوها والمعتقدون بصحتها فضلاً عن ندوات فك السحر وبرامج إخراج الجن من أجساد الممسوسين.

ما من قارئ لقصص الأنبياء في القرآن الكريم إلا لاحظ أن وجود السدنة والهامانات يترافق لزوماً مع كل نبي ورسول، بدءاً بنوح (ع) وانتهاءً بمحمد (ص) مروراً بإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم أجمعين. وهذا - في رأينا - مصداق ما تعهد به إبليس لربّه حين قال ﴿. . . لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ. . .﴾ (الأعراف ١٦-١٧). ويعتقد كثيرون تحت تأثير المعلومات المغلوطة التي يبثها السدنة والهامانات لإبعاد الشبهات عن أنفسهم، أن إبليس مخلوق كريه المنظر والرائحة له قرون وذنب طويل وحوافر، والحقيقة غير ذلك. فقد يكون إبليس سادناً في معبد أو كاهناً في كنيسة أو مؤذناً في مسجد، يرتدي الملابس البيضاء النظيفة، سُبَّحته في يده ولسانه لا يتوقف عن التمتمة، وفي اليد الأخرى مجمرة تعطر الجو بروائح المسك والبخور.

عند نوح كان ثمة هامانات عدّدت بعض أسمائهم الآية ٢٣ من سورة نوح يدعون الناس إلى عبادة ظواهر الطبيعة وخاصة الفلكية، ويوهمونهم بأنها تضر وتنفع. أما عند إبراهيم فقد اتجه الهامانات إلى عبادة الأصنام إضافة إلى ظواهر الطبيعة وجعلوا لها معابد لها سدنتها والقائمون عليها. وكان رأس هؤلاء جميعاً آزر أبو إبراهيم ومربّيه والمشرف على تدريبه ليكون خلفاً له. وهذا يفسّر قدرة إبراهيم على الوصول إلى الهياكل المقدسة ليلاً وعلى تحطيم الأصنام. (انظر

الفرق بين الأب والوالد في كتابنا الثالث **الإسلام والإيمان**). لقد انصب استنكار إبراهيم (ع) على عبادة الأصنام لا على صنعها بدليل قوله لهم ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (الصافّات ٩٥). فقد كان واضحاً لديه أن إضلال الناس يأتي ممن يزيّن لهم عبادة الأصنام والأوثان لا ممّن صنعها. ونلاحظ أن القرآن يذكر لأول مرة في عصر إبراهيم مسألة إحياء الموتى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ. . .﴾ (البقرة ٢٦٠). ومسألة السلطة والملك وتحدي السلطان (انظر خبر «الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك» البقرة ٢٥٨، ٢٥٩) هذه المسألة التي نجدها تتكرر الإشارة إليها في قصة موسى مع فرعون ونجد معها الإشارة لأول مرة إلى هامان. وهذا ما نكتفي هنا بدورنا بالإشارة إليه على أن نبحثه تفصيلاً في الحديث مستقبلاً عن قيام الدول وعن دور الهامانات في سقوطها.

إبراهيم الخليل وفق علم التاريخ والحقائق الأثرية

إبراهيم كاسم علم نجده في الكتابات القديمة سواء في بابل أو ماري أو وثائق مصر. فقد حوت وثائق بابل تسمية أبراهام أو أبرام بصيغة ((أباراما)) و((أبام راما)). كما نجد الاسم في الوثائق المصرية التي تعود إلى الألف الأول قبل الميلاد حيث يرد ذكر اسم مزرعة ((مزرعة أبرام)) في جنوب بلاد كنعان. كذلك نجد أن الوثائق الآشورية العائدة للألف الأول قبل الميلاد تذكر اسم ((أبرام – أبرامو)). وتذكر لنا وثيقة عثر عليها في مدينة لارسا الرافدية تعود إلى عهد حمورابي اسم شخص يدعى أهوبا بن إسماعيل.

دلت الأبحاث التاريخية الحديثة المستندة إلى أحدث المكتشفات الأثرية على جملة معطيات حول قبيلة إبراهيم ويمكننا عرضها كما يلي:

تارح والد إبراهيم كان من مدينة أور في جنوب الرافدين، هذه المدينة التي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد. كان رجلاً غنياً يعتمد على رعي الماشية ثم مارس العمل التجاري لأن أور كانت محطة تجارية مهمة على الخط التجاري الواصل بين الخليج العربي والمشرق العربي ومصر.

كانت مدينة أور مركزاً لعبادة الإله سن (إله القمر) وقد أبانت الحفريات الأثرية عن زقورتها المخصّصة لعبادة هذا الإله، وبطبيعة الحال كان اعتقاد تارح يقوم على عبادة إله القمر.

الخط التجاري كان يقود من الخليج العربي إلى الأعلى عبر أور وبمحاذاة الفرات ثم ينعطف بحدة في منطقة حران ليتجه إلى الجنوب الغربي ماراً قرب مدينة قادش ودمشق ويمتد عبر أرض كنعان على الساحل السوري ليصل في النهاية إلى الحدود المصرية. وعبر هذا الخط يمكننا تتبع رحلة إبراهيم الخليل في ما بعد من حران إلى أرض كنعان فمصر.

يبدو أن الأوضاع السياسية في مدينة أور غير المستقرة، والناتجة عن الصراعات السياسية في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وبداية الألف الثاني، أدت إلى انهيار النشاط التجاري ما دفع تارح إلى الانتقال نحو حران العاصمة التجارية المهمة أيضاً وكذلك لكونها مركزاً لعبادة إله القمر بعد أور. وتشير المعطيات إلى أن صراعاً خفياً نشأ بن معتنقي عبادة القمر وبين الإله القومي الجديد لبابل، مردوخ، حيث إن السلالة البابلية التي سيكون منها الملك حمورابي كان مشروعها السياسي التوحيدي لبلاد الرافدين يستوجب وجود إله شامل يضم كافة المدن والمعتقدات تحت لوائه.

انتقل تارح إلى حران والتفت الى نشاطه التجاري وسلم شؤون الماشية إلى ولديه إبراهيم وناحور أما الولد الثالث لتارح، هاران، فقد عاجله الموت.

مضى إبراهيم في حياة الرعي والتنقل وما يرافقها من حالات التأمل والوحدة والتفكير في الكون والسماء ما أدّى به إلى اهتزاز في عبادة القمر التي نشأ عليها وانبثقت لديه فكرة أن خالق القمر والشمس والنجوم يجب أن يكون إلهاً وحيداً كلي القدرة موجوداً في كل مكان وزمان، رحيماً عطوفاً غير منظور. مضى إبراهيم في نشر معتقده التوحيدي الجديد وسط انزعاج والده وأخيه وباقي سكان المدينة، غير أنه استطاع ضم أتباع له ورغم هذا أمكن الحفاظ على وحدة العشيرة ولو ظاهرياً لحين وفاة تارح الأب، حينها اقتسم إبراهيم وناحور تركة

أبيهما وانقسمت العشيرة إلى قسمين، قسم يعبد إله القمر على خطى الأب وقسم يدين بالتوحيد بقيادة إبراهيم.

ولأن العقيدة الجديدة لا يمكنها أن تخصب في بيئة معتقدية قديمة ومحدودة فقد ارتأى إبراهيم الهجرة إلى أرض كنعان، وكان ذلك، حيث مضى في مسار خط التجارة لمسافة ألف كيلومتر عابراً قادش ودمشق ثم أرض كنعان، وهنا في كنعان وبعد حصول جفاف مضى الى مصر التي كانت تمنح المهاجرين من القبائل مساحات من الأراضي عند مراعي مصب النيل المهجورة.

ويبدو أن إبراهيم عاد إلى فلسطين بعد ذلك ليسكن في منطقة حبرون وهي اليوم الخليل، ولعل انعدام الوثائق الأثرية في شبه الجزيرة العربية للفترة تلك عتم على ذهاب إبراهيم إلى مكة وقد ذُكر هذا في القرآن الكريم.

في هوية إبراهيم الخليل

معظم المعطيات تشير إلى أن إبراهيم ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، والحقيقة أنه منذ ما قبل الألف الثاني قبل الميلاد بقليل أصبحت الهوية الاجتماعية الحضارية في المشرق العربي عمورية بالكامل تمظهرت بعدة تسميات حسب المدن آنذاك (بابل، آشور، أكد، ماري، إبلا. .الخ)، وبناءً على ذلك فنحن نعتقد أن إبراهيم عموري ونستند في ذلك إلى أن تارح والده من مدينة أور التي شهدت في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد انهيار سلالتها السومرية لمصلحة الفاعلية العمورية المنتشرة فيها وفي محيطها. ويشير الدكتور أحمد سوسه في مؤلفه **العرب واليهود في التاريخ** إلى أن أسماء أبرام ويعقوب ويوسف وحتى تسمية إسرائيل التي تعني يعقوب هي أسماء كنعانية/ عمورية أصيلة تعود إلى ما قبل الألف الثاني قبل الميلاد، وهي أسماء روحانية مقدسة.

ولأن مدينة ماري كانت العاصمة الحقيقية للعموريين في استقرارهم وارتحالهم في الألف الثاني قبل الميلاد وما قبله، فقد شملت مملكتها مدينة حران أيضاً. وقد أبانت وثائق ماري عن اكتشافات قلبت المعارف السائدة لجهة

التسميات التوراتية لعصر الآباء، فقد حوت وثائقها أسماءً وردت في التوراة مثل: ناحور، تاراحي، ساروخي، تاليكي، هذه الأسماء التي تتشابه مع أسماء أقارب إبراهيم: ناحور، تارح، سيروح، تاليك. كما أن وثائق ماري تحدثت عن قبائل أبام - رام، يعقوب - اديل، وعن قبيلة تدعى بنيامين (بنو يمين) التي كانت تسبّب القلاقل لماري واستطاعت ماري في النهاية إيجاد التفاهم معها طبقاً لمصالحها.

والذي يبدو أن أسماء الآباء الأوائل الواردة في التوراة ما هي في واقع الحال سوى أسماء قبائل ومدن أسّستها هذه القبائل، وأن إبراهيم نفسه وحفيده يعقوب وأصغر أبناء هذا الأخير بنيامين لهم علاقة مباشرة بأسماء هذه القبائل.

ويشير كاسيدوفسكي في كتابه **الواقع والأسطورة في التوراة** إلى أن القبائل التي سكنت أرض الكنعانيين في أيام إبراهيم تنتسب في أكثرها إلى الساميين الغربيين (العموريين).

هذا ما يمكن عرضه من الوثائق الأثرية التي تختص بسيرة إبراهيم الخليل والتي لم تقدم سوى رؤيا إيجابية عن شخصيته أساسها الرؤيا التوحيدية.

لكن ما قدّمه كتاب التوراة (الأسفار الخمسة الأولى) من معلومات تختص بعصر الآباء وإبراهيم بالذات، يدفعنا إلى الوقوف بحذر تجاه تلك المعلومات التي جرى تحويرها وتشويه بعضها بما يناسب رغبة الأحبار اليهود وهدفهم الذين كتبوا التوراة في فترة السبي البابلي وما بعدها في حوالى منتصف الألف الأول قبل الميلاد.

ويشير كاسيدوفسكي إلى أن التوراة ظهرت في وقت متأخر نسبياً عن زمن إبراهيم وذلك بعد عودة اليهود من السبي البابلي، أي في الفترة الواقعة بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد.

وانطلاقاً من دوافع الأحبار الدينية عمدوا إلى تغيير التراث التاريخي التقليدي فحذفوا منه كل ما لم يتفق مع مصالحهم ورؤياهم وأضافوا إليه أفكارهم الخاصة، فالأحبار لم يكونوا المؤلفين الأصليين بل هم محررون اقتبسوا

النصوص القديمة. وقد بيّن التحليل العميق للتوراة أن نصوصه تضم ثلاث طبقات واضحة، أول قسم منها كتب في القرن التاسع قبل الميلاد وسمته الرئيسية هي أن مؤلفيه استخدموا كلمة «الوهيم» للدلالة على الله، بينما استخدمت في النصوص التي ترجع الى القرن الثامن قبل الميلاد كلمة «يهوه»، وفي القرن السابع دمج القسمان في نص واحد حيث نجد أن مؤلفي النص الجديد قد استخدموا كلمتي «الوهيم» و«يهوه» بالتناوب.

ويختم بالقول: لقد تناقل اليهود هذا التراث من لسان إلى لسان ومن جيل إلى جيل، وأسهم الطابع الفولكلوري في نقل الروايات الحقيقية وتطعيمها بالكثير من الخرافات والأساطير والأمثال.

والذي يبدو أن الأحبار في فترة السبي الفاقدين للأرض والمعانين من عقدة السبي، عمدوا إلى استعارة قصة إبراهيم العموري وألصقوها بتاريخهم محققين بذلك هدفين:

الأول: إعادة تاريخهم إلى فترة مطلع الألف الثاني قبل الميلاد عبر الانتماء إلى سلالة إبراهيم.

الثاني: ربط الأرض الموعودة (فلسطين) بوعد إلهي من يهوه لإبراهيم.

الثالث: الشخصية الإبراهيمية في التوراة شخصية لا تنتمي إلى روحية الأنبياء حيث جرى إظهارها بمظهر سلبي لا يليق بنبي، وهذا يذكّر بما قدمته التوراة عن شخصية نوح السكيرة أيضاً.

وعلى هذا نتابع ما ورد في التوراة عن إبراهيم التوراتي لا إبراهيم الحنيفي.

إبراهيم الخليل في كتاب التوراة

جاء في سفر التكوين - الإصحاح الحادي عشر - من ١ إلى ٢٦، ذكر لمواليد سام، انتهت سلسلتها بمواليد تارح الذي ولد أبرام وناحور وهاران- وولد هاران لوطاً ومات هاران في أرض ميلاده في أور الكلدانيين.

- ثم تزوّج أبرام سراي، وناحور مَلْكة بنت هاران. وأخذ تارح أبرام ابنه

ولوطاً بن هاران وسراي كنّته وخرجوا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك. ولقد مات تارح في حاران.

- وفي الإصحاح الثاني عشر جاء أن الرب قال لأبرام «اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. وهكذا ذهب أبرام من حاران إلى أرض فلسطين إلى مكان شكيم يدعى بلوطة مورة.

- وعندئذ ظهر الرب لأبرام وقال له: لنسلك أعطي هذه الأرض». فبنى هناك مذبحاً للرب.

- ثم انتقل إلى جبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته. ثم ارتحل ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب.

- «وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر» وقبل دخوله مصر خشي على زوجته التي كانت جميلة جداً. فقال لها «إني قد علمت أنك امرأة حسنة المظهر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك. قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك». وهكذا تم فعلاً ودخلت سارة على فرعون بصفتها أخت أبرام. . .

- وبعد ذلك ضرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب سراي امرأة أبرام التي أخذها زوجة له.

- وإذ علم فرعون أن سراي هي زوجة أبرام وليست أخته وبّخه على ما فعل وأعادها إليه. ثم طرده وأخذ أبرام كل ما كان لديه وكان غنياً جداً بسبب سراي.

- (الإصحاح الثالث عشر): ارتحل أبرام من مصر عائداً إلى الجنوب إلى بيت ايل مكان خيمته الأولى ومعه لوط وكان لهما غنم وبقر وخيام.

- ولما ضاقت المراعي بمواشي أبرام ولوط تقاسما الأرض حتى لا تقع خصومة بينهما، فاختص لوط بدائرة الأردن وأبرام بقسم من أرض كنعان. وكان ذلك قبل خراب سدوم وعامورة.

- تجلى الرب لأبرام ووعده بالأرض الذي هو عليها وأقام بعدئذ في موقع بلوطات مورا في حبرون.

- (الإصحاح الرابع عشر): في أيام امرافل، ملك شنعار وثلاثة ملوك من حلفائه غزا هؤلاء الملوك أراضي ملوك سادوم وعامورة وأدمة وهبوئيم وتغلبوا عليهم، وحكموا المنطقة أربع عشرة سنة. ثم اجتمع ملك سادوم وحلفاؤه وشنوا حرباً مضادة مع كدلعومر وحلفائه أدت إلى انكسارهم فهربوا ولكن لوطاً وقع أسيراً بين أيدي كدلعومر.

- ولما وصل الخبر إلى أبرام جمع غلمانه المتمرنين وعددهم ثلاث مئة وثمانية عشر، وُلدان بيته وتبع الملوك المنتصرين إلى دان حيث كسرهم مسترجعاً لوطاً وكل الأملاك التي حصل عليها.

- بعد هذا النصر كان من بين مستقبلي أبرام ملكي صادق ملك شاليم (أورشليم) الذي أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي. وبارك أبرام.

الإصحاح الخامس عشر:

- بعد هذه الأحداث تضرع أبرام للرب كي يمنحه ولداً حتى لا يكون أليعازر الدمشقي وريثه. فوعده الرب بمولود، كما وعده بأن ملكه سيمتد من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات، إذ ينتصر على القينيين والقنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين.

وفي هذا المجال أيضاً حريّ بنا الإشارة إلى ما ورد في سفر التكوين التوراتي - الإصحاح ١٨ حيث إن يهوه التوراتي وشخصيتين قدسيتين (ملاكين) زاروا إبراهيم التوراتي الذي كان حزيناً لأن لا ولد لديه حيث يعده يهوه (الإله الزائر!) بولد سوف يأتي.

في موازاة هذه القصة نقرأ في ملحمة أقهت ابن دانيال الأجاريتية التي تعود إلى الثلث الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد أي قبل كتابة التوراة بحوالى ألف سنة، أن الإله بعل يظهر لدانيال الحزين لعدم وجود ابن لديه حيث يعده بعل بولد يسمّيه أقهت.

الفارق بين الوثيقة الأجاريتية والقصة التوراتية هو أن إبراهيم التوراتي كان يجلس أمام خيمته، فيما دانيال كان يجلس أمام بيته تبعاً لثقافة الشخصيتين.

الإصحاح السادس عشر:

ولما كانت سراي عاقراً دفعت بأبرام إلى حضن جاريته هاجر التي أتت معه من مصر فحبلت منه.

إثر هذا الحبل غارت سراي من هاجر فأوغرت صدر أبرام وأدّى به ذلك إلى عدم وجود حل لهذا الخلاف مما أدى إلى هرب هاجر نحو بلاد شور. وفي الطريق تراءى لها ملاك الرب فأمرها بالعودة إلى بيتها وتأدية واجب الطاعة إلى مولاتها سراي. وقد أنبأ ملاك الرب أنها حبلى وستلد ابناً تدعوه إسماعيل وأنه يكون إنساناً وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن. فدعت اسم الرب الذي تكلم معها «أنت ايل رئي». ودعيت البئر التي كانت عندها هاجر «بئر لحي رئي» وهي بين قادش وبارد.

ولدت هاجر ابناً دعي إسماعيل، وبعد ثلاث عشرة سنة ختن أبرام نفسه وإسماعيل وكل رجال بيته والمبتاعين بالفضة. وكان عمر أبرام وقتئذ تسعاً وتسعين سنة.

الإصحاح الثامن عشر:

- وفي سن التسع والتسعين ظهر الرب لأبرام ووعده بأن يكون أباً لجمهر من الأمم ولذلك يصبح اسمه إبراهيم بدلاً من أبرام وكذلك زوجته ساراي تدعى منذ الآن سارة. كما وعده بأن تلد له سارة ابناً يدعوه إسحق.

الإصحاح التاسع عشر:

- بعد خراب سادوم وعامورة صعد لوط إلى الجبل ومعه ابنتاه..

وهناك حسن للبنت البكر أن تضطجع مع أبيها فاضطجعت معه بعد أن أسكرته، وفي الليلة الثانية عملت مثلها البنت الأصغر فولدت البكر ولداً أسمته «مؤاب» وقد أصبح أبا المؤابيين والصغرى ولدت ابناً أسمته «بني عمي» أصبح أبا بني عمون.

الإصحاح العشرون:

- وانتقل إبراهيم إلى منطقة جرار في الجنوب ما بين قادش وشور وتغرب

في جرار، في ظل ملكها أبيمالك. ولدى أبيمالك كرر إبراهيم مع هذا الملك ما سبق أن فعله مع فرعون بالنسبة لسارة مدّعياً أنها أخته. بعد ثلاثة أيام من انتقال سارة لعند أبيمالك أوحى الله لهذا الملك بحقيقة سارة أنها زوجة إبراهيم وليست أخته فأحضره وبعد أن وبخه طرده من عنده وأعطاه غنماً وبقراً وعبيداً وإماءً. . .

الإصحاح الحادي والعشرون:

بعد ذلك حبلت سارة وولدت لإبراهيم في شيخوخته ابناً سمّاه إسحق وكان وقتئذ عمر إبراهيم مئة سنة.

رأت سارة ابن هاجر المصرية يمزح فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها وكان الله إلى جانب سارة في طلبها هذا فأذعن إبراهيم لهذا الأمر وفي الغد الباكر أعطى هاجر خبزاً وقربة ماء وطردها من بيته فمضت وتاهت في برية بئر سبع. وكان الله مع الغلام حيث شب في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر.

الإصحاح الثاني والعشرون:

بعد هذه الأحداث أراد الله امتحان إبراهيم فطلب منه أخذ ابنه إسحق إلى أرض المريا ليقدمه محرقة لله. فبادر إبراهيم إلى تنفيذ ما طلب الرب، ولكن ما إن باشر بإعداد المحرقة حتى رأى بالقرب منه خروفاً فدية من الله عن إسحق.

الإصحاح الثالث والعشرون:

- عاشت سارة مئة وسبعاً وعشرين سنة ثم ماتت فطلب إبراهيم من بني حث أن يسمحوا له بدفن زوجته في أرضهم بثمن أربع مئة شاقل من الفضة. وهكذا تم ودفنت سارة في حقل عفرون في المكفيلة، التي هي أرض حبرون في أرض كنعان.

الإصحاح الرابع والعشرون:

- بعد أن شاخ إبراهيم طلب من عبده أن يأتيه من مدينة ناحور في آرام النهرين زوجة لابنه إسحق لأنه لم يشأ أن يزوّجه من بنات كنعان وإنما بواحدة من أهل بيته.

- ذهب العبد إلى آرام النهرين، إلى مدينة ناحور حيث وقع اختياره على رفقة بنت بتوئيل ابن ملكة امرأة ناحور أخي إبراهيم وتم الوفاق برضاها أن تكون زوجة لإسحق وقبل أخوها «لابان» كما قبل أبوعل بتوئيل.

- إثر عودة العبد إلى أرض الجنوب حيث كان يقيم إسحق تعرف إلى رفقة وسرّ بها ثم تزوجها وأدخلها إلى خباء أمه...

الإصحاح الخامس والعشرون:

- وعاد إبراهيم فأخذ زوجة له اسمها قطورة فولدت له: زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا. ومن ثم أعطى إبراهيم كل ما كان له وأبعد إسحق عن بني السراري اللواتي كانت لإبراهيم، أن صرفهم شرقاً إلى أرض المشرق.

- عاش إبراهيم مئة وخمساً وسبعين سنة. بعد وفاته دفنه ابناه إسحق وإسماعيل في مغارة المكفيلة في حقل عفرون الحتي أمام ممرا ذلك الحقل الذي سبق أن اشتراه إبراهيم ودفن فيه سارة.

- لما تزوج إسحق كان له من العمر أربعون سنة. وقد ولدت له رفقة توأمين الولد الأول كان عيسو والثاني كان يعقوب.

- كبر الغلامان وكان عيسو يعرف الصيد وشديد البأس وأما يعقوب فكان هادئاً يسكن الخيام. وفي أحد الأيام أعد يعقوب طبيخاً وعند عودة عيسو طلب من أخيه أن يأكل من هذا الأحمر ولذلك دعي آدوم فاشترط عليه يعقوب أن يبيعه البكورة، فقبل عيسو زاهداً فيها.

وقد ورد في وثائق أوغاريت ذكر لما يسمّى بحق البكورة، حيث إن هذا التقليد يعبّر عن أن الابن الأكبر في العائلة له نصيب مضاعف وله وضع متميّز بالبيت والعائلة الكنعانية، لكونه هو الذي سيقدّم العون لوالديه في سن الشيخوخة وهذا التصوّر عائد إلى الخلفية الكنعانية التي تعتبر أن الابن البكر يخص الإله أي إنه يتمتع بسمات مقدسة تميّزه عن باقي الإخوة.

وتقضي الأعراف الكنعانية بأن الأب يستطيع أن يحرم ابنه البكر من حق

البكورة هذا إذا اقترف هذا الابن جريمة بحق أبيه (سرقة - عدم احترام.. الخ).

نلاحظ أن هذا التقليد الأوغاريتي نُقل إلى التوراة حين باع عيسو التوراتي البكورة ليعقوب لقاء صحن من العدس!.

الإصحاح السادس والعشرون:

- وكان في الأرض جوع فذهب إسحق إلى أبيمالك ومعه زوجته رفقة وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هي أختي، لأنه خاف أن يقول امرأتي لعل أهل المكان يقتلونه من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المظهر. ولما عرف أبيمالك بالأمر وبخه قائلاً: لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع أمرأتك فجلبت علينا ذنباً كبيراً. وإثر ذلك أوصى أبيمالك ألا يمس أحد رفقة وسمح لإسحق بالبقاء في أرض جرار حيث تعاظمت ثروته.

ولما كان عيسو ابن أربعين سنة اتخذ زوجة له يهوديت ابنة بيري الحي وبسنة ابنة إيلون الحثي فكانتا مرارة نفس لإسحق ورفقة.

الإصحاح السابع والعشرون:

- وحدث لما شاخ إسحق وكلّت عيناه عن النظر، طلب من عيسو أن يذهب إلى البرية ليتصيد له وقال له: وعند عودتك اصنع لي أطعمة وأتني بها لآكل لأني أريد أن أباركك قبل أن أموت.

- اغتنمت رفقة هذه المناسبة، وكانت تحب يعقوب أكثر من عيسو فبعد عودة عيسو بالصيد الذي تصيده في غيابه، ألقت رفقة على ذراع يعقوب جلود جديي معزى بحيث أصبح ذا شعر كثيف مثل عيسو وقدمته إلى إسحق تحت اسم عيسو ليباركه ولما لمس إسحق شعر ذراع يعقوب قال يعقوب: أنا عيسو وعند ذلك باركه.

- بعد ذلك عرف عيسو بالمؤامرة فاغتاظ وصرخ في وجه أبيه: باركني أنا أيضاً فأجاب إسحق: لقد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك وهكذا حلت البركة نهائياً على يعقوب رغم كل ما فيها من مكر.

- حقد عيسو على يعقوب وفكر في قتله فما كان من رفقة إلا أن أبعدت

يعقوب عن عيسو لعند أخيها لابان خاصة أن إسحق أوصى بألا يتزوج من بنات كنعان.

الإصحاح الثامن والعشرون:

- ولما رأى عيسو أن إسحق بارك يعقوب وأرسله إلى فدان آرام ليأخذ لنفسه من هناك زوجة، ذهب إلى إسماعيل وأخذ محله بنت إسماعيل بن إبراهيم تبايوت زوجة له على نسائه.

الإصحاح التاسع والعشرون:

- ذهب يعقوب إلى فدان آرام حيث اجتمع بلابان وتعرف إلى راحيل ابنته وأعجب بها، واشترط عليه لابان أن يخدمه سبع سنين مقابل راحيل، وبعد نفاد هذه المدة أعطاه راحيل ولكن بدلاً من أن يقدم ليلاً راحيل قدم له ليئة ولما احتج على هذه المعاملة في ما بعد قال لابان: لا يجوز أن تعطى الصغيرة قبل الكبيرة فإن كنت راغباً أيضاً في راحيل فما عليك إلا أن تخدمني سبع سنين أخرى وهكذا تم. كما أن لابان منح يعقوب جاريته زلفة إلى ابنته كما أعطى بلهة جارية لراحيل.

الإصحاح الثلاثون:

حبلت ليئة وولدت ليعقوب أربعة بنين وأما راحيل فكانت عاقراً. فألحت على يعقوب أن يدخل على جاريتها بَلْهة التي حبلت منه وولدت ابناً. وعند ذلك هدأ غضب راحيل وتوالت مواليد يعقوب من جاريته حتى حبلت راحيل وولدت يوسف واستمرت على هذا النحو ولادات أبناء يعقوب الاثني عشر وهم:

* من ليئة: راوبين، شمعون، لاوي، يهوذا، يساكر، زيلون
* من راحيل: يوسف وبنيامين
* من بلهة جارية راحيل: دان ـــــ نفتالي
* من زلفة جارية ليئة: جاد ـــــ اشير.

الإصحاح الثاني والثلاثون:

- قرر يعقوب العودة إلى بيت أبيه إسحق ولكنه كان يخشى أن يصيبه عيسو

بمكروه فقدم له مئتي عنزة وعشرين تيساً ومئتي نعجة وعشرين كبشاً مسترضياً إياه. ولما شاهد عيسو أفراد ذرية يعقوب تعجب من كثرة عددهم وتفاهما على مكان الإقامة ليعقوب وأولاده، ((مكان مسكون)).

وفي أثناء العودة صارع يعقوب إنساناً حتى طلوع الفجر. وبعد ذلك بارك هذا الإنسان يعقوب وقال له لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس.

الإصحاح السابع والثلاثون:

- وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان. وكان يوسف بفضل ذكائه وأحلامه ذا حظوة عند أبيه فحسده إخوته على ذلك وقرروا قتله. وبينما هم يرعون غنمهم أقبل عليهم يوسف وعند وصوله حاولوا رميه في بئر ولكن قافلة إسماعيلية من مديان كانت في طريقها إلى مصر فباعوا يوسف أخاهم إلى هذه القافلة بعشرين من الفضة وأتت به إلى مصر. أما إخوة يوسف فادعوا لدى أبيهم أن وحشاً رديئاً أكله.

الإصحاح الثامن والثلاثون:

- يهوذا يضطجع مع تامار كنته.

الإصحاح التاسع والثلاثون:

- سلك يوسف سلوكاً أخلاقياً ممتازاً في مصر وبفضل ذكائه تدرّج في أعلى المناصب وكان مفسّراً ماهراً للأحلام مما جعله الرجل الأول في بلاط فرعون.

الإصحاح الأربعون وما بعده:

- نزل أولاد يعقوب إلى مصر ليبتاعوا قمحاً وهناك تعرف إليهم يوسف وصفح عن الجرم الذي اقترفوه بحقه. ثم طلب والده ولما أتوا به خصّهم بأرض في جاسان ليقيموا فيها ويرعوا غنمهم. وكان عدد أفراد ذرية يعقوب من بنات وبنين ثلاثة وثلاثين.

الإصحاح الخمسون:

- وقعت وفاة يعقوب في مصر وكان قد أوصى بأن يدفن مع إبراهيم وسارة

وإسحق ورفقة. وهكذا تم فقد حنط جسده يوسف وبعد أربعين يوماً نقلوه ومن ثم وبعد سبعين يوماً كانت قد مضت على بكائه، نفذ يوسف وصية والده ونقله إلى أرض كنعان.

وفي مقاربة تاريخية فكرية لشخصية إبراهيم كما وردت في التوراة، يشير الدكتور كمال الصليبي في كتابه **خفايا التوراة** إلى وجود خمس شخصيات لإبراهيم (أبرام في التوراة) في الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة لموسى.

فهناك : أبرام العبراني - أبرام الآرامي - أبرام سفر التكوين ١٥ - أبرام الشباعة - أبرام اليمن. وتختلف الصفات وأنماط الشخصية بين هذه الأبرامات حسب الجغرافيا التاريخية التي يقترحها الباحث، حيث يصل إلى نتيجة مفادها أن التقليد الكهنوتي وهو تقليد إسرائيلي متأخر أخذ الأبرامات الخمسة فجعل منها أبراماً واحداً، حيث إن بني إسرائيل مثلهم مثل سائر الشعوب التاريخية لم يكونوا شعباً واحداً في الأصل بل مجموعة قبائل مختلفة تم توحيدها على مراحل عن طريق الالتفاف والتحالف لسبب أو لآخر. وبذا أمكن جمع التقاليد المختلفة التي كانت عليها قبائل بني إسرائيل وتم تنسيقها حتى تظهر بمظهر التقليد الواحد، وهكذا أصبح الجد الأعلى أي الأبرام لكل من العناصر المختلفة من شعب إسرائيل وهو المدعو أيضاً أبراهام في النص القائم لسفر التكوين. والذي يبدو أن قصة أبرام كما ألفتها الأدبيات الدينية تختص بأبرام سفر التكوين ١٥ حسب الدكتور صليبي.

الجدير ذكره هنا، هو أن اسم إبراهيم ورد في القرآن الكريم ٥٤ مرة، فيما ورد باسم إبراهِم فقط في سورة البقرة ١٥ مرة، ولم يرد الاسم بهذه الصيغة الكتابية (دون ياء) خارج سورة البقرة.

في المسيحية

إن أقوال المسيح في إبراهيم الخليل هي المدوّنة في الأناجيل الأربعة وما يلحق بها من أقوال الرسل والحواريين وكل ذلك إنما هو خلاصة الرسالة الجديدة

التي أتى بها السيد المسيح وأساسها المحبة. وفي ما يلي نأتي على المواقع الكتابية التي جاء فيها ذكر لإبراهيم الخليل.

١- جاء في إنجيل لوقا، الإصحاح السادس عشر: وذلك في مسألة الحياة بعد الموت فقد ضرب السيد المسيح مثل إبراهيم وألعازر والرجل الغني في العالم الآخر قال: «كان إنسان غني وكان يلبس الأرجوان والبز وهو يتنعم كل يوم في رفاهه. وكان مسكين اسمه ألعازر الذي طرح عند بابه مضروباً بالقروح، ويشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغني بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه، فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم ومات الغني أيضاً ودفن فرفع عينيه في الجحيم وهو في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد وألعازر في حضنه فنادى وقال يا أبي إبراهيم ارحمني وأرسل ألعازر ليبل طرف إصبعه بماء ويبرّد لساني لأني معذب في هذا اللهيب، فقال إبراهيم يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك ألعازر البلايا والآن هو يتعزى وأنت تتعذب، وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت حتى أن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا. فقال أسألك إذا يا أبت أن ترسله إلى بيت أبي، لأن لي خمسة إخوة حتى يشهد لهم لكي لا يأتوا هم أيضاً إلى موضع العذاب هذا. قال له إبراهيم عندهم موسى والأنبياء ليسمعوا منهم. فقال لا يا أبي إبراهيم بل إذا مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون. فقال له إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون، فما هم بمصدّقيه».

٢- وفي الإصحاح الثامن من إنجيل متى يقول السيد المسيح:

«الحق أقول لكم لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا. وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السماوات. وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية...».

٣- ومن أقوال يوحنا المعمدان:

«.. اصنعوا ثماراً تليق بالتوبة، ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم: لنا إبراهيم

أباً، لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم».

٤- ومن كلام السيد المسيح في إنجيل لوقا حيث جاء في الإصحاح الثالث عشر:

«فاني أقول لكم إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرون من بعد أن يكون رب البيت قد قام وأغلق الباب وابتدأتم تقفون خارجاً وتقرعون الباب قائلين يا رب! يا رب افتح لنا... يجيب ويقول لكم لا أعرفكم من أين أنتم حينئذ تبتدئون تقولون أكلنا قدامك وشربنا وعلمت في شوارعنا. فيقول أقول لكم لا أعرفكم من أين أنتم تباعدوا عني يا جميع فاعلي الظلم.

هناك يكون البكاء وصرير الأسنان متى رأيتم إبراهيم وإسحق ويعقوب وجميع الأنبياء في ملكوت الله وأنتم مطروحون خارجاً ويأتون من المشارق ومن المغارب ومن الشمال والجنوب ويتكئون في ملكوت الله.

«وهوذا آخرون يكونون أولين وأولون يكونون آخرين».

٥- وفي الإصحاح الثاني من إنجيل يوحنا يقول المسيح لليهود الذين آمنوا به:

«إنكم إن ثبتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي وتعرفون الحق والحق يحرركم أجابوه: إننا ذرية إبراهيم ولم نستعبد لأحد قط كيف تقول أنت إنكم تصيرون أحراراً أجابهم يسوع الحق الحق أقول لكم إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية والعبد لا يبقى في البيت إلى الأبد أما الابن فيبقى إلى الأبد.

ثم قال: لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم».

٦ - وقال بولس أكثر من مرة: إن الختان لا يجعل الإنسان ابناً لإبراهيم وإنما أبناؤه من يسلكون في خطوات الإيمان، وإن إبراهيم أب لنا جميعاً والله جعله أباً لأمم كثيرة.

هذا ما أتت به المسيحية في كتب العهد الجديد، عن إبراهيم الخليل. والملاحظ أن هذه الكتابات لم تذكر شيئاً عن سيرة إبراهيم وذريته فقد اقتصرت على اعتبار إبراهيم من أصحاب الرسالات الدينية الخالدين فاستحق بذلك

ملكوت السموات ولذلك يردد المؤمن المسيحي: «اجعلني يا الله في حضن إبراهيم»، وأما في الإسلام فقد أتى القرآن الكريم على سيرة إبراهيم بكثير من التفصيل بحيث أعطت الآيات الكريمة وصفاً كاملاً لشخصية إبراهيم الفذة.

عند الصابئة[1]

يبلغ عدد المنتمين إلى الصابئة بضعة آلاف يقيمون في الأقاليم الجنوبية من العراق، ويعتقد بعض المؤرخين أن وجودهم يرقى إلى عهد إبراهيم الخليل ومنهم فئة تحج إلى حاران التي هاجر إليها إبراهيم.

والصابئة مستقلة باللغة الدينية والكتابة الأبجدية، حروفهم تشبه الحروف النبطية ويدّعون أن لغتهم هي الآرامية.

أما معتقداتهم فهي خليط من جميع الأديان، فلا يعرف دين من الأديان إلا لهم فيه شعائر مشابهة لشعائر معتنقيه.

والمشهور عن الصابئة أنهم يوقرون الكعبة في مكة. وهم لا يؤمنون بالأنبياء إلا فرقة واحدة منهم تذكر شيت وإدريس وإبراهيم ويحيى (يوحنا المعمدان) وهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر وبالحساب والعقاب وبأن الأبرار يذهبون بعد الموت إلى عالم النور (آلمي دنهورو) وأن المذنبين يذهبون إلى عالم الظلام (آلمي دهسوخا).

وكتابهم المقدس يسمى «كنزه» فهم يقدّسونه ويخفونه، لذلك كانت المعلومات عن أسرار ديانة الصابئة قليلة جداً فيما عدا خطوطها الكبرى ومنها تقديسهم لإبراهيم الخليل.

---

(١) هنا يجب أن نميز بين الصابئة عند المؤرخين، والصابئة في التنزيل الحكيم. فالصابؤون في التنزيل الحكيم هم كل من صبأ عن ملة موسى وعيسى ومحمد (ص) أي بقية سكان أهل الأرض.

المراجع

- د. أحمد سوسة، **العرب واليهود في التاريخ**، العربي للنشر، دمشق ط١، مغفل التاريخ.
- زينون كاسيدوفسكي، **الواقع والأسطورة في التوراة**، ت: حسان إسحق، دار الأبجدية، دمشق ١٩٩٠.
- مفيد عرنوق، **التوراة والتراث السوري**، دار النضال، بيروت ١٩٨٦.
- د. بشار خليف، **مملكة ماري وفق أحدث الكشوفات الأثرية**، دار الرائي، دمشق ٢٠٠٥.
- د. بشار خليف، **العبرانيون في تاريخ المشرق العربي القديم**، دار الرائي، دمشق ٢٠٠٤.
- كتاب التوراة.
- الإنجيل.
- كمال الصليبي، **خفايا التوراة**، دار الساقي، بيروت، ط٦، ٢٠٠٦.
- إسحق شيفمان، **ثقافة أجاريت**، ت: حسان اسحاق، دار الأبجدية، دمشق ١٩٨٩.



لـوط
عليه السلام

هو لوط بن هاران بن تارح، أي أنه ابن أخ إبراهيم الخليل، حسب ما اتفق عليه أهل العهد القديم من الكتاب المقدس وعلماء الأنساب وأصحاب التواريخ (أنظر تاريخ الرسل والملوك للطبري ج١ ص ٢٩٢).

وردت قصة لوط - شأن قصص باقي الأنبياء والرسل - مبثوثة في أربعة عشر سورة من التنزيل الحكيم أولها سورة الأنعام وآخرها سورة التحريم. وورد ذكره في ٢٧ موضعاً من التنزيل الحكيم أولها في قوله تعالى ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام ٨٦)، وآخرها في قوله تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ...﴾ (التحريم ١٠).

إن أول ما يستوقفنا في العِبَر المستخلصة من قصة لوط، هو أن الله تعالى - في اصطفاء الأنبياء وبعث الرسل - لا يخضع لأي معيار زماني ومكاني. فقد يرسل نبياً واحداً لقوم بعينهم في مكان ما وزمان ما، ثم يرسل آخر إلى القوم أنفسهم في ذات المكان وإنما بعد فترة من الزمن، مثال ذلك موسى وعيسى. وقد يرسل نبيّين معاً إلى قوم في مكان بعينه وزمان بعينه ليقوما بمهمة واحدة محددة، مثال ذلك موسى وهارون. وقد يرسل سلسلة أنبياء إلى قوم في مكان واحد يتوالون واحداً بعد الآخر دون فارق يذكر في الزمن، مثال ذلك إبراهيم وإسحق ويعقوب، وقد يرسل مجموعة أنبياء في وقت واحد إلى أمكنة مختلفة وأقوام متباينة، مثال ذلك إسماعيل وإسحق ولوط.

أما ثاني العِبَر المستخلصة من قصة لوط فنجدها في قوله تعالى ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ...﴾ (التحريم ١٠)، ثم قوله تعالى بعدها مباشرة ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ...﴾ (التحريم ١١)، ثم قوله تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا...﴾ (التحريم ١٢). ونلاحظ أنه سبحانه يذكر لنا أربع نساء، فيجعل أول اثنتين منهن مثلاً للذين كفروا، ويجعل ثاني اثنتين منهن مثلاً للذين آمنوا. والسؤال الآن: لماذا يفعل سبحانه ذلك وفي الرجال عشرات من أعلام الكفر وأئمّة الإيمان كان يمكن أن يضرب بهم الأمثال؟ والجواب: هذا درس لكل من يعلي شأن الذَّكر في المجتمع ويحط من شأن الأنثى، ولكل من يجعل المرأة تابعة للرجل رهينة لإرادته، ولكل من يزعم أنها ناقصة عقل ودين وأن اللّه خلقها من ضِلْعٍ أعوج وأن المهمة الأولى والأخيرة للرجل هي تأديبها والأخذ على يدها.

أما ثالث العِبَر المستخلصة من قصة لوط كما وردت في التنزيل الحكيم فهي أن ما رأيناه عند عاد وثمود من تدمير يحل بفعل الكوارث الطبيعية عقاباً على فساد العقيدة (أي على الشرك أو على الإلحاد إطلاقاً) أصبح عقاباً على فساد العقيدة وفساد السلوك.

هذا الفساد في السلوك جاء على صور متعددة سواء في كتب الأخبار أم في التنزيل الحكيم. يقول تعالى في تنزيله الحكيم ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ...﴾ (العنكبوت ٢٨-٢٩). وينقل محمد بن جرير الطبري في تاريخه عن عمرو بن دينار قوله في تفسير آية العنكبوت ٢٨: «ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط» ص ٢٩٥ من المجلد الأول. ويقول الطبري في تفسير آية العنكبوت ٢٩: «...وأما إتيانهم ما كانوا يأتونه من المنكر في ناديهم فإن أهل العلم اختلفوا فيه فقال بعضهم: كانوا يحذفون من يمر بهم، وقال بعضهم: كانوا يتضارطون في مجالسهم. وقال

بعضهم: كان بعضهم ينكح بعضاً فيها» (نفس المرجع ج١ ص ٢٩٣)، ثم يختم الطبري قائلاً: «والصواب من القول في ذلك عندي قول من قال: عنى بالمنكر الذي كانوا يأتونه في ناديهم في هذا الموضع حذفهم من مر بهم وسخريتهم منه، للخبر الوارد بذلك عن رسول اللّه (ص). . .» (نفس المرجع ج١ ص ٢٩٥).

ونحن نفهم أن يختلف أهل العلم في تحديد المنكر الذي كان قوم لوط يأتونه في مجالسهم، فطالما اختلف هؤلاء على كل شاردة وواردة من التنزيل الحكيم، لكننا لا نفهم أبداً أن يرجّح مفسّر ومؤرخ عاقل كالطبري قولَ من قال بأنهم كانوا يحذفون المارّة ويسخرون منهم[1] ويترك قول من قال بأنهم كانوا ينكحون بعضهم بعضاً في المجالس. ولا نفهم أن يأخذ بما قاله هذا البعض أو ذاك ويترك الأخذ بما قاله التنزيل الحكيم، فماذا يقول التنزيل الحكيم على لسان لوط لقومه؟

في الآية ٢٨ من سورة العنكبوت يتحدث لوط عن فاحشة معروفة عند سامعيه بدلالة أل التعريف، من المؤكد أنهم يأتونها بدلالة كلمة (إنكم)، بشكل لم يسبقهم إليه أحد.

ثم ينتقل في الآية ٢٩ إلى التوسع في تفصيل وتوصيف الفاحشة التي ورد ذكرها في الآية السابقة مجملاً، ليشرح أنها:

١ - إتيان الذكر للذكر، ليميّزها عن باقي الفواحش كالزنا والسحاق، وهذا معنى قوله ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾.

٢ - وأنها منكر يمارس علناً في المجالس والمنتديات والأماكن العامة. وهذا معنى قوله ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾.

٣ - وأنها تصرف فاعلها عن الطريق الطبيعية التي رسمها سبحانه للتناكح بين

---

(١) الحذف : الرمي بالحصى نقفاً، بأن يجعل الحاذف الحُصيّة بين سبّابته وإبهامه وينقفها في وجه من أمامه، فإذا استعمل الحاذف الحجارة أصبح الحذف رجماً. ولقد نهى النبي (ص) عن الحذف في حديث رواه عبد الرزاق في مصنفه عن سعيد بن جبير إن صح، فانظره هناك.

الذكر والأنثى حفاظاً على النوع. وهذا معنى قوله ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾، ولقد ورد بيان ذلك صراحة في موضع آخر من التنزيل الحكيم بقوله تعالى على لسان لوط لقومه ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (الشعراء ١٦٥-١٦٦).

حين نظر المفسرون في الآية ٢٨ مسلوخة عما بعدها ظنوا أن عبارة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وصف للفاحشة التي ورد ذكرها في الآية، ومن هنا قال قائلهم: «ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط» (أنظر تاريخ الطبري ج١ ص ٢٩٣)، بينما هي في حقيقة الأمر وصف للعلنية في المجالس والمنتديات. نقول هذا ونحن نعلم أن المثلية، سواء أكانت لواطاً بين ذكر وذكر أم كانت سحاقاً بين أنثى وأنثى، هي بالأصل شذوذ تكويني في هرمونات الذكورة لدى المفعول به في اللواط، واضطراب تكويني في هرمونات الأنوثة لدى الفاعلة في السحاق، يدفع الأول إلى التماس اللذة عند ذكر مثله، ويدفع الثانية إلى تفريغ شهوانيتها عند أنثى مثلها، وهذا يعني أن اللواط كان موجوداً قبل قوم لوط بشكل غير علني وعلى الصعيد الفردي، إلا أنهم جعلوه ظاهرة عامة اجتماعية تمارس علناً في المجالس والمنتديات.

وحين نظر المفسرون في آية العنكبوت ٢٩ بعيداً عن سباقها وسياقها توهموا أنها تتحدث عن ثلاثة أفعال منكرة كل فعل منها قائم بذاته، هي: إتيان الرجال، وقطع السبيل، وإتيان المنكر في النوادي. ومن هنا قال قائلهم إن قطع السبيل هو قطع الطريق على المارة والمسافرين كما يفعل اللصوص. وأن المنكر في نواديهم هو أنهم كانوا يتضارطون.

وحين ننظر نحن في التنزيل الحكيم وهو يتحدث عن العقوبات التي أنزلها سبحانه بقوم لوط على شكل كوارث طبيعية تذكرنا بعاد وثمود:

أ - ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ (هود ٨٢).

ب - ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ (الحجر ٧٣-٧٤).

ج - ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ (القمر ٣٤).

د - ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ (القمر ٣٧).

فإننا لا نستطيع أن نقتنع بأن هذه الويلات المخيفة جاءت عقاباً على سيئة اجتماعية يصعب كثيراً أن نضعها تحت عنوان الفواحش، لأنها أقرب إلى الحسن والقبح منها إلى المعروف والمنكر في جانب، وأقرب إلى الأخلاق الاجتماعية المصطلح عليها منها إلى العقائد.

لوط عليه السلام في التوراة

جاء ذكر لوط في سفر التكوين في التوراة مقروناً بسيرة عمّه النبي إبراهيم عليه السلام حتى جاء أوان مغادرتهما لبعضهما البعض بعد أن ضاقت المراعي لمواشيهما حيث اتجه لوط نحو منطقة سدوم التي كان سكانها على قدر جيد من السوء.

جاء في سفر التكوين:

الإصحاح الحادي عشر

٢٧وَهذِهِ مَوَالِيدُ تَارَحَ: وَلَدَ تَارَحُ أَبْرَامَ وَنَاحُورَ وَهَارَانَ. وَوَلَدَ هَارَانُ لُوطًا

٢٨وَمَاتَ هَارَانُ قَبْلَ تَارَحَ أَبِيهِ فِي أَرْضِ مِيلاَدِهِ فِي أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ. ٢٩وَاتَّخَذَ أَبْرَامُ وَنَاحُورُ لأَنْفُسِهِمَا امْرَأَتَيْنِ: اسْمُ امْرَأَةِ أَبْرَامَ سَارَايُ، وَاسْمُ امْرَأَةِ نَاحُورَ مِلْكَةُ بِنْتُ هَارَانَ، أَبِي مِلْكَةَ وَأَبِي يِسْكَةَ. ٣٠وَكَانَتْ سَارَايُ عَاقِرًا لَيْسَ لَهَا وَلَدٌ. ٣١وَأَخَذَ تَارَحُ أَبْرَامَ ابْنَهُ، وَلُوطًا بْنَ هَارَانَ، ابْنَ ابْنِهِ، وَسَارَايَ كَنَّتَهُ امْرَأَةَ أَبْرَامَ ابْنِهِ، فَخَرَجُوا مَعًا مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوْا إِلَى حَارَانَ وَأَقَامُوا هُنَاكَ.

الإصحاح الثاني عشر

١وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. ٢فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً. ٣وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ». ٤فَذَهَبَ أَبْرَامُ كَمَا قَالَ لَهُ الرَّبُّ وَذَهَبَ مَعَهُ لُوطٌ. وَكَانَ أَبْرَامُ ابْنَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ. ٥فَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ امْرَأَتَهُ، وَلُوطًا ابْنَ أَخِيهِ، وَكُلَّ مُقْتَنَيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَيَا وَالنُّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ. وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوْا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ.

الإصحاح الثالث عشر

١فَصَعِدَ أَبْرَامُ مِنْ مِصْرَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ، وَلُوطٌ مَعَهُ إِلَى الْجَنُوبِ. ٢وَكَانَ أَبْرَامُ غَنِيًّا جِدًّا فِي الْمَوَاشِي وَالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ. ٣وَسَارَ فِي رِحْلاَتِهِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى بَيْتِ إِيلَ، إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَتْ خَيْمَتُهُ فِيهِ فِي الْبَدَاءَةِ، بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ وَعَايَ، ٤إِلَى مَكَانِ الْمَذْبَحِ الَّذِي عَمِلَهُ هُنَاكَ أَوَّلاً. وَدَعَا هُنَاكَ أَبْرَامُ بِاسْمِ الرَّبِّ.

٥وَلُوطٌ السَّائِرُ مَعَ أَبْرَامَ، كَانَ لَهُ أَيْضًا غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَخِيَامٌ. ٦وَلَمْ تَحْتَمِلْهُمَا الأَرْضُ أَنْ يَسْكُنَا مَعًا، إِذْ كَانَتْ أَمْلاَكُهُمَا كَثِيرَةً، فَلَمْ يَقْدِرَا أَنْ يَسْكُنَا مَعًا. ٧فَحَدَثَتْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنَ رُعَاةِ مَوَاشِي أَبْرَامَ وَرُعَاةِ مَوَاشِي لُوطٍ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ وَالْفِرِزِّيُّونَ حِينَئِذٍ سَاكِنِينَ فِي الأَرْضِ. ٨فَقَالَ أَبْرَامُ لِلُوطٍ: «لاَ تَكُنْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ رُعَاتِي وَرُعَاتِكَ، لأَنَّنَا نَحْنُ أَخَوَانِ. ٩أَلَيْسَتْ كُلُّ الأَرْضِ أَمَامَكَ؟ اعْتَزِلْ عَنِّي. إِنْ ذَهَبْتَ شِمَالاً فَأَنَا يَمِيناً، وَإِنْ يَمِيناً فَأَنَا شِمَالاً».

١٠فَرَفَعَ لُوطٌ عَيْنَيْهِ وَرَأَى كُلَّ دَائِرَةِ الأُرْدُنِّ أَنَّ جَمِيعَهَا سَقْيٌ، قَبْلَمَا أَخْرَبَ الرَّبُّ سَدُومَ وَعَمُورَةَ، كَجَنَّةِ الرَّبِّ، كَأَرْضِ مِصْرَ. حِينَمَا تَجِيءُ إِلَى صُوغَرَ. ١١فَاخْتَارَ لُوطٌ لِنَفْسِهِ كُلَّ دَائِرَةِ الأُرْدُنِّ، وَارْتَحَلَ لُوطٌ شَرْقاً. فَاعْتَزَلَ الْوَاحِدُ عَنِ الآخَرِ. ١٢أَبْرَامُ سَكَنَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَلُوطٌ سَكَنَ فِي مُدُنِ الدَّائِرَةِ، وَنَقَلَ خِيَامَهُ إِلَى سَدُومَ. ١٣وَكَانَ أَهْلُ سَدُومَ أَشْرَاراً وَخُطَاةً لَدَى الرَّبِّ جِدًّا.

الإصحاح الرابع عشر

١وَحَدَثَ فِي أَيَّامِ أَمْرَافَلَ مَلِكِ شِنْعَارَ، وَأَرْيُوكَ مَلِكِ أَلاَّسَارَ، وَكَدَرْلَعَوْمَرَ مَلِكِ عِيلاَمَ، وَتِدْعَالَ مَلِكِ جُويِيمَ، ٢أَنَّ هؤُلاَءِ صَنَعُوا حَرْبًا مَعَ بَارَعَ مَلِكِ سَدُومَ، وَبِرْشَاعَ مَلِكِ عَمُورَةَ، وَشِنْآبَ مَلِكِ أَدْمَةَ، وَشِمْئِيبَرَ مَلِكِ صَبُويِيمَ، وَمَلِكِ بَالَعَ الَّتِي هِيَ صُوغَرُ. ٣جَمِيعُ هؤُلاَءِ اجْتَمَعُوا مُتَعَاهِدِينَ إِلَى عُمْقِ السِّدِّيمِ الَّذِي هُوَ بَحْرُ الْمِلْحِ. ٤اِثْنَتَيْ عَشَرَةَ سَنَةً اسْتُعْبِدُوا لِكَدَرْلَعَوْمَرَ، وَالسَّنَةَ الثَّالِثَةَ عَشَرَةَ عَصَوْا عَلَيْهِ. ٥وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ أَتَى كَدَرْلَعَوْمَرُ وَالْمُلُوكُ الَّذِينَ مَعَهُ وَضَرَبُوا الرَّفَائِيِّينَ فِي عَشْتَارُوثَ قَرْنَايِمَ، وَالزُّوزِيِّينَ فِي هَامَ، وَالإِيمِيِّينَ فِي شَوَى قَرْيَتَايِمَ، ٦وَالْحُورِيِّينَ فِي جَبَلِهِمْ سَعِيرَ إِلَى بُطْمَةِ فَارَانَ الَّتِي عِنْدَ الْبَرِّيَّةِ. ٧ثُمَّ رَجَعُوا وَجَاءُوا إِلَى عَيْنِ مِشْفَاطَ الَّتِي هِيَ قَادِشُ. وَضَرَبُوا كُلَّ بِلاَدِ الْعَمَالِقَةِ، وَأَيْضًا الأَمُورِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي حَصُّونَ تَامَارَ.

٨فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ، وَمَلِكُ عَمُورَةَ، وَمَلِكُ أَدْمَةَ، وَمَلِكُ صَبُويِيمَ، وَمَلِكُ بَالَعَ، الَّتِي هِيَ صُوغَرُ، وَنَظَمُوا حَرْبًا مَعَهُمْ فِي عُمْقِ السِّدِّيمِ. ٩مَعَ كَدَرْلَعَوْمَرَ مَلِكِ عِيلاَمَ، وَتِدْعَالَ مَلِكِ جُويِيمَ، وَأَمْرَافَلَ مَلِكِ شِنْعَارَ، وَأَرْيُوكَ مَلِكِ أَلاَّسَارَ. أَرْبَعَةُ مُلُوكٍ مَعَ خَمْسَةٍ. ١٠وَعُمْقُ السِّدِّيمِ كَانَ فِيهِ آبَارُ حُمَرٍ كَثِيرَةٌ. فَهَرَبَ مَلِكَا سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَسَقَطَا هُنَاكَ، وَالْبَاقُونَ هَرَبُوا إِلَى الْجَبَلِ. ١١فَأَخَذُوا جَمِيعَ أَمْلاَكِ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَجَمِيعَ أَطْعِمَتِهِمْ وَمَضَوْا. ١٢وَأَخَذُوا لُوطاً ابْنَ أَخِي أَبْرَامَ وَأَمْلاَكَهُ وَمَضَوْا، إِذْ كَانَ سَاكِنًا فِي سَدُومَ.

١٣فَأَتَى مَنْ نَجَا وَأَخْبَرَ أَبْرَامَ الْعِبْرَانِيَّ. وَكَانَ سَاكِنًا عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا الأَمُورِيِّ، أَخِي أَشْكُولَ وَأَخِي عَانِرَ. وَكَانُوا أَصْحَابَ عَهْدٍ مَعَ أَبْرَامَ. ١٤فَلَمَّا سَمِعَ أَبْرَامُ، أَنَّ أَخَاهُ سُبِيَ جَرَّ غِلْمَانَهُ الْمُتَمَرِّنِينَ، وِلْدَانَ بَيْتِهِ، ثَلاَثَ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَتَبِعَهُمْ إِلَى دَانَ. ١٥وَانْقَسَمَ عَلَيْهِمْ لَيْلاً هُوَ وَعَبِيدُهُ فَكَسَّرَهُمْ وَتَبِعَهُمْ إِلَى حُوبَةَ الَّتِي عَنْ شِمَالِ دِمَشْقَ. ١٦وَاسْتَرْجَعَ كُلَّ الأَمْلاَكِ، وَاسْتَرْجَعَ لُوطاً أَخَاهُ أَيْضًا وَأَمْلاَكَهُ، وَالنِّسَاءَ أَيْضًا وَالشَّعْبَ.

إن قصة لوط في التوراة تتشابه مع القصة القرآنية، غير أنها تفترق عنها في أن القصة التوراتية لم تشر إلى عرض لوط بناته على القوم الراغبين بالرجال المرد \ الملائكة \.

ويخلو كتاب الإنجيل من ذكر النبي لوط إلا فيما ورد في إنجيل لوقا حيث يرد :

الإصحاح السابع عشر

٢٦وَكَمَا كَانَ فِي أَيَّامِ نُوحٍ كَذلِكَ يَكُونُ أَيْضًا فِي أَيَّامِ ابْنِ الإِنْسَانِ: ٢٧كَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيُزَوِّجُونَ وَيَتَزَوَّجُونَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ دَخَلَ نُوحٌ الْفُلْكَ، وَجَاءَ الطُّوفَانُ وَأَهْلَكَ الْجَمِيعَ. ٢٨كَذلِكَ أَيْضًا كَمَا كَانَ فِي أَيَّامِ لُوطٍ: كَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيَشْتَرُونَ وَيَبِيعُونَ، وَيَغْرِسُونَ وَيَبْنُونَ. ٢٩وَلكِنَّ الْيَوْمَ الَّذِي فِيهِ خَرَجَ لُوطٌ مِنْ سَدُومَ، أَمْطَرَ نَارًا وَكِبْرِيتًا مِنَ السَّمَاءِ فَأَهْلَكَ الْجَمِيعَ. ٣٠هكَذَا يَكُونُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ يُظْهَرُ ابْنُ الإِنْسَانِ. ٣١فِي ذلِكَ الْيَوْمِ مَنْ كَانَ عَلَى السَّطْحِ وَأَمْتِعَتُهُ فِي الْبَيْتِ فَلاَ يَنْزِلْ لِيَأْخُذَهَا، وَالَّذِي فِي الْحَقْلِ كَذلِكَ لاَ يَرْجِعْ إِلَى الْوَرَاءِ. ٣٢اُذْكُرُوا امْرَأَةَ لُوطٍ! ٣٣مَنْ طَلَبَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ أَهْلَكَهَا يُحْيِيهَا. ٣٤أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ يَكُونُ اثْنَانِ عَلَى فِرَاشٍ وَاحِدٍ، فَيُؤْخَذُ الْوَاحِدُ وَيُتْرَكُ الآخَرُ. ٣٥تَكُونُ اثْنَتَانِ تَطْحَنَانِ مَعًا، فَتُؤْخَذُ الْوَاحِدَةُ وَتُتْرَكُ الأُخْرَى. ٣٦يَكُونُ اثْنَانِ فِي الْحَقْلِ، فَيُؤْخَذُ الْوَاحِدُ وَيُتْرَكُ الآخَرُ». ٣٧فَأَجَابوا وَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ يَارَبُّ؟» فَقَالَ لَهُمْ: «حَيْثُ تَكُونُ الْجُثَّةُ هُنَاكَ تَجْتَمِعُ النُّسُورُ».

الحقيقة العلمية الجيولوجية والأثرية لموقع سدوم وعمورة

تُعتبر منطقة البحر الميت أو بحيرة لوط منطقة زلزالية نشطة أي منطقة زلازل وهي تقع في صدع تكتوني متجذر ويمتد هذا الوادي ٣٠٠ كم على طول الوتر الواصل بين البحر الميت وبحيرة طبريه شمالاً إلى منتصف وادي عربة جنوباً.

يقول عالم الآثار الألماني ورنر كيلر: غاص وادي سديم الذي يتضمن سدوم

وعمورة مع الشق العظيم الذي يمر تماماً في هذه المنطقة في يوم واحد إلى أعماق سحيقة. حدث هذا الدمار بفعل هزة أرضية عنيفة صاحبتها عدة انفجارات، وأضواء نتج عنها غاز طبيعي وحريق شامل.

ولاحظ من خلال دراساته الجيولوجية والأثرية أن مدينتي سدوم وعمورة كانتا تقعان في وادي سديم.

وقد قامت عدة فرق تنقيبية متخصصة بدراسة المكان وتعرّفت على تلك القرى التي احترقت بحرارة رهيبة وصلت إلى ٥٠٠٠ درجة مئوية حوّلت معها كل شيء حتى الذهب والزجاج وجدران المباني إلى رماد.

وتوصلت إلى أن الموقع الصحيح للقرية التي حصلت فيها الكارثة هو قرية سدوم عند سفح جبل سدوم في الضفة الجنوبية للبحر الميت.

وقد تم اكتشاف مصكوكات ذهبية متحولة لأملاح الذهب بسبب احتراق الذهب بالنيران الحارقة التي ابتلعت المكان وحولت الذهب بمختلف استخداماته إلى رماد الذهب.

ويشير خبراء الجيولوجيا أن المنطقة قد حصل لها زلزال عنيف مكن المواد الجوفية للأرض كاللافا المنصهرة من الصعود إلى الأعلى بعد تشقق الأرض بسبب عنف الزلزال ليدخل على المكان ويصهره تماماً، فلقد اكتشف المسّاحون بعض المواد الأسفلتية (bitumen) والنفطية (petroleum) والغاز الطبيعي (natural gas) والكبريت (sulfur). تلك القرى تقع تماماً على الخط الصدعي الفاصل (major fault line) بين الصدعين العربي والأفريقي والواقع تماماً إلى الشرق من البحر الميت.

يقول كيلر: «تحررت القوى البركانية التي كانت هامدة في الأعماق على طول الصدع من ذلك الغور، ولا تزال فوّهات البراكين الخامدة تبدو ظاهرة في الوادي العلوي من الضفة الغربية، بينما تترسب هنا الحمم البركانية وتتوضع طبقات عميقة من البازلت على مساحة واسعة من السطح الكلسي.

تدل هذه الحمم المتحجرة وطبقات البازلت على تعرّض هذه المنطقة لهزّة

عنيفة وبركان ثائر في زمن من الأزمنة، وتبدو هذه الكارثة بالسياق القرآني ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ فالقرآن يشير، على أغلب الظن إلى هذا الانفجار البركاني».

الدلائل البيّنة والآيات الواضحة التي تظهر في بحيرة لوط مثيرة للغاية. بشكل عام تقع كل الأحداث التي يرويها القرآن في الشرق الأوسط، الجزيرة العربية ومصر، في منتصف هذه المناطق تماماً تقع بحيرة لوط. وقد أثارت بحيرة لوط والمناطق المجاورة لها اهتمام الجيولوجيين، إذ تنخفض هذه البحيرة ٤٠٠ متراً عن سطح البحر الأبيض المتوسط، وبما أن أخفض نقطة في هذه البحيرة تغوص حتى ٤٠٠ متراً عن سطحها، إذن فقاع البحيرة يكون بانخفاض ٨٠٠ متراً عن سطح البحر، وهذه أخفض نقطة على وجه الأرض، لا يتعدى عمق المناطق المنخفضة عن سطح البحر في البحر أكثر من ١٠٠ متر. الخاصّية الأخرى التي تختص بها هذه البحيرة دون غيرها هي الكثافة الملحية فيها والتي تبلغ ٣٠٪، ولا تسمح هذه النسبة لأي نوع من الكائنات البحرية مثل الأسماك، والطحالب، والإشنيات وما إلى ذلك بالعيش فيها، ولهذا سُمّيت بالبحر الميت.

وحسب التقديرات: فإن قصة قوم لوط التي يرويها القرآن تعود إلى ١٨٠٠ قبل الميلاد، من أكثر الخصائص البنيوية لهذه البحيرة هو ذلك الدليل الذي يظهر واقعة الدمار كما رواها القرآن.

تبدو آثار قوم لوط واضحة... عندما تبحر في قارب عبر بحيرة لوط إلى أقصى نقطة جنوباً، وعندما تكون الشمس مرسلة أشعتها باتجاه اليمين، سترى شيئاً مذهلاً، على بعد معيّن من الشاطئ، وتحت ماء البحر الصافي تظهر حدود الغابات التي حفظتها ملوحة البحر الميت بشكل واضح: أغصان قديمة جداً، وجذور ضاربة في القدم تحت المياه الخضراء المتلألئة.

كان من المعتقد أن تدمير سدوم وعمورة من الأمور الخيالية. حتى كشف الدليل الأثري أن الخمس مدن المذكورة بالتوراة كانت بالفعل مراكز تجارية نشطة بالمنطقة، وكانت مواقعها الجغرافية هي بالضبط كما وصف الكتاب المقدس.

وكذلك يظهر أن وصف التوراة لنظام الحكم يبدو أنه ليس أقل دقة. تشير الأدلة أيضاً إلى تواجد نشاط بركاني، وأن طبقات الأرض المختلفة قد انفجرت وتشتّتت عالياً في الهواء. فالبيتوفين منتشر بدرجة عالية هناك، والوصف الدقيق يبرهن على أن الكبريت (أحد مخلّفات البيتوفين) قد سقط على تلك المدن التي تحدّت لوط بقولها له ﴿... ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ (العنكبوت ٢٩).

المراجع:

- كتاب التوراة - كتاب الإنجيل.



إسماعيل وإسحق

عليهما السلام

هو إسماعيل بن إبراهيم بن تارح (أُمُّه هاجر)، رسول اللّه ونبيّه بدلالة قوله تعالى ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا * وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ (مريم ٥٤-٥٥). ورد ذكره في اثنى عشر موضعاً من التنزيل الحكيم، أولها في قوله تعالى ﴿...وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (البقرة ١٢٥)، وآخرها في قوله تعالى ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ (ص ٤٨).

أما إسحق فهو ابن إبراهيم بن تارح (أُمُّه سارة)، نبيّ اللّه بدلالة قوله تعالى ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الصافات ١١٢). ورد ذكره في سبعة عشر موضعاً من التنزيل الحكيم أولها في قوله تعالى ﴿...قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (البقرة ١٣٣)، وآخرها في قوله تعالى ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ (ص ٤٥).

لقد ارتبط ذكر إسماعيل (ع) في التنزيل الحكيم، كنبيّ، بمسألتين: الأولى، تطهير البيت المحرّم مما يدنّسه من أوثان وأقذار، ورفع ما فيه من إشغالات ليعود - كما أراد اللّه له - مكاناً للطواف والاعتكاف وإقامة الصلاة. والثانية، تحريم تقديم القرابين البشرية فيه كما كان سائداً، واستبدالها بقرابين حيوانية ونباتية.

هاتان المسألتان تحققتا على يد إبراهيم وكان لإسماعيل فيهما دور أساسي وهامّ شرحناه في قصة إبراهيم بالتفصيل. كما ارتبط اسمه بالزكاة التي نجدها تذكر معه لأول مرة في التنزيل الحكيم مقرونة بالصلاة في الآية ٥٥ من سورة مريم، ولم تذكر مع أي من غيره من الأنبياء والرسل السابقين. ولهذا جمع فيه سبحانه النبوّة والرسالة بصراحة حرفية واضحة في الآية ٥٤ من سورة مريم. بينما لم يزد وصف إسحق في جميع المواضع التي ذكر فيها أنه نبي مهدي صالح يوحى إليه.

إننا - بمنتهى المرارة - لم نجد أحداً من أهل الأخبار ولا من أصحاب كتب قصص الأنبياء استوقفه ذكر الزكاة لأول مرة في التنزيل الحكيم وهو يتحدث عن إسماعيل، ولم نجد أحداً استوقفه الرقم ١٢ في أخبار عدد من الأنبياء والرسل أولهم إسماعيل:

١ - ذكر إسماعيل في مواضع من التنزيل الحكيم عددها	١٢
٢ - رزق إسماعيل من الأبناء الذكور	١٢
٣ - كان عدد أبناء يعقوب بما فيهم يوسف	١٢
٤ - أسباط بني إسرائيل عددهم	١٢
٥ - عدد العيون التي انبجست لموسى من الحجر	١٢
٦ - أصحاب المسيح من الحواريين كانوا	١٢
٧ - عدد أئمة الشيعة بعد العصر النبوي كان	١٢
٨ - خلق اللّه السموات والأرض في ستة أيام، أي نصف العدد	١٢
٩ - كفّارة الظهار إطعام ستين مسكيناً، أي خمسة أضعاف العدد	١٢
١٠ - أقسام الزمان، كعدد شهور السنة مثلاً هي	١٢
١١- أقسام المكان (الكرة الأرضية والقبة السماوية) ٣٦٠ من مضاعفات الرقم	١٢

وغيرها مما يضيق المجال عن حصره.

لقد صرفهم عن هذا كله الاشتغال بما شغل به هامانات بني إسرائيل في تواريخهم وتفاسيرهم. فإذا نحن تصفّحنا كتب التاريخ - كالبداية والنهاية لابن

كثير وتاريخ الرسل والملوك للطبري - وكتب قصص الأنبياء في أخبار إسماعيل وإسحق، وجدناها لا تخرج إلا فيما ندر عن ثلاثة محاور رئيسية:

الأول، من منهما كان بِكر أبيه إبراهيم، إسماعيل ابن هاجر أو إسحق ابن سارة؟

الثاني، من منهما كان الذبيح المفتدى، الذي خاطبه إبراهيم بقوله ﴿قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ (الصافات ١٠٢)؟.

الثالث، المحاولات البائسة للتوفيق بين الأخبار المتعارضة بعد أن انقسم المفسرون إلى قسمين وهم يجيبون عن السؤالين السالفين، ولإزالة التناقض بين الأحاديث النبوية التي يحتج بها كل قسم تأييداً لمذهبه.

نحن أمام قصتين ترويان أخبار إسماعيل وإسحق وأبيهما إبراهيم، الأولى قرآنية نجد بعض تفاصيلها مبثوثة في آيات اثنتي عشرة سورة من التنزيل الحكيم بالنسبة لإسماعيل وإسحق، وفي آيات خمس وعشرين سورة بالنسبة لإبراهيم، والثانية توراتية نجدها في سبعة عشر إصحاحاً من سفر التكوين في العهد القديم من الكتاب المقدس. وأمام قصة ثالثة هجينة لا هي بالقرآنية ولا بالتوراتية نجدها في كتب التفسير عند أهل التوراة كالتلمود بقسميه: المشنا والجمارا.

إننا حين نلتزم القصة القرآنية في مسألة البكر والذبيح - بحكم انتمائنا العقائدي - لا يهمّنا مطلقاً أن نبرهن على تحريف التوراة، لفظاً أو تأويلاً أو توظيفاً، الذي تناوله عدد من الباحثين الإسلاميين وغير الإسلاميين بالكثير من التفصيل، بقدر ما يهمّنا أن نبيّن العظات والعِبر التي أمرنا سبحانه أن نلتمسها في القصة القرآنية بقوله تعالى ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ...﴾ (يوسف ١١١)، وأن نشرح كيف غابت هذه العبر وتلك العظات عن أهل التفسير وأصحاب التواريخ وهم يحشون كتبهم بإسرائيليات تلمودية تحت غطاء حديث نبوي رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو - إن صحّ - أن النبي (ص) قال: «بلّغوا عني ولو آية وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده في النار».

رغم الإيجاز الشديد في القصة القرآنية، والاجتناب المقصود للتفاصيل في أسماء الأماكن والأشخاص، والابتعاد عن التراتبية الزمانية في وقوع الأحداث، إلا أنها تقرر عدداً من الثوابت التي لا يسع القارئ إلا أن يأخذها بعين الاعتبار، فلا يتجاهلها ولا يغفل عنها، وهو يقرأ القصة ليفهمها أولاً على الوجه الذي ينبغي له أن يفهمها عليه، وليقف ثانياً على ما فيها من عبر وعظات ومقاصد.

يقول تعالى على لسان إبراهيم ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ...﴾ (إبراهيم ٣٧). ونفهم من هذا الجزء الأول من الآية عدداً من الأمور، أولها: قوله (أسكنت). وكأني بإبراهيم - وهو يستخدم هذه الكلمة بالذات بما فيها من معاني السكينة والاستقرار - يشعر بأنه ليس مجرد عابر سبيل لهذه البقعة من الأرض وأنها ليست مجرد محطة مؤقتة سيتركها كما ترك قبلها العديد من المحطات في رحلة بحثه عن ربه. ثانيها: قوله (من ذرّيتي). ونفهم أن لإبراهيم أولاداً - لعل من بينهم إسحق - لم يأت بهم معه، ثالثها: قوله (بواد غير ذي زرع) ونفهم أن المنطقة التي أسكن بها إبراهيم بعض ذريته هي واد قاحل لانبات فيه ولا يمكن زراعة أي شيء فيه لانعدام أهم لوازم الزراعة من تربة وماء. ولكنه مع ذلك ليس برّية جرداء لا أناس فيها، وإلا لما خطر لإبراهيم أن يطمئن فيها ويستقر. فإبراهيم أولاً وآخراً ليس ذئباً متوحداً يعشق التفرد والانعزال، بل هو إنسان اجتماعي بطبعه لا يتحقق له الاطمئنان والاستقرار إلا بين أمثاله من الناس. ولو كانت المسألة عنده مجرد برية مجدبة جافة مهجورة لا أحد فيها لوجد ضالّته في واحدة من عشرات البراري التي اجتازها قبل وصوله إلى هناك. المنطقة - إذن - واد غير ذي زرع لكنه مأهول بالناس. وهذا يجعل كلمة (أسكنت) تأتي في سياقها الصحيح. والسؤال الآن: ما الذي حوَّل هذا الوادي القاحل إلى مكان مأهول، والمعروف عن الجماعات الإنسانية - منذ كانت جماعات بشرية - أنها لا تلتمس لمقامها إلا الخصب من الأراضي المروية؟ والجواب يأتي في رابع الأمور التي تستوقفنا في الجزء الأول من آية إبراهيم ٣٧، أي في قوله (عند بيتك المحرّم)، فنحن أمام بيت مُعَرَّف بالإضافة

والكاف فيه تعود إلى اللّه، وأمام صفة لهذا البيت مُعَرَّفة بأل التعريف معناها المقدّس المنزّه عن كل ما يصيب ويشين. ونفهم أن ثمة بيتاً مقدساً للّه في الوادي القاحل معروفاً عند الناس، أرشد اللّه إبراهيم إليه وأمره بتطهيره.

ويقول تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ * فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا...﴾ (آل عمران ٩٦-٩٧). فإذا جمعنا ذلك إلى قوله تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (الحج ٢٦)، وإلى قوله تعالى ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ...﴾ (المائدة ٩٧)، وضح لدينا بما لا يقبل الشك الموقع الجغرافي لبيت اللّه المحرّم الذي أسكن إبراهيم عنده بعض ذرّيته في واد غير ذي زرع.

يقول تعالى على لسان إبراهيم ﴿...وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (العنكبوت ٢٦). من هنا تبدأ قصة رحلة رجل عرف أن له رباً ليس كباقي الأرباب عليه أن يهاجر إليه بعد أن لقي من قومه ما لقي من صنوف الصد والإعراض والأذى، ونقف متأملين عند كلمة (مهاجر).

الهاء والجيم والراء (هـ ج ر) أصل ثلاثي في اللسان ومفردة قرآنية وردت مشتقاتها في واحد وثلاثين موضعاً من التنزيل الحكيم، أولها في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ...﴾ (البقرة ٢١٨)، وآخرها في قوله تعالى ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ (المدثّر ٥). والهَجْر بفتح الهاء هو القطع خلاف الوصل ومنه قوله تعالى ﴿...وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ...﴾ (النساء ٣٤)، وهو الترك خلاف الملازمة ومنه قوله تعالى على لسان آزر لربيبه إبراهيم ﴿...وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ (مريم ٤٦)، وهو الانتقال من مكان لآخر ومن بلدة إلى أخرى ومنه قوله تعالى ﴿...قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا...﴾ (النساء ٩٧).

يقول تعالى على لسان إبراهيم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ

وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ (إبراهيم ٣٩) ونفهم أن إبراهيم دعا ربه فوهبه ابنين هما إسماعيل وإسحق، ولم يذكر التنزيل الحكيم صراحة أيهما بكر أبيه، لكننا نلاحظ في كل موضع ذكرا فيه معاً أن اسم إسماعيل يسبق دائماً اسم إسحق، وهذا إن لم يكن دليلاً على أن إسماعيل هو البكر، إلا أنه مؤشر أول.

المؤشر الثاني يأتينا من الأخبار التاريخية التي تؤيدها إشارات نجدها في آيات القصص من جانب وتنسجم مع طبائع الأمور والأحداث من جانب آخر. فلا خلاف بين أهل الأخبار على أن زوجة إبراهيم الأولى كانت عجوزاً عقيماً لا تلد[1]، وأنها أهدت جاريتها لزوجها لعلها تنجب له ولداً، وهذا ماحصل فعلاً، فكان المنطق المعقول يقضي بأن يكون ابن الجارية هو بكر أبيه.

يقول تعالى ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ. . .﴾ (هود ٧١-٧٣). ولم تقتصر البشرى بمولد إسحق على الأم الوالدة فقط، بل نجد بشارة مماثلة تحملها رسل الله إلى الأب الوالد في قوله تعالى ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الصافات ١١٢).

ويقول تعالى ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ (الحجر ٥٣) ويقول في موضع آخر ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ (الصافّات ١٠١). ونفهم أن الغلام في الآية الأولى غير الغلام في الآية الثانية بدلالتين. الأولى، هي السباق والسياق. فالناظر في آيات الحجر (٥١-٥٦) وفي آيات الصافات (٩٩-١٠٨) يشعر

(١) هنا علينا أن نبيّن الفرق بين العقيم والعاقر، فالعقيم هو وضع لا أمل منه، والمرأة العجوز تبلغ وضع العقم لأنها لا تلد ولا يوجد عندها دورة شهرية (بويضات) لذا قالت امرأة إبراهيم (عجوز عقيم). بينما العاقر عندها مانع من الحمل، وقد تكون شابة كزوجة زكريا لذا قال عنها ﴿فأصلحنا له زوجه﴾ بينما قال عن امرأة إبراهيم ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ثم أتبعها بالآية التي قبلها بقوله ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾. وعند العرب عندما تأتي الدورة الشهرية لإمرأة فإنها تفرح لأنها ما زالت ولوداً، فهنا (ضحكت) أي جاءها الطمث ومباشرة قال ﴿فبشرناها بإسحق﴾.

بوضوح أن الحديث يدور على غلامين مختلفين في سياقين مختلفين. والثانية أن الغلام الأول في آية الحجر عليم، والإشارة هنا واضحة إلى إسحق لأن النبوّة علوم وإسحق نبي بدلالة آية الصافات ١١٢. أما الغلام الثاني في آية الذاريات ١٠١ فحليم، والإشارة هنا واضحة إلى إسماعيل لأن الحلم - كصفة إنسانية - يعني الصبر على الشدائد وإسماعيل من الصابرين بدلالة قوله تعالى ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنبياء ٨٥)، وبدلالة قوله تعالى على لسان إسماعيل لأبيه ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الصافات ١٠٢).

في ضوء هذه الثوابت ننظر في الآيتين ١ و ٢ من الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين لنجدهما تقولان: «وحدث بعد هذه الأمور أن اللّه امتحن إبراهيم. فقال له يا إبراهيم فقال ها أنذا. فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق وإذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك إلى محرقة على أحد الجبال الذي أقول له». أهـ.

ثمة أمور ثلاثة في الآيتين التوراتيتين المذكورتين أعلاه تستحق الوقوف عندها. أولها، أن إسحق وحيد أبيه المحبوب. ثانيها، أنه الذبيح المفتدى. ثالثها أن مسرح أحداث امتحان اللّه لإبراهيم هو في أرض فلسطين.

بالنسبة للأمر الأول، تقول الآية ١٨ و ١٩ من الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين في العهد القديم: «قال إبراهيم للّه ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال اللّه بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحق...» أهـ. أضف إلى ذلك أن الآية ١٧ من الإصحاح نفسه تقرر أن عمر إبراهيم كان مئة سنة حين رزقه اللّه بإسحق، والآية ١٦ من الإصحاح السادس عشر تقرر أن عمره كان ٨٦ سنة حين ولدت له هاجر إسماعيل. وهذا كله يناقض ما قررته الآيتان ١ و ٢ من الإصحاح الثاني والعشرين من أن إسحق وحيد أبيه. لكن لأهل التلمود رأياً مسكوتاً عنه يبرر عندهم هذا التناقض الواضح في كتابهم المقدس.

هذا الرأي يتجسد في نقطتين. أولاهما، أن المجتمع اليهودي - في كل

زمان ومكان - مجتمع أمومة يقوم على رابطة الرحم وليس على رابطة النسب، أي أن يهودية الأم هي التي تقرر يهودية الأبناء وهي التي تعطيهم الحق بأن يكونوا من شعب اللّه المختار. الثانية، أن المجتمع اليهودي - أيضاً في كل زمان ومكان - يقوم على تمييز طبقي متطرّف حادّ من جانب، وعلى تمييز عقائدي متطرف حاد من جانب آخر. من هنا كان إسماعيل عندهم نبياً من الدرجة الثانية، لأن أمه جارية مملوكة من جهة، وغير يهودية من جهة ثانية، ولا يمكن أن يخصه ربه بمثل هذه المكرمة العظيمة، ونقرأ نص الآيتين ٢٠ و ٢١ من الإصحاح السابع عشر: «وأما إسماعيل فقد سمحت له فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً، إثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة. ولكن عهدي أقيمه مع إسحق الذي تلده له سارة. . .» أهـ.

كان لا بدّ - بالنسبة للأمر الثاني والثالث - وهم يحاولون طمس دور إسماعيل إلى جانب أبيه عند بيت اللّه المحرّم، وفضله في حفر زمزم، وفضل أمه هاجر في إرساء شعيرة السعي بين الصفا والمروة، وفضله في تطهير البيت العتيق للطائفين والعاكفين والركع السجود، ثم فضله في الصبر على أمر اللّه وفي طاعته لأبيه وهو يأخذ بناصيته ليذبحه قرباناً لربه. وكان لا بدّ وهم يحاولون رد الاعتبار لإسحق بعد أن اختار تعالى إسماعيل للدخول في امتحان وصفه اللّه سبحانه بأنه البلاء المبين في آية الصافات ١٠٦، من أن يبدلوا مسرح الأحداث فيجعلوه على قمة أحد جبال أرض المريا في الشام، وليس في واد غير ذي زرع عند بيت اللّه المحرّم في مكة من أرض العرب، غير عابئين بالإجابة عن سؤال ينتج بالضرورة عن هذا التبديل: كيف يمكن لإبراهيم أن يتواجد بوقت واحد في مكانين متباعدين يفصل بينهما جبال ووديان وبراري، مع إسحق وسارة في أرض الشام ومع إسماعيل وهاجر في أرض العرب؟ الطريف أن أصحاب التواريخ وأهل التفسير من الأمة المحمدية هم الذين تطوعوا من عندهم بالإجابة عن هذا السؤال وحل هذه الإشكالية. يقول الإمام الطبري في تاريخ الرسل والملوك (ج١ ص ٢٧٣): «كان إبراهيم فيما يقال إذا زارها - يعني هاجر - حُمل على البُراق

يغدو به من الشام فيقبل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ معه السعي (أي إسحق) وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته أُري في المنام أنه يذبحه» أهـ.

هذا التبديل في مسرح الأحداث نتج عنه أمران خطيران. الأول، أنه سلخ مسألة تقديم القرابين - كشعيرة من شعائر الحج - عن مكانها الأصلي. فالإحرام والطواف والسعي ورمي الجمرات والوقوف بعرفة وتقديم الأضاحي شعائر تنتظم كلها في سلك واحد هو الحج، وتجري كلها في مكان واحد هو مكة. والثاني أنه جرّد قصة الذبح والافتداء من دلالتها على تحريم تقديم القرابين البشرية - ولأول مرة في تاريخ الإنسانية - في بيت اللّه المحرّم بمكة الذي يصفه تعالى بقوله ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا. . .﴾ (آل عمران ٩٧). إذ لا يعقل أن يحرّم اللّه تقديم القرابين البشرية في أول بيت وضع للناس بدلالة حدثٍ جرى في جبال الشام على يد إسحق.

مرة أخرى نعود لنشير إلى أننا لانقصد هنا إقامة الدليل على خطأ أو صواب ما ذهب إليه أهل التلمود في مسألة الذبيح فهؤلاء أدرى بما فعلوه بتوراتهم. ما يذهلنا هنا أن نرى إماماً مفسراً مؤرخاً كالطبري يقول في تاريخ الرسل والملوك (ج١ ص ٢٦٣):

«واختلف السلف من علماء أمة نبيّنا (ص) في الذي أُمر إبراهيم بذبحه من ابنيه. فقال بعضهم هو إسحق بن إبراهيم وقال بعضهم هو إسماعيل بن إبراهيم. وقد روي عن رسول اللّه (ص) كلا القولين، لو كان فيهما صحيح لم نعده إلى غيره. غير أن الدليل من القرآن على صحة الرواية التي رويت عنه (ص) أنه قال: هو إسحق. أوضح وأبين منه على صحّة الأخرى» أهـ.

لن نقف عند اختلاف السلف من علمائنا الأفاضل حول مسألة الذبيح، إذ لا تكاد تخلو منه آية من آيات التنزيل الحكيم سواء المحكم منها أم المتشابه. ولقد سبق أن أشرنا إليه في أكثر من موضع فلا نعيد. سنقف عند أمرين:

١ - قوله «وقد روي عن رسول اللّه (ص) كلا القولين، لو كان فيهما صحيح لم نعده إلى غيره».

٢ - قوله «غير أن الدليل من القرآن على صحة الرواية التي رُويت عنه (ص) أنه قال: هو إسحق، أوضح وأبين منه على صحّة الأخرى».

أما في الأمر الأول، فالمدهش فيه أن الطبري يقرر بكل صراحة أن النبي (ص) - فيما يروى عنه - أعلن لأصحاب معه مرة أن الذبيح هو إسحق، وأعلن لأصحاب له مرة أخرى أن الذبيح هو إسماعيل. ثم يقرر أن الروايتين عنده غير صحيحتين، ونحن نفهم أن يرد الطبري إحداهما ويقبل الأخرى، لاعتبارات رأى كمؤرخ أنها ترجّح المقبولة على المردودة، لكننا لا نفهم أبداً أن يطعن في صحتهما معاً فيقول «لو كان فيهما صحيح لم نعده إلى غيره».

إن إنكار صحة الروايتين معاً إما أن يقود إلى وجود غلام ثالث غير إسماعيل وإسحق شارك أباه في هذه التجربة المريرة، أو أن يقود إلى إنكار وقوع الحادثة أصلاً، وكلاهما محال، بدليل أن الطبري لم يقل بأحدهما في تاريخه. فما تفسير ذلك؟

التفسير - فيما نرى - هو أن الطبري ليس مجرّد مؤرّخ، بل هو محدّث ومفسّر، يريد بعبارته أن يفهمنا أن الروايتين لم تصحا عنده كمحدث، لكنه لا يستطيع - كمؤرخ - أن ينكر وقوع الحادثة رغم عدم صحة رواياتها عنده.

نأتي الآن إلى الأمر الثاني، وفيه أن الدليل من القرآن عنده على أن الذبيح هو إسحق أوضح وأبين منه على أن الذبيح هو إسماعيل. ثم يمضي على صفحتي ٢٧٠، ٢٧١ من المجلد الأول في تاريخه يشرح هذا الدليل وبالرد على من زعم أن الذبيح هو إسماعيل، وسنكتفي هنا بالإشارة إلى أهمّ ما ورد في الصفحتين من أدلة تجنباً للإطالة تاركين لمن شاء الرجوع إليهما طلباً للتفاصيل.

يقول الطبري على ص ٢٧٠ «... حين فارق إبراهيم قومه مهاجراً إلى ربه إلى الشام مع زوجته سارة قال ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الصافات ٩٩-١٠٠) وذلك قبل أن يعرف هاجر وقبل أن تصير له أمّ

إسماعيل، ثم أتبع ذلك ربنا عز وجل الخبر عن إجابته دعاءه، وتبشيره إياه بغلام حليم» أهـ.

من الواضح أن الطبري في هذه الفقرة بالذات ينطلق من ثوابت تنطلق منها الروايات التلمودية التي تجعل من إسحق بكر أبيه أولاً، وتنقل مسرح أحداث قصة الذبح والفداء من أرض مكة إلى أرض الشام.

ومن الواضح أنه يعتقد بأن استجابة اللّه عز وجل لدعاء إبراهيم في قوله ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الصافات ١٠٠) قد انتهت بالبُشرى بإسحق وحده وكأنه اكتفى بهذا الغلام الحليم العليم عن الصالحين الذين طلبهم من ربه.

المتأمل في عبارات الطبري من الفقرة المقتبسة أعلاه لا يملك إلا أن يتساءل: إذا كانت قصة البُشرى بإسحق وولادته حصلت قبل أن يعرف إبراهيم هاجر وقبل أن تصير له أمّ إسماعيل - حسب قول الطبري - فلماذا تزوّج إبراهيم من هاجر؟ ولماذا دعا ربه في آية الصافات ١٠٠ أن يهبه ذرية صالحة؟ أليس لأن سارة - كما هو ثابت في التنزيل الحكيم - كانت عجوزاً عقيماً؟

وإذا كانت قصة الذبح والفداء قد وقعت في أرض الشام - حسب ما يعتقده الطبري - فلماذا تابع إبراهيم رحلة البحث عن ربه مصطحباً معه بعض ذرّيته ليستقر في واد غير ذي زرع عند بيت اللّه المحرّم؟ ولماذا يترك وراءه ابنه المفتدى في أرض الشام ويأخذ معه إسماعيل إلى أرض مكة حسب ما هو ثابت في التنزيل الحكيم ليساعده في تطهير البيت وتكريسه للطائفين والعاكفين والركّع السجود؟

ثمة من يقول - حسب اعتراف الطبري - بأن الذبيح هو إسماعيل وأن القصة وقعت في أرض مكة، منهم ابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير، ومنهم الشعبي الذي يقول: رأيت قَرْنَي الكبش في الكعبة. ولم ينكر الطبري ذلك، فقال على ص ٢٧١: «وكذلك لا وجه لاعتلال من اعتل بقرن الكبش أنه رآه معلّقاً في الكعبة، لأنه من غير المستحيل أن يكون حمل من الشام إلى الكعبة

فعلّق هناك» أهـ. وهذه عندنا مكابرة لاتصدر من مؤرخ عاقل، يبقى معها سؤال وجيه بدون جواب هو: لماذا يحمل إبراهيم معه من أرض الشام قرن كبش نزل إليه من السماء فداء لابنه إسحق وهو يبحث عن ربه في رحلة لا يدري أين ومتى تنتهي، ليعلّقه في الكعبة حيث يراه الناس هناك؟

لقد شغل اللهاث خلف الإسرائيليات المفسرين والمؤرخين من الأمة الإسلامية قديماً، وشغل تقديس التراث بعقول منغلقة علماءنا الأفاضل اليوم، فكانت المحصّلة أنهم جميعاً لم ينتبهوا إلى الشبه العجيب بين قصة إبراهيم مع هاجر - الجارية المصرية - وقصة النبي (ص) مع ماريا القبطية - الجارية المصرية -. فالأولى كانت عجوزاً عقيماً، والثاني كانت زوجته الأولى مئناثاً لاتلد الذكور، وإن ولدتهم لايعيشون طويلاً، ولم يفهموا لماذا سمّى النبي (ص) ابنه إبراهيم. ولم يسألوا أنفسهم وهم يقرؤون دعاء إبراهيم لربه في آية الصافات ١٠٠، لماذا لانجد في التنزيل الحكيم دعاء مماثلاً دعا به النبي (ص) ربه ليهب له ابناً ذكراً من صلبه؟ أليس إنساناً كباقي الناس قبل أن يكون نبياً ورسولاً؟ فإن كان قد فعل، وليس ذلك ببعيد، فلماذا لم يرزقه ربه أولاداً ذكوراً يبلغون معه السعي؟ تلك قصة أخرى، قد نحاول أن نضع أجوبة لأسئلتها حين نتحدث عن القصص المحمدي في التنزيل الحكيم.

إسماعيل وإسحق عليهما السلام في كتاب التوراة

إسماعيل

سفر التكوين

الإصحاح السادس عشر

٧فَوَجَدَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ عَلَى عَيْنِ الْمَاءِ فِي الْبَرِّيَّةِ، عَلَى الْعَيْنِ الَّتِي فِي طَرِيقِ شُورَ. ٨وَقَالَ: «يَا هَاجَرُ جَارِيَةَ سَارَايَ، مِنْ أَيْنَ أَتَيْتِ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَذْهَبِينَ؟». فَقَالَتْ: «أَنَا هَارِبَةٌ مِنْ وَجْهِ مَوْلاَتِي سَارَايَ». ٩فَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «ارْجِعِي

إِلَى مَوْلاَتِكِ وَاخْضَعِي تَحْتَ يَدَيْهَا». ١٠وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ نَسْلَكِ فَلاَ يُعَدُّ مِنَ الْكَثْرَةِ». ١١وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «هَا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ابْناً وَتَدْعِينَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ.

١٥فَوَلَدَتْ هَاجَرُ لأَبْرَامَ ابْنًا. وَدَعَا أَبْرَامُ اسْمَ ابْنِهِ الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجَرُ «إِسْمَاعِيلَ». ١٦كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْ هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ لأَبْرَامَ.

الإصحاح السابع عشر

١٨وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلّهِ: «لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ!». ١٩فَقَالَ اللّهُ: «بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ. ٢٠وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً. ٢١وَلكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تَلِدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الآتِيَةِ». ٢٢فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْكَلاَمِ مَعَهُ صَعِدَ اللّهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ.

٢٣فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ ابْنَهُ، وَجَمِيعَ وِلْدَانِ بَيْتِهِ، وَجَمِيعَ الْمُبْتَاعِينَ بِفِضَّتِهِ، كُلَّ ذَكَرٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ إِبْرَاهِيمَ، وَخَتَنَ لَحْمَ غُرْلَتِهِمْ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ كَمَا كَلَّمَهُ اللّهُ. ٢٤وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ، ٢٥وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ ابْنَ ثَلاَثَ عَشَرَةَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ. ٢٦فِي ذلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ خُتِنَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ. ٢٧وَكُلُّ رِجَالِ بَيْتِهِ وِلْدَانِ الْبَيْتِ وَالْمُبْتَاعِينَ بِالْفِضَّةِ مِنِ ابْنِ الْغَرِيبِ خُتِنُوا مَعَهُ.

الإصحاح الخامس والعشرون

٧وَهذِهِ أَيَّامُ سِنِي حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي عَاشَهَا: مِئَةٌ وَخَمْسٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً. ٨وَأَسْلَمَ إِبْرَاهِيمُ رُوحَهُ وَمَاتَ بِشَيْبَةٍ صَالِحَةٍ، شَيْخاً وَشَبْعَانَ أَيَّاماً، وَانْضَمَّ إِلَى قَوْمِهِ. ٩وَدَفَنَهُ إِسْحَاقُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنَاهُ فِي مَغَارَةِ الْمَكْفِيلَةِ فِي حَقْلِ عِفْرُونَ بْنِ صُوحَرَ الْحِثِّيِّ الَّذِي أَمَامَ مَمْرَا، ١٠الْحَقْلِ الَّذِي اشْتَرَاهُ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بَنِي حِثٍّ.

هُنَاكَ دُفِنَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ امْرَأَتُهُ. ١١وَكَانَ بَعْدَ مَوْتِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ اللّهَ بَارَكَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ. وَسَكَنَ إِسْحَاقُ عِنْدَ بِئْرِ لَحَيْ رُئِي.

١٢وَهذِهِ مَوَالِيدُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجَرُ الْمِصْرِيَّةُ جَارِيَةُ سَارَةَ لإِبْرَاهِيمَ. ١٣وَهذِهِ أَسْمَاءُ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بِأَسْمَائِهِمْ حَسَبَ مَوَالِيدِهِمْ: نَبَايُوتُ بِكْرُ إِسْمَاعِيلَ، وَقِيدَارُ، وَأَدَبْئِيلُ وَمِبْسَامُ ١٤وَمِشْمَاعُ وَدُومَةُ وَمَسَّا ١٥وَحَدَارُ وَتَيْمَا وَيَطُورُ وَنَافِيشُ وَقِدْمَةُ. ١٦هؤُلاَءِ هُمْ بَنُو إِسْمَاعِيلَ، وَهذِهِ أَسْمَاؤُهُمْ بِدِيَارِهِمْ وَحُصُونِهِمْ. اثْنَا عَشَرَ رَئِيسًا حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ. ١٧وَهذِهِ سِنُو حَيَاةِ إِسْمَاعِيلَ: مِئَةٌ وَسَبْعٌ وَثَلاَثُونَ سَنَةً، وَأَسْلَمَ رُوحَهُ وَمَاتَ وَانْضَمَّ إِلَى قَوْمِهِ. ١٨وَسَكَنُوا مِنْ حَوِيلَةَ إِلَى شُورَ الَّتِي أَمَامَ مِصْرَ حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ أَشُّورَ. أَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ نَزَلَ.

إسحاق

سفر التكوين

الإصحاح السابع عشر

١٨وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلّهِ: «لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ!». ١٩فَقَالَ اللّهُ: «بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ. ٢٠وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً. ٢١وَلكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تَلِدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الآتِيَةِ». ٢٢فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْكَلاَمِ مَعَهُ صَعِدَ اللّهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ.

الإصحاح الحادي والعشرون

١وَافْتَقَدَ الرَّبُّ سَارَةَ كَمَا قَالَ، وَفَعَلَ الرَّبُّ لِسَارَةَ كَمَا تَكَلَّمَ. ٢فَحَبِلَتْ سَارَةُ وَوَلَدَتْ لإِبْرَاهِيمَ ابْنًا فِي شَيْخُوخَتِهِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَكَلَّمَ اللّهُ عَنْهُ. ٣وَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ابْنِهِ الْمَوْلُودِ لَهُ، الَّذِي وَلَدَتْهُ لَهُ سَارَةُ «إِسْحَاقَ». ٤وَخَتَنَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ كَمَا أَمَرَهُ اللّهُ. ٥وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنَ مِئَةِ سَنَةٍ حِينَ

وُلِدَ لَهُ إِسْحَاقُ ابْنُهُ. ٦وَقَالَتْ سَارَةُ: «قَدْ صَنَعَ إِلَيَّ اللّهُ ضِحْكًا. كُلُّ مَنْ يَسْمَعُ يَضْحَكُ لِي». ٧وَقَالَتْ: «مَنْ قَالَ لإِبْرَاهِيمَ: سَارَةُ تُرْضِعُ بَنِينَ؟ حَتَّى وَلَدْتُ ابْنًا فِي شَيْخُوخَتِهِ!». ٨فَكَبِرَ الْوَلَدُ وَفُطِمَ. وَصَنَعَ إِبْرَاهِيمُ وَلِيمَةً عَظِيمَةً يَوْمَ فِطَامِ إِسْحَاقَ.

٩وَرَأَتْ سَارَةُ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي وَلَدَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَمْزَحُ، ١٠فَقَالَتْ لإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ هذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لأَنَّ ابْنَ هذِهِ الْجَارِيَةِ لاَ يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ». ١١فَقَبُحَ الْكَلاَمُ جِدًّا فِي عَيْنَيْ إِبْرَاهِيمَ لِسَبَبِ ابْنِهِ. ١٢فَقَالَ اللّهُ لإِبْرَاهِيمَ: «لاَ يَقْبُحُ فِي عَيْنَيْكَ مِنْ أَجْلِ الْغُلاَمِ وَمِنْ أَجْلِ جَارِيَتِكَ. فِي كُلِّ مَا تَقُولُ لَكَ سَارَةُ اسْمَعْ لِقَوْلِهَا، لأَنَّهُ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. ١٣وَابْنُ الْجَارِيَةِ أَيْضًا سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً لأَنَّهُ نَسْلُكَ».

١٤فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْزًا وَقِرْبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لِهَاجَرَ، وَاضِعًا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفِهَا، وَالْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةِ بِئْرِ سَبْعٍ. ١٥وَلَمَّا فَرَغَ الْمَاءُ مِنَ الْقِرْبَةِ طَرَحَتِ الْوَلَدَ تَحْتَ إِحْدَى الأَشْجَارِ، ١٦وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ بَعِيدًا نَحْوَ رَمْيَةِ قَوْسٍ، لأَنَّهَا قَالَتْ: «لاَ أَنْظُرُ مَوْتَ الْوَلَدِ». فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ. ١٧فَسَمِعَ اللّهُ صَوْتَ الْغُلاَمِ، وَنَادَى مَلاَكُ اللّهِ هَاجَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: «مَا لَكِ يَا هَاجَرُ؟ لاَ تَخَافِي، لأَنَّ اللّهَ قَدْ سَمِعَ لِصَوْتِ الْغُلاَمِ حَيْثُ هُوَ. ١٨قُومِي احْمِلِي الْغُلاَمَ وَشُدِّي يَدَكِ بِهِ، لأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً». ١٩وَفَتَحَ اللّهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بِئْرَ مَاءٍ، فَذَهَبَتْ وَمَلأَتِ الْقِرْبَةَ مَاءً وَسَقَتِ الْغُلاَمَ. ٢٠وَكَانَ اللّهُ مَعَ الْغُلاَمِ فَكَبِرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَامِيَ قَوْسٍ. ٢١وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ.

الإصحاح الثاني والعشرون

١وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ اللّهَ امْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لَهُ: «يَا إِبْرَاهِيمُ!». فَقَالَ: «هأَنَذَا». ٢فَقَالَ: «خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، الَّذِي تُحِبُّهُ، إِسْحَاقَ، وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِيَّا، وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ». ٣فَبَكَّرَ

إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَشَدَّ عَلَى حِمَارِهِ، وَأَخَذَ اثْنَيْنِ مِنْ غِلْمَانِهِ مَعَهُ، وَإِسْحَاقَ ابْنَهُ، وَشَقَّقَ حَطَبًا لِمُحْرَقَةٍ، وَقَامَ وَذَهَبَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللّٰهُ. ٤وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ الْمَوْضِعَ مِنْ بَعِيدٍ، ٥فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِغُلاَمَيْهِ: «اجْلِسَا أَنْتُمَا ههُنَا مَعَ الْحِمَارِ، وَأَمَّا أَنَا وَالْغُلاَمُ فَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ، ثُمَّ نَرْجعُ إِلَيْكُمَا». ٦فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ حَطَبَ الْمُحْرَقَةِ وَوَضَعَهُ عَلَى إِسْحَاقَ ابْنِهِ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ النَّارَ وَالسِّكِّينَ. فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا. ٧وَكَلَّمَ إِسْحَاقُ إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ وَقَالَ: «يَا أَبِي!». فَقَالَ: «هأَنَذَا يَا ابْنِي». فَقَالَ: «هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ، وَلكِنْ أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ؟» ٨فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «اللّٰهُ يَرَى لَهُ الْخَرُوفَ لِلْمُحْرَقَةِ يَا ابْنِي». فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا.

٩فَلَمَّا أَتَيَا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللّٰهُ، بَنَى هُنَاكَ إِبْرَاهِيمُ الْمَذْبَحَ وَرَتَّبَ الْحَطَبَ وَرَبَطَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ فَوْقَ الْحَطَبِ. ١٠ثُمَّ مَدَّ إِبْرَاهِيمُ يَدَهُ وَأَخَذَ السِّكِّينَ لِيَذْبَحَ ابْنَهُ. ١١فَنَادَاهُ مَلاَكُ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «إِبْرَاهِيمُ! إِبْرَاهِيمُ!». فَقَالَ: «هأَنَذَا» ١٢فَقَالَ: «لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلاَمِ وَلاَ تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لأَنِّي الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ اللّٰهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي». ١٣فَرَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا كَبْشٌ وَرَاءَهُ مُمْسَكًا فِي الْغَابَةِ بِقَرْنَيْهِ، فَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ وَأَخَذَ الْكَبْشَ وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عِوَضًا عَنِ ابْنِهِ. ١٤فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ذلِكَ الْمَوْضِعِ «يَهْوَهْ يِرْأَهْ». حَتَّى إِنَّهُ يُقَالُ الْيَوْمَ: «فِي جَبَلِ الرَّبِّ يُرَى».

١٥وَنَادَى مَلاَكُ الرَّبِّ إِبْرَاهِيمَ ثَانِيَةً مِنَ السَّمَاءِ ١٦وَقَالَ: «بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هذَا الأَمْرَ، وَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، ١٧أُبَارِكُكَ مُبَارَكَةً، وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ تَكْثِيرًا كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، ١٨وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي». ١٩ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى غُلاَمَيْهِ، فَقَامُوا وَذَهَبُوا مَعًا إِلَى بِئْرِ سَبْعٍ. وَسَكَنَ إِبْرَاهِيمُ فِي بِئْرِ سَبْعٍ.

الإصحاح الرابع والعشرون

١وَشَاخَ إِبْرَاهِيمُ وَتَقَدَّمَ فِي الأَيَّامِ. وَبَارَكَ الرَّبُّ إِبْرَاهِيمَ فِي كُلِّ شَيْءٍ. ٢وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِعَبْدِهِ كَبِيرِ بَيْتِهِ الْمُسْتَوْلِي عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ: «ضَعْ يَدَكَ تَحْتَ فَخْذِي، ٣فَأَسْتَحْلِفَكَ بِالرَّبِّ إِلهِ السَّمَاءِ وَإِلهِ الأَرْضِ أَنْ لاَ تَأْخُذَ زَوْجَةً لابْنِي مِنْ بَنَاتِ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ أَنَا سَاكِنٌ بَيْنَهُمْ، ٤بَلْ إِلَى أَرْضِي وَإِلَى عَشِيرَتِي تَذْهَبُ وَتَأْخُذُ زَوْجَةً لابْنِي إِسْحَاقَ». ٥فَقَالَ لَهُ الْعَبْدُ: «رُبَّمَا لاَ تَشَاءُ الْمَرْأَةُ أَنْ تَتْبَعَنِي إِلَى هذِهِ الأَرْضِ. هَلْ أَرْجعُ بِابْنِكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي خَرَجْتَ مِنْهَا؟» ٦فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: «احْتَرِزْ مِنْ أَنْ تَرْجعَ بِابْنِي إِلَى هُنَاكَ. ٧اَلرَّبُّ إِلهُ السَّمَاءِ الَّذِي أَخَذَنِي مِنْ بَيْتِ أَبِي وَمِنْ أَرْضِ مِيلاَدِي، وَالَّذِي كَلَّمَنِي وَالَّذِي أَقْسَمَ لِي قَائِلاً: لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ، هُوَ يُرْسِلُ مَلاَكَهُ أَمَامَكَ، فَتَأْخُذُ زَوْجَةً لابْنِي مِنْ هُنَاكَ. ٨وَإِنْ لَمْ تَشَإِ الْمَرْأَةُ أَنْ تَتْبَعَكَ، تَبَرَّأْتَ مِنْ حَلْفِي هذَا. أَمَّا ابْنِي فَلاَ تَرْجعْ بِهِ إِلَى هُنَاكَ». ٩فَوَضَعَ الْعَبْدُ يَدَهُ تَحْتَ فَخْذِ إِبْرَاهِيمَ مَوْلاَهُ، وَحَلَفَ لَهُ عَلَى هذَا الأَمْرِ.

٦١فَقَامَتْ رِفْقَةُ وَفَتَيَاتُهَا وَرَكِبْنَ عَلَى الْجِمَالِ وَتَبِعْنَ الرَّجُلَ. فَأَخَذَ الْعَبْدُ رِفْقَةَ وَمَضَى. ٦٢وَكَانَ إِسْحَاقُ قَدْ أَتَى مِنْ وُرُودِ بِئْرِ لَحَيْ رُئِي، إِذْ كَانَ سَاكِنًا فِي أَرْضِ الْجَنُوبِ. ٦٣وَخَرَجَ إِسْحَاقُ لِيَتَأَمَّلَ فِي الْحَقْلِ عِنْدَ إِقْبَالِ الْمَسَاءِ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا جِمَالٌ مُقْبِلَةٌ. ٦٤وَرَفَعَتْ رِفْقَةُ عَيْنَيْهَا فَرَأَتْ إِسْحَاقَ فَنَزَلَتْ عَنِ الْجَمَلِ. ٦٥وَقَالَتْ لِلْعَبْدِ: «مَنْ هذَا الرَّجُلُ الْمَاشِي فِي الْحَقْلِ لِلِقَائِنَا؟» فَقَالَ الْعَبْدُ: «هُوَ سَيِّدِي». فَأَخَذَتِ الْبُرْقُعَ وَتَغَطَّتْ. ٦٦ثُمَّ حَدَّثَ الْعَبْدُ إِسْحَاقَ بِكُلِّ الأُمُورِ الَّتِي صَنَعَ، ٦٧فَأَدْخَلَهَا إِسْحَاقُ إِلَى خِبَاءِ سَارَةَ أُمِّهِ، وَأَخَذَ رِفْقَةَ فَصَارَتْ لَهُ زَوْجَةً وَأَحَبَّهَا. فَتَعَزَّى إِسْحَاقُ بَعْدَ مَوْتِ أُمِّهِ.

الإصحَاحُ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ

١وَعَادَ إِبْرَاهِيمُ فَأَخَذَ زَوْجَةً اسْمُهَا قَطُورَةُ، ٢فَوَلَدَتْ لَهُ: زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ وَمِدْيَانَ وَيِشْبَاقَ وَشُوحًا. ٣وَوَلَدَ يَقْشَانُ: شَبَا وَدَدَانَ. وَكَانَ بَنُو دَدَانَ: أَشُّورِيمَ وَلَطُوشِيمَ وَلأُمِّيمَ. ٤وَبَنُو مِدْيَانَ: عَيْفَةُ وَعِفْرُ وَحَنُوكُ وَأَبِيدَاعُ وَأَلْدَعَةُ.

جَمِيعُ هؤُلاَءِ بَنُو قَطُورَةَ. ٥وَأَعْطَى إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ. ٦وَأَمَّا بَنُو السَّرَارِيِّ اللَّوَاتِي كَانَتْ لإِبْرَاهِيمَ فَأَعْطَاهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَطَايَا، وَصَرَفَهُمْ عَنْ إِسْحَاقَ ابْنِهِ شَرْقًا إِلَى أَرْضِ الْمَشْرِقِ، وَهُوَ بَعْدُ حَيٌّ.

٧وَهذِهِ أَيَّامُ سِنِي حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي عَاشَهَا: مِئَةٌ وَخَمْسٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً. ٨وَأَسْلَمَ إِبْرَاهِيمُ رُوحَهُ وَمَاتَ بِشَيْبَةٍ صَالِحَةٍ، شَيْخًا وَشَبْعَانَ أَيَّامًا، وَانْضَمَّ إِلَى قَوْمِهِ. ٩وَدَفَنَهُ إِسْحَاقُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنَاهُ فِي مَغَارَةِ الْمَكْفِيلَةِ فِي حَقْلِ عِفْرُونَ بْنِ صُوحَرَ الْحِثِّيِّ الَّذِي أَمَامَ مَمْرَا، ١٠الْحَقْلِ الَّذِي اشْتَرَاهُ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بَنِي حِثٍّ. هُنَاكَ دُفِنَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ امْرَأَتُهُ. ١١وَكَانَ بَعْدَ مَوْتِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ اللّهَ بَارَكَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ. وَسَكَنَ إِسْحَاقُ عِنْدَ بِئْرِ لَحَيْ رُئِي.

١٩وَهذِهِ مَوَالِيدُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: وَلَدَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ. ٢٠وَكَانَ إِسْحَاقُ ابْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمَّا اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ زَوْجَةً، رِفْقَةَ بِنْتَ بَتُوئِيلَ الأَرَامِيِّ، أُخْتَ لاَبَانَ الأَرَامِيِّ مِنْ فَدَّانِ أَرَامَ. ٢١وَصَلَّى إِسْحَاقُ إِلَى الرَّبِّ لأَجْلِ امْرَأَتِهِ لأَنَّهَا كَانَتْ عَاقِرًا، فَاسْتَجَابَ لَهُ الرَّبُّ، فَحَبِلَتْ رِفْقَةُ امْرَأَتُهُ. ٢٢وَتَزَاحَمَ الْوَلَدَانِ فِي بَطْنِهَا، فَقَالَتْ: «إِنْ كَانَ هكَذَا فَلِمَاذَا أَنَا؟» فَمَضَتْ لِتَسْأَلَ الرَّبَّ. ٢٣فَقَالَ لَهَا الرَّبُّ: «فِي بَطْنِكِ أُمَّتَانِ، وَمِنْ أَحْشَائِكِ يَفْتَرِقُ شَعْبَانِ: شَعْبٌ يَقْوَى عَلَى شَعْبٍ، وَكَبِيرٌ يُسْتَعْبَدُ لِصَغِيرٍ».

٢٤فَلَمَّا كَمُلَتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ إِذَا فِي بَطْنِهَا تَوْأَمَانِ. ٢٥فَخَرَجَ ألأَوَّلُ أَحْمَرَ، كُلُّهُ كَفَرْوَةِ شَعْرٍ، فَدَعَوْا اسْمَهُ «عِيسُوَ». ٢٦وَبَعْدَ ذلِكَ خَرَجَ أَخُوهُ وَيَدُهُ قَابِضَةٌ بِعَقِبِ عِيسُو، فَدُعِيَ اسْمُهُ «يَعْقُوبَ». وَكَانَ إِسْحَاقُ ابْنَ سِتِّينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْهُمَا.

٢٧فَكَبِرَ الْغُلاَمَانِ، وَكَانَ عِيسُو إِنْسَانًا يَعْرِفُ الصَّيْدَ، إِنْسَانَ الْبَرِّيَّةِ، وَيَعْقُوبُ إِنْسَانًا كَامِلاً يَسْكُنُ الْخِيَامَ. ٢٨فَأَحَبَّ إِسْحَاقُ عِيسُوَ لأَنَّ فِي فَمِهِ صَيْدًا، وَأَمَّا رِفْقَةُ فَكَانَتْ تُحِبُّ يَعْقُوبَ. ٢٩وَطَبَخَ يَعْقُوبُ طَبِيخًا، فَأَتَى عِيسُو مِنَ الْحَقْلِ وَهُوَ قَدْ أَعْيَا. ٣٠فَقَالَ عِيسُو لِيَعْقُوبَ: «أَطْعِمْنِي مِنْ هذَا الأَحْمَرِ لأَنِّي قَدْ أَعْيَيْتُ». لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُهُ «أَدُومَ». ٣١فَقَالَ يَعْقُوبُ: «بِعْنِي الْيَوْمَ بَكُورِيَّتَكَ». ٣٢فَقَالَ عِيسُو:

«هَا أَنَا مَاضٍ إِلَى الْمَوْتِ، فَلِمَاذَا لِي بَكُورِيَّةٌ؟» ٣٣فَقَالَ يَعْقُوبُ: «احْلِفْ لِيَ الْيَوْمَ». فَحَلَفَ لَهُ، فَبَاعَ بَكُورِيَّتَهُ لِيَعْقُوبَ. ٣٤فَأَعْطَى يَعْقُوبُ عِيسُوَ خُبْزًا وَطَبِيخَ عَدَسٍ، فَأَكَلَ وَشَرِبَ وَقَامَ وَمَضَى. فَاحْتَقَرَ عِيسُو الْبَكُورِيَّةَ.

الإِصحَاحُ السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ

١وَكَانَ فِي الأَرْضِ جُوعٌ غَيْرُ الْجُوعِ الأَوَّلِ الَّذِي كَانَ فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ، فَذَهَبَ إِسْحَاقُ إِلَى أَبِيمَالِكَ مَلِكِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، إِلَى جَرَارَ. ٢وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ وَقَالَ: «لاَ تَنْزِلْ إِلَى مِصْرَ. اسْكُنْ فِي الأَرْضِ الَّتِي أَقُولُ لَكَ. ٣تَغَرَّبْ فِي هذِهِ الأَرْضِ فَأَكُونَ مَعَكَ وَأُبَارِكَكَ، لأَنِّي لَكَ وَلِنَسْلِكَ أُعْطِي جَمِيعَ هذِهِ الْبِلاَدِ، وَأَفِي بِالْقَسَمِ الَّذِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ. ٤وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، وَأُعْطِي نَسْلَكَ جَمِيعَ هذِهِ الْبِلاَدِ، وَتَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، ٥مِنْ أَجْلِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ سَمِعَ لِقَوْلِي وَحَفِظَ مَا يُحْفَظُ لِي: أَوَامِرِي وَفَرَائِضِي وَشَرَائِعِي». ٦فَأَقَامَ إِسْحَاقُ فِي جَرَارَ.

٧وَسَأَلَهُ أَهْلُ الْمَكَانِ عَنِ امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: «هِيَ أُخْتِي». لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَقُولَ: «امْرَأَتِي» لَعَلَّ أَهْلَ الْمَكَانِ: «يَقْتُلُونَنِي مِنْ أَجْلِ رِفْقَةَ» لأَنَّهَا كَانَتْ حَسَنَةَ الْمَنْظَرِ. ٨وَحَدَثَ إِذْ طَالَتْ لَهُ الأَيَّامُ هُنَاكَ أَنَّ أَبِيمَالِكَ مَلِكَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ أَشْرَفَ مِنَ الْكُوَّةِ وَنَظَرَ، وَإِذَا إِسْحَاقُ يُلاَعِبُ رِفْقَةَ امْرَأَتَهُ. ٩فَدَعَا أَبِيمَالِكُ إِسْحَاقَ وَقَالَ: «إِنَّمَا هِيَ امْرَأَتُكَ! فَكَيْفَ قُلْتَ: هِيَ أُخْتِي؟» فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ: «لأَنِّي قُلْتُ: لَعَلِّي أَمُوتُ بِسَبَبِهَا». ١٠فَقَالَ أَبِيمَالِكُ: «مَا هذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِنَا؟ لَوْلاَ قَلِيلٌ لاضْطَجَعَ أَحَدُ الشَّعْبِ مَعَ امْرَأَتِكَ فَجَلَبْتَ عَلَيْنَا ذَنْبًا». ١١فَأَوْصَى أَبِيمَالِكُ جَمِيعَ الشَّعْبِ قَائِلاً: «الَّذِي يَمَسُّ هذَا الرَّجُلَ أَوِ امْرَأَتَهُ مَوْتًا يَمُوتُ».

١٢وَزَرَعَ إِسْحَاقُ فِي تِلْكَ الأَرْضِ فَأَصَابَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مِئَةَ ضِعْفٍ، وَبَارَكَهُ الرَّبُّ. ١٣فَتَعَاظَمَ الرَّجُلُ وَكَانَ يَتَزَايَدُ فِي التَّعَاظُمِ حَتَّى صَارَ عَظِيمًا جِدًّا. ١٤فَكَانَ لَهُ مَوَاشٍ مِنَ الْغَنَمِ وَمَوَاشٍ مِنَ الْبَقَرِ وَعَبِيدٌ كَثِيرُونَ. فَحَسَدَهُ الْفِلِسْطِينِيُّونَ. ١٥وَجَمِيعُ الآبَارِ، الَّتِي حَفَرَهَا عَبِيدُ أَبِيهِ فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ أَبِيهِ، طَمَّهَا

الْفِلِسْطِينِيُّونَ وَمَلأُوهَا تُرَابًا. ١٦وَقَالَ أَبِيمَالِكُ لإِسْحَاقَ: «اذْهَبْ مِنْ عِنْدِنَا لأَنَّكَ صِرْتَ أَقْوَى مِنَّا جِدًّا». ١٧فَمَضَى إِسْحَاقُ مِنْ هُنَاكَ، وَنَزَلَ فِي وَادِي جَرَارَ وَأَقَامَ هُنَاكَ.

١٨فَعَادَ إِسْحَاقُ وَنَبَشَ آبَارَ الْمَاءِ الَّتِي حَفَرُوهَا فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ أَبِيهِ، وَطَمَّهَا الْفِلِسْطِينِيُّونَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ، وَدَعَاهَا بِأَسْمَاءٍ كَالأَسْمَاءِ الَّتِي دَعَاهَا بِهَا أَبُوهُ. ١٩وَحَفَرَ عَبِيدُ إِسْحَاقَ فِي الْوَادِي فَوَجَدُوا هُنَاكَ بِئْرَ مَاءٍ حَيٍّ. ٢٠فَخَاصَمَ رُعَاةُ جَرَارَ رُعَاةَ إِسْحَاقَ قَائِلِينَ: «لَنَا الْمَاءُ». فَدَعَا اسْمَ الْبِئْرِ «عِسِقَ» لأَنَّهُمْ نَازَعُوهُ. ٢١ثُمَّ حَفَرُوا بِئْرًا أُخْرَى وَتَخَاصَمُوا عَلَيْهَا أَيْضًا، فَدَعَا اسْمَهَا «سِطْنَةَ». ٢٢ثُمَّ نَقَلَ مِنْ هُنَاكَ وَحَفَرَ بِئْرًا أُخْرَى وَلَمْ يَتَخَاصَمُوا عَلَيْهَا، فَدَعَا اسْمَهَا «رَحُوبُوتَ»، وَقَالَ: «إِنَّهُ الآنَ قَدْ أَرْحَبَ لَنَا الرَّبُّ وَأَثْمَرْنَا فِي الأَرْضِ». ٢٣ثُمَّ صَعِدَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى بِئْرِ سَبْعٍ. ٢٤فَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَقَالَ: «أَنَا إِلهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ. لاَ تَخَفْ لأَنِّي مَعَكَ، وَأُبَارِكُكَ وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ مِنْ أَجْلِ إِبْرَاهِيمَ عَبْدِي». ٢٥فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ. وَنَصَبَ هُنَاكَ خَيْمَتَهُ، وَحَفَرَ هُنَاكَ عَبِيدُ إِسْحَاقَ بِئْرًا.

٢٦وَذَهَبَ إِلَيْهِ مِنْ جَرَارَ أَبِيمَالِكُ وَأَحُزَّاتُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَفِيكُولُ رَئِيسُ جَيْشِهِ. ٢٧فَقَالَ لَهُمْ إِسْحَاقُ: «مَا بَالُكُمْ أَتَيْتُمْ إِلَيَّ وَأَنْتُمْ قَدْ أَبْغَضْتُمُونِي وَصَرَفْتُمُونِي مِنْ عِنْدِكُمْ؟» ٢٨فَقَالُوا: «إِنَّنَا قَدْ رَأَيْنَا أَنَّ الرَّبَّ كَانَ مَعَكَ، فَقُلْنَا: لِيَكُنْ بَيْنَنَا حَلْفٌ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، وَنَقْطَعُ مَعَكَ عَهْدًا: ٢٩أَنْ لاَ تَصْنَعَ بِنَا شَرًّا، كَمَا لَمْ نَمَسَّكَ وَكَمَا لَمْ نَصْنَعْ بِكَ إِلاَّ خَيْرًا وَصَرَفْنَاكَ بِسَلاَمٍ. أَنْتَ الآنَ مُبَارَكُ الرَّبِّ». ٣٠فَصَنَعَ لَهُمْ ضِيَافَةً، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا. ٣١ثُمَّ بَكَّرُوا فِي الْغَدِ وَحَلَفُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَصَرَفَهُمْ إِسْحَاقُ. فَمَضَوْا مِنْ عِنْدِهِ بِسَلاَمٍ. ٣٢وَحَدَثَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ عَبِيدَ إِسْحَاقَ جَاءُوا وَأَخْبَرُوهُ عَنِ الْبِئْرِ الَّتِي حَفَرُوا، وَقَالُوا لَهُ: «قَدْ وَجَدْنَا مَاءً». ٣٣فَدَعَاهَا «شِبْعَةَ»، لِذلِكَ اسْمُ الْمَدِينَةِ بِئْرُ سَبْعٍ إِلَى هذَا الْيَوْمِ.

٣٤وَلَمَّا كَانَ عِيسُو ابْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً اتَّخَذَ زَوْجَةً: يَهُودِيتَ ابْنَةَ بِيرِي الْحِثِّيِّ، وَبَسْمَةَ ابْنَةَ إِيلُونَ الْحِثِّيِّ. ٣٥فَكَانَتَا مَرَارَةَ نَفْسٍ لإِسْحَاقَ وَرِفْقَةَ.

الإصحَاحُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ

١وَحَدَثَ لَمَّا شَاخَ إِسْحَاقُ وَكَلَّتْ عَيْنَاهُ عَنِ النَّظَرِ، أَنَّهُ دَعَا عِيسُوَ ابْنَهُ الأَكْبَرَ وَقَالَ لَهُ: «يَا ابْنِي». فَقَالَ لَهُ: «هأَنَذَا». ٢فقَالَ: «إِنَّنِي قَدْ شِخْتُ وَلَسْتُ أَعْرِفُ يَوْمَ وَفَاتِي. ٣فَالآنَ خُذْ عُدَّتَكَ: جُعْبَتَكَ وَقَوْسَكَ، وَاخْرُجْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَتَصَيَّدْ لِي صَيْدًا، ٤وَاصْنَعْ لِي أَطْعِمَةً كَمَا أُحِبُّ، وَأْتِنِي بِهَا لآكُلَ حَتَّى تُبَارِكَكَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ».

٥وَكَانَتْ رِفْقَةُ سَامِعَةً إِذْ تَكَلَّمَ إِسْحَاقُ مَعَ عِيسُو ابْنِهِ. فَذَهَبَ عِيسُو إِلَى الْبَرِّيَّةِ كَيْ يَصْطَادَ صَيْدًا لِيَأْتِيَ بِهِ. ٦وَأَمَّا رِفْقَةُ فَكَلمتْ يَعْقُوبَ ابْنِهَا قَائِلَةً: «إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ أَبَاكَ يُكَلِّمُ عِيسُوَ أَخَاكَ قَائِلاً: ٧اُئْتِنِي بِصَيْدٍ وَاصْنَعْ لِي أَطْعِمَةً لآكُلَ وَأُبَارِكَكَ أَمَامَ الرَّبِّ قَبْلَ وَفَاتِي. ٨فَالآنَ يَا ابْنِي اسْمَعْ لِقَوْلِي فِي مَا أَنَا آمُرُكَ بِهِ: ٩اِذْهَبْ إِلَى الْغَنَمِ وَخُذْ لِي مِنْ هُنَاكَ جَدْيَيْنِ جَيِّدَيْنِ مِنَ الْمِعْزَى، فَأَصْنَعَهُمَا أَطْعِمَةً لأَبِيكَ كَمَا يُحِبُّ، ١٠فَتُحْضِرَهَا إِلَى أَبِيكَ لِيَأْكُلَ حَتَّى يُبَارِكَكَ قَبْلَ وَفَاتِهِ». ١١فقَالَ يَعْقُوبُ لِرِفْقَةَ أُمِّهِ: «هُوَذَا عِيسُو أَخِي رَجُلٌ أَشْعَرُ وَأَنَا رَجُلٌ أَمْلَسُ. ١٢رُبَّمَا يَجُسُّنِي أَبِي فَأَكُونُ فِي عَيْنَيْهِ كَمُتَهَاوِنٍ، وَأَجْلِبُ عَلَى نَفْسِي لَعْنَةً لاَ بَرَكَةً». ١٣فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: «لَعْنَتُكَ عَلَيَّ يَا ابْنِي. اِسْمَعْ لِقَوْلِي فَقَطْ وَاذْهَبْ خُذْ لِي». ١٤فَذَهَبَ وَأَخَذَ وَأَحْضَرَ لأُمِّهِ، فَصَنَعَتْ أُمُّهُ أَطْعِمَةً كَمَا كَانَ أَبُوهُ يُحِبُّ. ١٥وَأَخَذَتْ رِفْقَةُ ثِيَابَ عِيسُو ابْنِهَا الأَكْبَرِ الْفَاخِرَةَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهَا فِي الْبَيْتِ وَأَلْبَسَتْ يَعْقُوبَ ابْنَهَا الأَصْغَرَ، ١٦وَأَلْبَسَتْ يَدَيْهِ وَمَلاَسَةَ عُنُقِهِ جُلُودَ جَدْيَي الْمِعْزَى. ١٧وَأَعْطَتِ الأَطْعِمَةَ وَالْخُبْزَ الَّتِي صَنَعَتْ فِي يَدِ يَعْقُوبَ ابْنِهَا.

١٨فَدَخَلَ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ: «يَا أَبِي». فَقَالَ: «هأَنَذَا. مَنْ أَنْتَ يَا ابْنِي؟» ١٩فقَالَ يَعْقُوبُ لأَبِيهِ: «أَنَا عِيسُو بِكْرُكَ. قَدْ فَعَلْتُ كَمَا كَلَّمْتَنِي. قُم اجْلِسْ وَكُلْ مِنْ صَيْدِي لِكَيْ تُبَارِكَنِي نَفْسُكَ». ٢٠فَقَالَ إِسْحَاقُ لابْنِهِ: «مَا هذَا الَّذِي أَسْرَعْتَ لِتَجِدَ يَا ابْنِي؟» فقَالَ: «إِنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ قَدْ يَسَّرَ لِي». ٢١فقَالَ إِسْحَاقُ لِيَعْقُوبَ: «تَقَدَّمْ لأَجُسَّكَ يَا ابْنِي. أَأَنْتَ هُوَ ابْنِي عِيسُو أَمْ لاَ؟». ٢٢فَتَقَدَّمَ يَعْقُوبُ إِلَى

إِسْحَاقَ أَبِيهِ، فَجَسَّهُ وَقَالَ: «الصَّوْتُ صَوْتُ يَعْقُوبَ، وَلكِنَّ الْيَدَيْنِ يَدَا عِيسُو». ٢٣وَلَمْ يَعْرِفْهُ لأَنَّ يَدَيْهِ كَانَتَا مُشْعِرَتَيْنِ كَيَدَيْ عِيسُو أَخِيهِ، فَبَارَكَهُ. ٢٤وَقَالَ: «هَلْ أَنْتَ هُوَ ابْنِي عِيسُو؟» فَقَالَ: «أَنَا هُوَ». ٢٥فَقَالَ: «قَدِّمْ لِي لآكُلَ مِنْ صَيْدِ ابْنِي حَتَّى تُبَارِكَكَ نَفْسِي». فَقَدَّمَ لَهُ فَأَكَلَ، وَأَحْضَرَ لَهُ خَمْرًا فَشَرِبَ. ٢٦فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: «تَقَدَّمْ وَقَبِّلْنِي يَا ابْنِي». ٢٧فَتَقَدَّمَ وَقَبَّلَهُ، فَشَمَّ رَائِحَةَ ثِيَابِهِ وَبَارَكَهُ، وَقَالَ: «انْظُرْ! رَائِحَةُ ابْنِي كَرَائِحَةِ حَقْل قَدْ بَارَكَهُ الرَّبُّ. ٢٨فَلْيُعْطِكَ اللّهُ مِنْ نَدَى السَّمَاءِ وَمِنْ دَسَمِ الأَرْضِ. وَكَثْرَةَ حِنْطَةٍ وَخَمْرٍ. ٢٩لِيُسْتَعْبَدْ لَكَ شُعُوبٌ، وَتَسْجُدْ لَكَ قَبَائِلُ. كُنْ سَيِّدًا لإِخْوَتِكَ، وَلْيَسْجُدْ لَكَ بَنُو أُمِّكَ. لِيَكُنْ لاَعِنُوكَ مَلْعُونِينَ، وَمُبَارِكُوكَ مُبَارَكِينَ».

٣٠وَحَدَثَ عِنْدَمَا فَرَغَ إِسْحَاقُ مِنْ بَرَكَةِ يَعْقُوبَ، وَيَعْقُوبُ قَدْ خَرَجَ مِنْ لَدُنْ إِسْحَاقَ أَبِيهِ، أَنَّ عِيسُوَ أَخَاهُ أَتَى مِنْ صَيْدِهِ، ٣١فَصَنَعَ هُوَ أَيْضًا أَطْعِمَةً وَدَخَلَ بِهَا إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لأَبِيهِ: «لِيَقُمْ أَبِي وَيَأْكُلْ مِنْ صَيْدِ ابْنِهِ حَتَّى تُبَارِكَنِي نَفْسُكَ». ٣٢فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: «مَنْ أَنْتَ؟» فَقَالَ: «أَنَا ابْنُكَ بِكْرُكَ عِيسُو». ٣٣فَارْتَعَدَ إِسْحَاقُ ارْتِعَادًا عَظِيمًا جِدًّا وَقَالَ: «فَمَنْ هُوَ الَّذِي اصْطَادَ صَيْدًا وَأَتَى بِهِ إِلَيَّ فَأَكَلْتُ مِنَ الْكُلِّ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ، وَبَارَكْتُهُ؟ نَعَمْ، وَيَكُونُ مُبَارَكًا». ٣٤فَعِنْدَمَا سَمِعَ عِيسُو كَلاَمَ أَبِيهِ صَرَخَ صَرْخَةً عَظِيمَةً وَمُرَّةً جِدًّا، وَقَالَ لأَبِيهِ: «بَارِكْنِي أَنَا أَيْضًا يَا أَبِي». ٣٥فَقَالَ: «قَدْ جَاءَ أَخُوكَ بِمَكْرٍ وَأَخَذَ بَرَكَتَكَ». ٣٦فَقَالَ: «أَلاَ إِنَّ اسْمَهُ دُعِيَ يَعْقُوبَ، فَقَدْ تَعَقَّبَنِي الآنَ مَرَّتَيْنِ! أَخَذَ بَكُورِيَّتِي، وَهُوَذَا الآنَ قَدْ أَخَذَ بَرَكَتِي». ثُمَّ قَالَ: «أَمَا أَبْقَيْتَ لِي بَرَكَةً؟» ٣٧فَأَجَابَ إِسْحَاقُ وَقَالَ لِعِيسُو: «إِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ سَيِّدًا لَكَ، وَدَفَعْتُ إِلَيْهِ جَمِيعَ إِخْوَتِهِ عَبِيدًا، وَعَضَدْتُهُ بِحِنْطَةٍ وَخَمْرٍ. فَمَاذَا أَصْنَعُ إِلَيْكَ يَا ابْنِي؟» ٣٨فَقَالَ عِيسُو لأَبِيهِ: «أَلَكَ بَرَكَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ يَا أَبِي؟ بَارِكْنِي أَنَا أَيْضًا يَا أَبِي». وَرَفَعَ عِيسُو صَوْتَهُ وَبَكَى. ٣٩فَأَجَابَ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: «هُوَذَا بِلاَ دَسَمِ الأَرْضِ يَكُونُ مَسْكَنُكَ، وَبِلاَ نَدَى السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ. ٤٠وَبِسَيْفِكَ تَعِيشُ، وَلأَخِيكَ تُسْتَعْبَدُ، وَلكِنْ يَكُونُ حِينَمَا تَجْمَحُ أَنَّكَ تُكَسِّرُ نِيرَهُ عَنْ عُنُقِكَ».

٤١فَحَقَدَ عِيسُو عَلَى يَعْقُوبَ مِنْ أَجْلِ الْبَرَكَةِ الَّتِي بَارَكَهُ بِهَا أَبُوهُ. وَقَالَ عِيسُو فِي قَلْبِهِ: «قَرُبَتْ أَيَّامُ مَنَاحَةِ أَبِي، فَأَقْتُلُ يَعْقُوبَ أَخِي». ٤٢فَأُخْبِرَتْ رِفْقَةُ بِكَلاَمِ عِيسُوَ ابْنِهَا الأَكْبَرِ، فَأَرْسَلَتْ وَدَعَتْ يَعْقُوبَ ابْنَهَا الأَصْغَرَ وَقَالَتْ لَهُ: «هُوَذَا عِيسُو أَخُوكَ مُتَسَلٍّ مِنْ جِهَتِكَ بِأَنَّهُ يَقْتُلُكَ. ٤٣فَالآنَ يَا ابْنِي اسْمَعْ لِقَوْلِي، وَقُمِ اهْرُبْ إِلَى أَخِي لاَبَانَ إِلَى حَارَانَ، ٤٤وَأَقِمْ عِنْدَهُ أَيَّامًا قَلِيلَةً حَتَّى يَرْتَدَّ سُخْطُ أَخِيكَ. ٤٥حَتَّى يَرْتَدَّ غَضَبُ أَخِيكَ عَنْكَ، وَيَنْسَى مَا صَنَعْتَ بِهِ. ثُمَّ أُرْسِلُ فَآخُذُكَ مِنْ هُنَاكَ. لِمَاذَا أُعْدَمُ اثْنَيْكُمَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؟».

٤٦وَقَالَتْ رِفْقَةُ لإِسْحَاقَ: «مَلِلْتُ حَيَاتِي مِنْ أَجْلِ بَنَاتِ حِثَّ. إِنْ كَانَ يَعْقُوبُ يَأْخُذُ زَوْجَةً مِنْ بَنَاتِ حِثَّ مِثْلَ هؤُلاَءِ مِنْ بَنَاتِ الأَرْضِ، فَلِمَاذَا لِي حَيَاةٌ؟».

الإِصحَاحُ الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ

١فَدَعَا إِسْحَاقُ يَعْقُوبَ وَبَارَكَهُ، وَأَوْصَاهُ وَقَالَ لَهُ: «لاَ تَأْخُذْ زَوْجَةً مِنْ بَنَاتِ كَنْعَانَ. ٢قُمِ اذْهَبْ إِلَى فَدَّانَ أَرَامَ، إِلَى بَيْتِ بَتُوئِيلَ أَبِي أُمِّكَ، وَخُذْ لِنَفْسِكَ زَوْجَةً مِنْ هُنَاكَ، مِنْ بَنَاتِ لاَبَانَ أَخِي أُمِّكَ. ٣وَاللّهُ الْقَدِيرُ يُبَارِكُكَ، وَيَجْعَلُكَ مُثْمِرًا، وَيُكَثِّرُكَ فَتَكُونُ جُمْهُورًا مِنَ الشُّعُوبِ. ٤وَيُعْطِيكَ بَرَكَةَ إِبْرَاهِيمَ لَكَ وَلِنَسْلِكَ مَعَكَ، لِتَرِثَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ الَّتِي أَعْطَاهَا اللّهُ لإِبْرَاهِيمَ». ٥فَصَرَفَ إِسْحَاقُ يَعْقُوبَ فَذَهَبَ إِلَى فَدَّانَ أَرَامَ، إِلَى لاَبَانَ بْنِ بَتُوئِيلَ الأَرَامِيِّ، أَخِي رِفْقَةَ أُمِّ يَعْقُوبَ وَعِيسُوَ.

٦فَلَمَّا رَأَى عِيسُو أَنَّ إِسْحَاقَ بَارَكَ يَعْقُوبَ وَأَرْسَلَهُ إِلَى فَدَّانَ أَرَامَ لِيَأْخُذَ لِنَفْسِهِ مِنْ هُنَاكَ زَوْجَةً، إِذْ بَارَكَهُ وَأَوْصَاهُ قَائِلاً: «لاَ تَأْخُذْ زَوْجَةً مِنْ بَنَاتِ كَنْعَانَ». ٧وَأَنَّ يَعْقُوبَ سَمِعَ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ وَذَهَبَ إِلَى فَدَّانَ أَرَامَ. ٨رَأَى عِيسُو أَنَّ بَنَاتِ كَنْعَانَ شِرِّيرَاتٌ فِي عَيْنَيْ إِسْحَاقَ أَبِيهِ، ٩فَذَهَبَ عِيسُو إِلَى إِسْمَاعِيلَ وَأَخَذَ مَحْلَةَ بِنْتَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، أُخْتَ نَبَايُوتَ، زَوْجَةً لَهُ عَلَى نِسَائِهِ.

الإنجيل

لا يوجد في كتاب الإنجيل ذكر للنبي إسماعيل، في حين يأتي ذكر إسحاق في بعض الأناجيل مقترناً بقصة نسب السيد المسيح أو في نسق تذكري أو موعظي.

إنجيل مَتَّى

الإصحَاحُ الأَوَّلُ

١كِتَابُ مِيلاَدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْراهِيمَ: ٢إِبْراهِيمُ وَلَدَ إِسْحاقَ. وَإِسْحاقُ وَلَدَ يَعْقُوبَ. وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يَهُوذَا وَإِخْوَتَهُ. ٣وَيَهُوذَا وَلَدَ فَارِصَ وَزَارَحَ مِنْ ثَامَارَ. وَفَارِصُ وَلَدَ حَصْرُونَ. وَحَصْرُونُ وَلَدَ أَرَامَ. ٤وَأَرَامُ وَلَدَ عَمِّينَادَابَ. وَعَمِّينَادَابُ وَلَدَ نَحْشُونَ. وَنَحْشُونُ وَلَدَ سَلْمُونَ. ٥وَسَلْمُونُ وَلَدَ بُوعَزَ مِنْ رَاحَابَ. وَبُوعَزُ وَلَدَ عُوبِيدَ مِنْ رَاعُوثَ. وَعُوبِيدُ وَلَدَ يَسَّى. ٦وَيَسَّى وَلَدَ دَاوُدَ الْمَلِكَ. وَدَاوُدُ الْمَلِكُ وَلَدَ سُلَيْمَانَ مِنَ الَّتِي لأُورِيَّا. ٧وَسُلَيْمَانُ وَلَدَ رَحَبْعَامَ. وَرَحَبْعَامُ وَلَدَ أَبِيَّا. وَأَبِيَّا وَلَدَ آسَا. ٨وَآسَا وَلَدَ يَهُوشَافَاطَ. وَيَهُوشَافَاطُ وَلَدَ يُورَامَ. وَيُورَامُ وَلَدَ عُزِّيَّا. ٩وَعُزِّيَّا وَلَدَ يُوثَامَ. وَيُوثَامُ وَلَدَ أَحَازَ. وَأَحَازُ وَلَدَ حِزْقِيَّا. ١٠وَحِزْقِيَّا وَلَدَ مَنَسَّى. وَمَنَسَّى وَلَدَ آمُونَ. وَآمُونُ وَلَدَ يُوشِيَّا. ١١وَيُوشِيَّا وَلَدَ يَكُنْيَا وَإِخْوَتَهُ عِنْدَ سَبْيِ بَابِلَ. ١٢وَبَعْدَ سَبْيِ بَابِلَ يَكُنْيَا وَلَدَ شَأَلْتِيئِيلَ. وَشَأَلْتِيئِيلُ وَلَدَ زَرُبَّابِلَ. ١٣وَزَرُبَّابِلُ وَلَدَ أَبِيهُودَ. وَأَبِيهُودُ وَلَدَ أَلِيَاقِيمَ. وَأَلِيَاقِيمُ وَلَدَ عَازُورَ. ١٤وَعَازُورُ وَلَدَ صَادُوقَ. وَصَادُوقُ وَلَدَ أَخِيمَ. وَأَخِيمُ وَلَدَ أَلِيُودَ. ١٥وَأَلِيُودُ وَلَدَ أَلِيعَازَرَ. وَأَلِيعَازَرُ وَلَدَ مَتَّانَ. وَمَتَّانُ وَلَدَ يَعْقُوبَ. ١٦وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يُوسُفَ رَجُلَ مَرْيَمَ الَّتِي وُلِدَ مِنْهَا يَسُوعُ الَّذِي يُدْعَى الْمَسِيحَ. ١٧فَجَمِيعُ الأَجْيَالِ مِنْ إِبْراهِيمَ إِلَى دَاوُدَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً، وَمِنْ دَاوُدَ إِلَى سَبْيِ بَابِلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً، وَمِنْ سَبْيِ بَابِلَ إِلَى الْمَسِيحِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً.

الإصحاح الثامن

٥وَلَمَّا دَخَلَ يَسُوعُ كَفْرَنَاحُومَ، جَاءَ إِلَيْهِ قَائِدُ مِئَةٍ يَطْلُبُ إِلَيْهِ ٦وَيَقُولُ: «يَا سَيِّدُ، غُلاَمِي مَطْرُوحٌ فِي الْبَيْتِ مَفْلُوجًا مُتَعَذِّبًا جِدًّا». ٧فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا آتِي وَأَشْفِيهِ». ٨فَأَجَابَ قَائِدُ الْمِئَةِ وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، لَسْتُ مُسْتَحِقًّا أَنْ تَدْخُلَ تَحْتَ سَقْفِي، لكِنْ قُلْ كَلِمَةً فَقَطْ فَيَبْرَأَ غُلاَمِي. ٩لأَنِّي أَنَا أَيْضًا إِنْسَانٌ تَحْتَ سُلْطَانٍ. لِي جُنْدٌ تَحْتَ يَدِي. أَقُولُ لِهذَا: اذْهَبْ! فَيَذْهَبُ، وَلآخَرَ: ائْتِ! فَيَأْتِي، وَلِعَبْدِيَ: افْعَلْ هذَا! فَيَفْعَلُ». ١٠فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ تَعَجَّبَ، وَقَالَ لِلَّذِينَ يَتْبَعُونَ: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَمْ أَجِدْ وَلاَ فِي إِسْرَائِيلَ إِيمَانًا بِمِقْدَارِ هذَا! ١١وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَيَتَّكِئُونَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، ١٢وَأَمَّا بَنُو الْمَلَكُوتِ فَيُطْرَحُونَ إِلَى الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ». ١٣ثُمَّ قَالَ يَسُوعُ لِقَائِدِ الْمِئَةِ: «اذْهَبْ، وَكَمَا آمَنْتَ لِيَكُنْ لَكَ». فَبَرَأَ غُلاَمُهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ.

الإصحاح الثاني والعشرون

٢٩فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «تَضِلُّونَ إِذْ لاَ تَعْرِفُونَ الْكُتُبَ وَلاَ قُوَّةَ اللّهِ. ٣٠لأَنَّهُمْ فِي الْقِيَامَةِ لاَ يُزَوِّجُونَ وَلاَ يَتَزَوَّجُونَ، بَلْ يَكُونُونَ كَمَلاَئِكَةِ اللّهِ فِي السَّمَاءِ. ٣١وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ قِيَامَةِ الأَمْوَاتِ، أَفَمَا قَرَأْتُمْ مَا قِيلَ لَكُمْ مِنْ قِبَلِ اللّهِ الْقَائِلِ: ٣٢أَنَا إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ؟ لَيْسَ اللّهُ إِلهَ أَمْوَاتٍ بَلْ إِلهُ أَحْيَاءٍ». ٣٣فَلَمَّا سَمِعَ الْجُمُوعُ بُهِتُوا مِنْ تَعْلِيمِهِ.

إنجيل مرقس

الإِصحَاحُ الثَّانِي عَشَرَ

٢٦وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الأَمْوَاتِ إِنَّهُمْ يَقُومُونَ: أَفَمَا قَرَأْتُمْ فِي كِتَابِ مُوسَى، فِي أَمْرِ الْعُلَّيْقَةِ، كَيْفَ كَلَّمَهُ اللّهُ قَائِلاً: أَنَا إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ؟ ٢٧لَيْسَ هُوَ إِلهَ أَمْوَاتٍ بَلْ إِلهُ أَحْيَاءٍ. فَأَنْتُمْ إِذًا تَضِلُّونَ كَثِيرًا

إنجيل لوقا

الإصحَاحُ الثَّالِثُ

٢٣وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلاَثِينَ سَنَةً، وَهُوَ عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ ابْنَ يُوسُفَ، بْنِ هَالِي، ٢٤بْنِ مَتْثَاتَ، بْنِ لاَوِي، بْنِ مَلْكِي، بْنِ يَنَّا، بْنِ يُوسُفَ، ٢٥بْنِ مَتَّاثِيَا، بْنِ عَامُوصَ، بْنِ نَاحُومَ، بْنِ حَسْلِي، بْنِ نَجَّايِ، ٢٦بْنِ مَآثَ، بْنِ مَتَّاثِيَا، بْنِ شِمْعِي، بْنِ يُوسُفَ، بْنِ يَهُوذَا، ٢٧بْنِ يُوحَنَّا، بْنِ رِيسَا، بْنِ زَرُبَّابِلَ، بْنِ شَأَلْتِيئِيلَ، بْنِ نِيرِي، ٢٨بْنِ مَلْكِي، بْنِ أَدِّي، بْنِ قُصَمَ، بْنِ أَلْمُودَامَ، بْنِ عِيرِ، ٢٩بْنِ يُوسِي، بْنِ أَلِيعَازَرَ، بْنِ يُورِيمَ، بْنِ مَتْثَاتَ، بْنِ لاَوِي، ٣٠بْنِ شِمْعُونَ، بْنِ يَهُوذَا، بْنِ يُوسُفَ، بْنِ يُونَانَ، بْنِ أَلِيَاقِيمَ، ٣١بْنِ مَلَيَا، بْنِ مَيْنَانَ، بْنِ مَتَّاثَا، بْنِ نَاثَانَ، بْنِ دَاوُدَ، ٣٢بْنِ يَسَّى، بْنِ عُوبِيدَ، بْنِ بُوعَزَ، بْنِ سَلْمُونَ، بْنِ نَحْشُونَ، ٣٣بْنِ عَمِّينَادَابَ، بْنِ أَرَامَ، بْنِ حَصْرُونَ، بْنِ فَارِصَ، بْنِ يَهُوذَا، ٣٤بْنِ يَعْقُوبَ، بْنِ إِسْحَاقَ، بْنِ إِبْرَاهِيمَ، بْنِ تَارَحَ، بْنِ نَاحُورَ، ٣٥بْنِ سَرُوجَ، بْنِ رَعُو، بْنِ فَالَجَ، بْنِ عَابِرَ، بْنِ شَالَحَ، ٣٦بْنِ قِينَانَ، بْنِ أَرْفَكْشَادَ، بْنِ سَامِ، بْنِ نُوحِ، بْنِ لاَمَكَ، ٣٧بْنِ مَتُوشَالَحَ، بْنِ أَخْنُوخَ، بْنِ يَارِدَ، بْنِ مَهْلَلْئِيلَ، بْنِ قِينَانَ، .

يوسف
عليه السلام

هو يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، ورد ذكره في سبعة وعشرين موضعاً من التنزيل الحكيم، أولها في الأنعام ٨٤ وآخرها في غافر ٣٤ والباقي جميعه في سورة يوسف، وهي السورة رقم ١٢ التي تتضمّن تفاصيل قصة هذا النبي الكريم، وترسم لنا صورة الأوضاع والعلاقات الأسرية والقبلية والعشائرية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية السائدة في ذلك الوقت بتفصيل غير مسبوق.

بعد أن رأينا كيف انتهت رحلة إبراهيم من الحيرة والشك في بابل حتى وصوله إلى اليقين والاطمئنان عند بيت اللّه المحرَّم في بكّة، ورأينا أن الصلاة والحج بدآ بإبراهيم وأن الزكاة بدأت بإسماعيل، وكنا قد رأينا كيف بدأ بِرُّ الوالدين بنوح وسادت في زمانه سُكنى الوديان ثم كيف انتقل الناس إلى سُكنى الجبال خوفاً من الطوفان وبعدها إلى البيوت المنحوتة في الجبال خوفاً من العواصف والرياح، ورأينا كيف بدأ الوفاء بالكيل والميزان بشُعيب وتحريم بعض الأطعمة بإسرائيل، ونأتي الآن لنتأمل ما في قصة يوسف - كما وردت في التنزيل الحكيم - من عِبَر.

أ - على صعيد الأسرة والعشيرة

تبدأ القصة لتصوّر لنا والداً هو يعقوب وأبناءه الاثني عشر أصغرهم يوسف وبنيامين المحبوبان المفضّلان عند يعقوب، ونفهم أن ثمة جوانب في علاقات

الأفراد بعضهم مع بعض ضمن الأسرة الواحدة لم تتغيّر رغم توالي الحقب والعصور، منها وجود ابن في الأسرة يفضّله الأبوان عن باقي إخوته ويخصّانه بالحب والاهتمام، خصوصاً عندما يكون الأب صاحب جاه أو تكون الأم صاحبة مال.

لا ريب في أن هذه الظاهرة أكثر شيوعاً ووضوحاً عند الأمهات منها عند الآباء، والسبب في ذلك هو اختلاف طبيعة العاطفة بين الرجل والمرأة من جانب، ونظرة المجتمع التي تعتبر إظهار الحنان والحب للأولاد نوعاً من الضعف ودليلاً على التخنّث. وهذا معنى قول إخوة يوسف لأبيهم ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُا۟ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ (يوسف ٨٥). إلا أننا يجب هنا أن نفرّق بين أمرين أولهما محمود والثاني مذموم:

فالعطف على الأولاد وأخذهم بالرحمة وإحاطتهم بالحنان والرعاية ومداعبتهم والمسح على رؤوسهم أمر مطلوب دعا النبي (ص) أصحابه إلى التمسك به. روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قبَّل رسول اللّه (ص) الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت منهم أحداً. فنظر إليه رسول اللّه (ص) ثم قال: من لا يَرحَم لا يُرحم. أهـ. وهذا الحديث من الحكمة النبوية إن صح.

أما تفضيل بعض الأولاد على بعض، وتمييز أحدهم عن الآخرين وتخصيصه بما ليس لغيره فيه حصة ونصيب بدون سبب وجيه، مثال ذلك تخصيص الضعاف من الذرّية بشيء من الوصية دون غيرهم، فتلك هي العِبرة الأساس التي قصد سبحانه أن نصل إليها وأن نفهمها، وذلك هو الدرس الأول الذي أرادنا أن نتعلمه وأن نتجنب الوقوع فيما ينتج عنه من متواليات تم تفصيلها في القصة بكل وضوح:

١ - لعل الغيرة هي أول مايتولد عن التمييز بين الإخوة، ضمن الأسرة الواحدة، وتفضيل بعضهم على بعض. وهذا معنى قوله تعالى ﴿إِذۡ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ

وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا. . .﴾ (يوسف ٨). فالإخوة لم ينكروا حب أبيهم لهم، ولم يزعموا أنه يكرههم مثلاً، لكنهم أخذوا عليه تفضيل يوسف وأخيه عليهم بحبه لهما أكثر من حبه لهم.

٢ - فإذا ما انتشر سرطان الغيرة تحوّل إلى حسد تغذّيه الأنانية، يعتقد الحاسد معه أنه أفضل من المحسود من جانب، ويودّ لو أنه استأثر بما لديه من جانب آخر، وهذا - برأينا - ما عناه إبليس في قوله لربه حين أمره بالسجود لآدم ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ (ص ٧٦).

٣ - وإذا ما استحكم الحسد انقلب إلى ضغينة وحقد يدفع الحاقد إلى التفكير بتصفية المحقود عليه جسدياً إما بالقتل أو بالإبعاد، وكأني بإخوة يوسف استقر رأيهم بداية على قتله ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ. .﴾ (يوسف ٩)، إلا أنهم عدلوا عن ذلك وأخذوا بقول من قال منهم ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ (يوسف ١٠).

ويستوقفنا في الآية السابقة أمران. الأول، أنها ذكرت الجُبُّ ولم تذكر البئر. والجبُّ حُفرة عميقة من صنع الطبيعة تتجمع فيها المياه، وعرة الجوانب يصعب على الساقط فيها أن يخرج منها. أما البئر فحفرة يصنعها الإنسان - قد تكون عميقة وقد لا تكون - ليصل إلى منابع المياه العميقة، والأجباب حُفر مملوءة بالمياه يعرف الرعاة أماكنها ويردونها لمواشيهم كما يقصدها المسافرون السيارة وليس القوافل، التماساً للماء لإبلهم وخيولهم، أما الآبار فغالباً ما تكون على الطرق التجارية ليشرب منها الناس (القوافل)، وأما ما زعمه المفسرون من أن الجب بئر ببيت المقدس أو بأرض الأردن أو بين مَدْيَن ومصر (انظر التفسير الكبير للرازي ج١٨ ص ٧٧ ومجمع البيان للطبرسي ج٣ ص ٢١٣) فهو خلط في معاني الألفاظ ومدلولاتها قاد إليه القول بالترادف، لأن الجب شيء والبئر شيء آخر ولأن بيت المقدس لم يكن معروفاً في زمن يعقوب وأبنائه بهذا الاسم.

والثاني، أنها ذكرت السيارة ولم تذكر القوافل، والسيَّارة جمع تكسير مفرده سيّار اسم فاعل من سار يسير، وهو المسافر من بلد إلى آخر، فإذا اجتمع المسافرون في جماعة أصبحوا سيّارة. أما القوافل فجمعٌ مفرده قافلة أفرادها تجار يحملون بضائعهم من منطقة ليبيعوها في منطقة أخرى، ثم يشترون بضائع يعودون بها إلى المنطقة التي جاؤوا منها، ومن هنا سُمّيت القافلة قافلة لأنها ترجع وتعود، أما السيّارة فمسافروها لا يعودون بالضرورة، وتلك إشارة إلى أن الإخوة قرروا إبعاد يوسف إبعاداً لاعودة فيه.

ونفهم من هذا كله أن يعقوب وأبناءه لم يكونوا تجاراً أهل حضر بل كانوا رعاة أهل بادية بدلالة ثلاثة أمور:

١ - ورد لفظ الجب في الآية ١٠ من سورة يوسف معرَّفاً بأل العهد، ولم يكن ليأتي كذلك لولا أن الإخوة يعرفونه، إذ طالما وردوه بماشيتهم وقطعانهم.

٢ - ورد لفظ الذئب أيضاً معرَّفاً بأل العهد على لسان يعقوب لبنيه في قوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ (يوسف ١٣)، ولم يكن ليأتي كذلك لولا أن الإخوة يعرفونه، إذ طالما تعرّضوا أثناء رعيهم لهجمات الذئاب الجائعة.

٣ - ورد لفظ البدو على لسان يوسف لإخوته وأبويه في قوله تعالى بنهاية القصة ﴿. . .وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ. . .﴾ (يوسف ١٠٠)، والبدو لا يكونون إلا رعاة.

في ضوء هذه الأمور الثلاثة من جانب، فنحن في قوله تعالى ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (يوسف ١٢)، لا نستطيع إلا أن نفهم فعل الرتع بمعنى الرعي والارتعاء حصراً وليس بأي معنى آخر، تماماً كما في قول ابن الملوَّح العامري:

أخذنا وأعطينا إذ البُهم ترتعي وإذ نحن خلف البُهم مستتران

ولتجنُّب الوقوع في اللحن والخروج على ما اصطلح عليه العرب قواعدياً في

لسانهم من جانب ثانٍ، فنحن لانستطيع - إن فهمنا الرتع بمعنى الرعي - إلا أن نحرّك العين في فعل «يرتع» بالكسر وليس بالسكون كما هي في جميع مصاحف الأمة الإسلامية سنَّةً وشيعة، وكما في جميع الترجمات إلى اللغات الأخرى فارسية وتركية وروسية وإنكليزية، وكما في جميع التفاسير المنتشرة في أيدي الناس قديمها وحديثها.

وللحفاظ على منطقية الحوار بين الإخوة وأبيهم من جانب ثالث، فنحن لانستطيع - إن لاحظنا أن يوسف كان وقتها غلاماً صغير السن - أن نقرأ فعل «يرتع» بالياء فنسند إلى يوسف فعل رعي القطيع. قد يصح أن نسند إليه بحكم سنّه فعل اللعب أما الرعي فلا. كما لا نستطيع أن نسند إليه فعل الرعي وفعل اللعب معاً، إذ الغلام في مثل سن يوسف إما أن يساعد بإخراج القطيع إلى الأماكن الخصيبة بالماء والكلأ - إن توفّرت له الخبرة اللآزمة - أو أن يلعب، ولا يجتمعان. وأمام هذا لا يسعنا إلا أن نستعرض القراءات وإشكالياتها.

ثمة سبع قراءات لآية يوسف ١٢، اتفق الإمام الرازي في تفسيره ج ١٨ ص ٧٨، والإمام الطبرسي في تفسيره ج٣ ص ٢١٣ على خمس منها، وانفرد الطبرسي بذكر سادسة وسابعة اعتبرهما من الشواذ، ندرجها جميعاً بالتفصيل كما وردت:

١ - (أرسله معنا غداً نرتعِ ويلعبْ) هكذا قرأها ابن كثير. الفعل المضارع الأول بالنون منسوباً للإخوة، وبكسر العين من الارتعاء. والارتعاء على وزن افتعال من رعيت، يقال ارتعت الماشية الكلأ إذا ساغته وأكلته. والفعل المضارع الثاني بالياء منسوباً ليوسف.

٢ - (أرسله معنا غداً يرتعِ ويلعبْ) هكذا قرأها أبو جعفر ونافع، الفعلان المضارعان كلاهما بالياء منسوبان ليوسف، بمعنى أنه يباشر الرعي ليتدرب عليه فمرة يرتعي ومرة يلعب كفعل الصبيان.

٣ - (أرسله معنا غداً نرتعْ ونلعبْ) هكذا قرأها أبو عمرو وابن عامر، الفعلان المضارعان كلاهما بالنون منسوبان للإخوة وكلاهما مجزوم بالسكون

على آخره. قال ابن الأعرابي: الرتع هو الأكل بشراهة.

٤ - (أرسله معنا غداً يرتعْ ويلعبْ) هكذا قرأها أهل الكوفة ورويس عن يعقوب، والفعلان كلاهما بالياء منسوبان ليوسف، وكلاهما مجزوم بالسكون على آخره. وهذه هي القراءة المعتمدة فيما بين أيدي الناس اليوم من مصاحف وتفاسير وترجمات.

٥ - (أرسله معنا غداً نرتعْ ويلعب) هكذا قرأها روح وزيد عن يعقوب وقرأها الأعرج وإبراهيم النخعي، وروي عن أبي عمرو أنه قرأها كذلك. الفعل الأول بالنون منسوباً للإخوة والفعل الثاني بالياء منسوباً ليوسف وكلا الفعلين مجزوم بالسكون على آخره.

٦ - (أرسله معنا غداً يرتعِ ويلعبُ) هكذا قرأها العلاء بن سيابة، الفعلان بالياء منسوبان ليوسف، الأول مجزوم بحذف حرف العلة من آخره والثاني مرفوع وعلامته الضمة.

٧ - (أرسله معنا غداً يرتعُ ويلعبُ) هكذا قرأها أبو الرجا، كلا الفعلين بالياء وكلاهما مرفوع وعلامته الضم على آخره.

ليس صعباً على أي متأمل عاقل ينظر في هذه القراءات السبع أن يلاحظ عدة أمور. أولها أن القارئ الواحد قد يقرأ الآية نفسها على أكثر من وجه. فقد أخذ أهل الكوفة بقراءة يعقوب (رقم ٤) وأخذ روح وزيد عنه قراءة أخرى (رقم ٥). وقرأ أبو عمرو بالقراءة رقم ٣ وبالقراءة رقم ٥ معاً. ثانيها، أن القرّاء - مشهورهم وشواذهم، سواء أكانوا سبعة كما في رأي البعض أم كانوا عشرة كما في رأي البعض الآخر، هم جميعاً من التابعين أي من أبناء ما بعد العصر النبوي، وأغلبيتهم من أبناء ما بعد عصر التدوين[1]. هذان الأمران يقودان إلى

(١) نورد على سبيل المثال لتوضيح ما ذهبنا إليه ما ذكره أبو بكر أحمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري (ت عام ٨٣٥ هـ) في كتابه «طيب النشر في القراءات العشر»:
١ - نافع بن عبد الرحمن الليثي (٧٠-١٦٩ هـ) راوياه: قالون وورش.
٢ - عبد الله بن كثير الداري المكي (٤٥-١٢٠ هـ) راوياه: البزي وقنبل.

أمر ثالث هو أن ما عددناه من اختلافات سبعة في قراءة قوله تعالى ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب﴾ ليس أكثر من تصحيفات في نص مكتوب مقروء، أما في التنقيط والإعجام أو في الشكل والإعراب أو في كليهما معاً: يرتعْ ويلعبْ / نرتعْ ويلعبْ / يرتعِ ويلعبْ / نرتعِ ويلعبْ / يرتعِ ويلعبُ / يرتعُ ويلعبُ / نرتعُ ونلعبُ. وكان طبيعياً أن تقع مثل هذه التصحيفات في نص مكتوب لم يكن قد عرف التنقيط ولا حركات الإعراب بعدُ من ضمّ وفتح وكسر وسكون.

من الثابت أن التنزيل الحكيم جاء منطوقاً مسموعاً وليس مخطوطاً مقروءاً. ومن الثابت أيضاً أن الرسول (ص) أبلغه لأصحابه بكل دقة وأمانة كما سمعه من جبريل. وهذا يعني بكل بساطة أن للتنزيل الحكيم قراءة واحدة لا ثانية لها ولا سابعة ولا عاشرة. ونحن نفهم في ضوء هذه الثوابت أن يتساهل النبي (ص) وهو يسمع القرّاء من مُضَر وربيعة وتميم يقرأون الآيات كما تقتضي لهجات قبائلهم، فيجيز أن تنقلب الكاف شيناً والحاء هاءً وأن تتحوّل العين في أول الكلمة إلى همزة. ونفهم أن هذا التجويز عنده يأتي مصداقاً لقوله تعالى ﴿... يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ...﴾ (البقرة ١٨٥) ولقوله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ (البقرة ٢٨٦). لكننا لانفهم أبداً أن يتساهل

---

٣ - زياد بن العلا المازني البصري (٦٨-١٥٥ هـ) راوياه: يحيى والدوري.
٤ - عبد اللّه بن عامر اليحصبي الدمشقي (٦١-١١٨ هـ) راوياه: هشام وابن ذكوان.
٥ - عاصم بن أبي النجود الأسدي الكوفي (؟؟-١٢٧ هـ) راوياه: شعبة وحفص.
٦ - حمزة بن حبيب التيمي الكوفي (٨٠-١٥٦ هـ) راوياه: سُلَيم وخلف.
٧ - علي بن حمزة الكسائي الكوفي (؟؟-١٩٨ هـ) راوياه: أبو الحارث والدوري.
٨ - يزيد بن القعقاع المخزومي المدني (؟؟-١٣٠ هـ) راوياه: عيسى وابن حجاز.
٩ - يعقوب بن اسحق الحضرمي البصري (١١٧-٢٠٥ هـ) راوياه: روَيس ورَوح.
١٠ - خلف بن هشام البزار (١٥٠-٢٢٩ هـ) راوياه: إسحق وإدريس.

يبقى أن نشير إلى أن لكل من الرواة طرقاً متعددة لا تقل عن أربعة، فالرواية عن الراوي في علم القراءات اسمها طريق، كطريق الداني وطريق الشاطبي وطريق أبي العز ونحو ذلك. فما كان عن أحد الأئمة العشرة فهو قراءة، وما كان عن أحد رواتهم فهو رواية، وما كان عمن بعدهم فهو طريق، وقد يصل عدد الطرق إلى ألوف.

فيجيز قراءة ترفع المجزوم وأخرى تجزم المرفوع وثالثة تنسب الفعل لغير فاعله ورابعة تقلب المفرد الغائب إلى جمع غائب أو إلى جمع متكلم وخامسة تحوّل الفعل المعتل الآخر إلى تام وسادسة تفسّر الرعي والارتعاء بأنه الأكل بشراهة.

يقول الإمام محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي في تفسيره «الكشّاف عن حقائق التنزيل» (ج٢ ص ١٧٧) مفسراً قوله تعالى ﴿... فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ...﴾ (التوبة ١٢):

«فإن قلت: كيف لفظ أئمّة؟ قلتُ: همزة بعدها همزة بين بين، أي بين مخرج الهمزة والياء. وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة وإن لم تكن مقبولة عند البصريين. وأما التصريح بالياء فليس بقراءة ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بهما فهو لاحن محرّف» أهـ.

إن من العجيب ألا يقف إمام لغوي مفسر كالزمخشري أمام اختلاف القراءات في آية يوسف (١٢) كما وقف أمام المسألة ذاتها في آية التوبة (١٢). والأعجب أنه، وهو على رأس قائمة متهمة بالاعتزال لاحتكامه إلى العقل في كل ما يذهب إليه، لم تستوقفه قراءة ابن كثير الداري المكي لآية يوسف (١٢) بمتانتها قواعدياً من جانب وبانسجامها مع السباق والسياق من جانب آخر، بقدر ما استوقفه عدد من الأمور في آية التوبة (١٢) وأشار إليها:

آ - مسألة تحقيق الهمزتين في لفظة (أئمة) كقراءة مشهورة.

ب - رفض قراءة البصرة لهذه القراءة رغم أنها مشهورة.

ج - مسألة ترقيق الهمزة الثانية شرط ألا تتحوّل إلى ياء.

د - فإن تحوّلت إلى ياء صريحة أصبحت لحناً وتحريفاً.

ويندهش المتأمل وهو يجده يرفض مع البصريين تحقيق الهمزتين في قراءة مشهورة لا يكلّف نفسه ذكر صاحبها أهو من الكوفيين أم من غيرهم[1]. وتزداد

---

(١) من المفيد الإشارة إلى أن القراء العشرة فيهم البصريون كيعقوب ورويس وذبان وفيهم الكوفيون كعاصم وحمزة والكسائي وفيهم المدنيون كنافع ويزيد.

دهشته وهو يجده يعتبر - دون أن يرفّ له جفن - أن إشباع ترقيق الهمزة ليس بقراءة ولا يجوز أن تكون قراءة وأن التصريح بالياء لحن وتحريف.

وإذا تركنا جانباً التعجب والاندهاش مما قاله الزمخشري فنحن لا نستطيع إلا أن نقف عند ما لم يقله. أتراه وهو يذكر البصريين في عبارته وما هو مقبول عندهم من قراءات أو غير مقبول غاب عنه أن يشير - على الأقل - إلى قراءة إمام قراء المدينة المنوّرة نافع بن عبد الرحمن الليثي الذي قال فيه الإمام مالك: «قراءة نافع سُنَّة»؟

وإذا كان لم يغب عنه ذلك - وهو الأرجح عندنا - أتراه يحاول أن يفهمنا أن اختلاف القراءات، كغيره من أوجه الخلاف بين الكوفيين والبصريين مثل النحو والصرف وغيره، ليس أكثر من خلاف بين شيعة ونواصب كل منهم يقرأ بقراءة إمامه، هؤلاء ينتهون في زعمهم إلى ابن مسعود وأولئك ينتهون في زعمهم إلى علي بن أبي طالب. ونحن نعلم أن التاريخ يذكر لنا مصاحف لعلي بن أبي طالب ولعبد اللّه بن مسعود ولكنها كلها أُحرقت بعد تدوين نسخة عثمان، وهذا - برأينا - سبب هذه الاختلافات في القراءات. وأن علي بن أبي طالب وعبد اللّه بن مسعود لم يكونا من لجنة تدوين المصحف في عهد عثمان بن عفّان.

لقد سبق لنا في موضع آخر من كتابنا (نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي) أن أفردنا خبراً متواضعاً لمسألة القراءات دعونا فيه الدارسين إلى استقصاء أبعاد المسألة وبحثها، وها نحن نفرد لها هنا هذا الحيّز المتواضع راجين ممن تخصصوا في هذه المسألة لنيل شهاداتهم العليا كالماجستير والدكتوراه إعطاءها حقها من التأمل والتفكر.

ب - على صعيد حياته الخاصة بأبرز أحداثها

بعيداً عن اصطفاء اللّه سبحانه ليوسف واختياره ليكون نبياً، وهو ما سنتحدث عنه بالتفصيل في فقرة تالية، فإن المتأمل في قصة يوسف - كما وردت في السورة رقم ١٢ من التنزيل الحكيم - يجد نفسه أمام جملة أحداث أبرزها:

١ - كثيرون من أهل الأخبار وأصحاب قصص الأنبياء بالغوا في وصف يوسف بالحسن والجمال والملاحة، وتركوا العنان لمخيلتهم وهم يقرؤون وصفه على لسان نسوة المدينة في قوله تعالى ﴿... فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف ٣١). ونكتفي هنا بالإشارة إلى عبارة (أكبرنه)، ففي الإكبار من الإجلال والهيبة أكثر مما فيه من الإعجاب والافتنان.

كان يوسف بهيَّ الطلعة وسيماً موفور الصحة في ريعان الشباب، ولد طفلاً ونشأ غلاماً في بيئة رعوية بين أحضان الطبيعة، ثم اشتد ساعده ناعماً مدللاً في قصر سيد المدينة الذي من اللحظة الأولى التي اشتراه فيها أوصى امرأته به قائلاً ﴿... أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا...﴾ (يوسف ٢١). أما النفع المرجو منه فهو الربح إن باعه بسعر أعلى مما دفعه فيه عند شرائه. ونفهم أن الرقّ والتبنّي كانا شائعين في البيئة الجديدة التي وجد يوسف نفسه فيها.

٢ - وكان من الطبيعي أن يصبح يوسف سراجاً تحوم حوله فراشات القصر إن لم نقل فراشات المدينة، فبدأت بذلك محنته الثانية.

٣ - يبدو أن يوسف كان عُرضة لإغراءات ودعوات أكثر من امرأة واحدة بدليل قوله في دعائه لربه سبحانه ﴿... وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (يوسف ٣٣). لكن المؤكد أنه تعرّض مرات عديدة لمحاولات سيّدته المشغوفة به حباً، كانت إحداها تلك التي انفردت به في غياب زوجها وغلّقت فيها الأبواب، بدليل أن فعل المراودة على لسان النسوة في قوله تعالى ﴿... وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ...﴾ (يوسف ٣٠)، جاء في الآية بصيغة المضارع الدالة على دوام التكرر، ولو كان ذلك حصل مرة واحدة لجاء بصيغة الماضي (راودت).

٤ - إذا نحن عدنا للوقوف عند قوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا...﴾ (يوسف ٢١)، فهمنا

بدلالة العبارة الأخيرة أن الرجل وامرأته ليس لديهما أولاد، لعُقم أو عُقر أو عُنَّة لدى أحدهما أو لديهما معاً، رغم أن ذلك لا يمنع غريزة الجِماع ولا يهدهدها، علماً أننا نرجّح أن سبب عدم الإنجاب هو العُنّة لدى عزيز مصر، التي لعلّها شكّلت بدورها سبباً دفع بالمرأة إلى البحث خارج فراش الزوجية عمّن يعوّضها عن زوجها العِنّين.

٥ - ننتقل الآن إلى قوله تعالى ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (يوسف ٢٣)، ونفهم منه أموراً أولها: أن يوسف كان يعرف اللّه بدليل أنه استعاذ به، ثانيها: أنه استكبر واستنكر أن يمتثل لما تدعوه إليه باعتباره يتعارض أخلاقياً مع ما انفتحت عيناه عليه في بيئته الأولى من مكارم وقِيَم ومُثل عُليا كالوفاء والمروءة، وليس باعتباره زنا محرّماً لأن تحريم الزنا لم يكن قد نزل به تشريع إلهي. ثالثها: أن قوله في النصف الثاني من الآية ٢٣ يجسّد من جانب مصداقية كونه حكيماً يفعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، ويجسّد من جانب آخر كونه عليماً يعرف أن الظالم خاسر لا يحصد الفلاح. رابعها: أنه استخدم في قوله عبارة (أحسن مثواي) وهي ذات العبارة التي استخدمها العزيز وهو يوصي امرأته بيوسف، وكأنه يذكّرها بزوجها بشكل غير مباشر.

٦ - بعد آية يوسف ٢٣، يتابع سبحانه القصة قائلاً ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ (يوسف ٢٤).

هذه الآية لا يمكن فهمها إلا إذا فهمنا لماذا استعاذ يوسف باللّه في الآية السابقة. والجواب: إنه من موقعه كنبيّ يعلم أن ميل الرجل للمرأة والمرأة للرجل غريزة فطرية جعلها اللّه فيهما بدلالة قوله تعالى ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ...﴾ (الروم ٢١)، ويعلم أن هذه الغريزة المخلوقة المجعولة فيه قانون رباني قاهر لا فكاك لإنسان

منه نبياً كان أم غير نبي إلا بتدخل من اللّه الخالق البارئ المصوّر. وهذا ما أشار إليه يوسف نفسه في قوله ﴿. . .وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف ٣٣)، ومن هنا كان طبيعياً أن يلجأ يوسف إلى ربه مستعيذاً به راجياً منه متوكلاً عليه. والسؤال الأول: هل استجاب اللّه ليوسف؟ والجواب: نعم، بدلالة قوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يوسف ٣٤). والسؤال الثاني: كيف حصل ذلك وتمّ؟ والجواب: كما أن اللّه سبحانه استجاب لإبراهيم وعطّل خاصيّة الإحراق في نار النمرود فجعلها برداً وسلاماً، وكما استجاب لموسى في مباراته أمام فرعون فحوَّلَ العصا من خشب إلى لحم ودم فإذا هي حيّة تسعى، كذلك استجاب لنبيّه يوسف فجرّده من قدرته على الجماع، فإذا بعنوان ذكورته خِرقة بالية لا تنفع لا للخلّ ولا للخردل. وهذا هو البرهان الربّاني المادي الذي رآه يوسف رأي العين وهي تهمُّ به ويهمُّ بها، وهكذا أصبح الجماع الجنسي مستحيلاً. وهذا هو برهان اللّه على الإحصان من الفاحشة، وهو برهان من مقام الربوبية. وإلى يومنا هذا إذا أراد اللّه منع إنسان ما من الوقوع في الفاحشة فإنه يفقده القدرة على الجنس إن كان فاحشة، ونحن نؤكد قوله تعالى بأنه لو لم يهمّ بها لما رأى برهان ربه.

ولقد ذهب بعضهم إلى تفسير همٍّ يوسف بأنه حلَّ تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها. وفسّر بعضهم برهان ربه بأنه سمع صوتاً يقول: إياك وإياها. فلم يكترث له، فسمعه ثانية فلم يعمل به، فسمعه ثالثة يقول: أعرض عنها. فلم يأبه له. حتى تمثّل أمامه يعقوب عاضّاً على أُنْمُلَته. وقيل صيح به: يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنى قعد لا ريش له. وقيل نبتت من فرج المرأة كفٌّ ليس لها عَضُد ولا مِعصم مكتوب فيها قوله تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ (الانفطار ١٠-١١). فلم ينصرف عنها. ثم رأى مكتوباً فيها قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء ٣٢)، فلم ينته. ثم رأى مكتوباً فيها قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ

فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ. . .﴾ (البقرة ٢٨١)، فلم ينجح فيه. فقال الله لجبريل عليه السلام: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحط جبريل وهو يقول: يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟ وقيل رأى تمثال العزيز. وقيل قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت: استحيي منه أن يرانا. فقال يوسف: استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا أستحيي من السميع البصير العليم بذات الصدور؟ (انظر تفسير الكشاف للزمخشري ج٢ ص ٣١٢).

وهذا عندنا كله هُراء صاغته مخيّلة مريضة لم تفهم معنى قوله تعالى واصفاً يوسف ﴿. . . إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف ٢٤). وهو عندنا هذر عامي جاهل لا يعرف أن الملابس الداخلية كالسراويل لم تكن معروفة عند أهل مصر ولا عند غيرهم في عصر يوسف. وأن الطيور تعرف السفاد بغريزتها لكنها لا تعرف الزنا بعقلها، وليس في الدنيا أحد من علماء الطيور يزعم أن ثمة طائراً يزني، فإن هو زنى سقط ريشه.

ونكتفي بهذا القدر في الإشارة إلى ما تطفح به التفاسير التراثية وكتب قصص الأنبياء من هُراء يُنكره المحقق العالم ويستنكره المتأمل العاقل لنعود إلى ما كنا فيه.

كان على يوسف في محنته الثانية حين راودته التي هو في بيتها عن نفسه واستعصم بالله واستعاذه وتمسّك بما تُمليه عليه كرامته ووفاؤه وشهامته أن يدفع ثمن موقفه هذا، رغم ثبوت براءته بشهادة الشاهد من أهلها. يقول تعالى ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (يوسف ٣٥). ونفهم أن الثمن هو السجن، وهو محنة يوسف الثالثة.

٨ - ثمة أمر بعينه يدور حوله ما جرى في السجن من وقائع، وكأنه محور تتمركز حوله الأحداث. هذا الأمر هو تأويل الأحلام الذي نرى فيه دليلاً من دلائل النبوّة خصّ به سبحانه يوسف كما هو واضح في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ. . .﴾ (يوسف ٦). واشتهر به بين أقرانه

في السجن حتى أصبح عندهم معروفاً بالصِدِّيق. وقد ذكر الأحلام على أنها أحاديث لأن الحلم عبارة عن مجموعة أحداث رمزية، ولكن لا يمكن أن يكون هناك حلم تشريعي، لذا فقد كان تأويل الأحلام من نبوّة يوسف لا من رسالته.

إننا حين نرى في تأويل الأحلام دليلاً من دلائل النبوّة، فنحن ننطلق من أن التأويل غير التفسير، ومن أن التأويل رؤية غيبية لمستقبل ما ستكون عليه الأحداث فيما بعد على أرض الواقع، أي كما أسلفنا سابقاً هو عندما يتحوّل النبأ إلى خبر، ومن هنا يصحّ عندنا قول النبيّ (ص) في حديث رواه أبو يعلى في مُصنّفه عن سليمان بن عريب قال: سمعت أبا هريرة يقول لابن عباس: قال رسول اللّه (ص): رؤيا المسلم جزء من أربعين جزءاً من النبوّة. ونرى أن ذكر النبوة هنا في محله، ولو ذكر الرسالة لكان تزويراً، ومع ذلك ليس من الضروري أن تكون رؤية كل مسلم قابلة للتحقيق والتأويل.

والمتأمل في آيات التنزيل الحكيم يلاحظ أن لقب الصِدّيق - بالمعنى الذي أشرنا إليه - ليس حكراً على يوسف دون غيره، كلقب الخليل لإبراهيم والكليم لموسى والذبيح لإسماعيل والمسيح لعيسى وأحمد لمحمد (ص). فإبراهيم - مثلاً - كان صديّقاً بدلالة قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (مريم ٤١)، ومريم أيضاً كانت صدّيقة بدلالة قوله تعالى ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ...﴾ (المائدة ٧٥)، وإدريس كان بدوره صدّيقاً بدلالة قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (مريم ٥٦).

ويخلص المتأمل في هذه الآيات إلى أمرين: الأول تلازم واقتران الصدّيقية بالنبوّة وبالرؤى النبوية. والثاني الفرق بين الرؤى والأحلام. فالرؤيا قد تأتي لصاحبها في المنام أثناء النوم، أو في حالة الوفاة حين الموت، ومثالها قول إبراهيم لابنه إسماعيل ﴿... يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ...﴾ (الصافات ١٠٢). وقد تأتي لصاحبها في صحوته فتكون كشفاً وإلهاماً، ومثالها ما رآه العبد

الصالح في خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، أو الإلهام لإسحق نيوتن عندما رأى التفاحة وهي تسقط من على الشجرة، وهو ما ستتحدث عنه بالتفصيل في مجلّد قادم ونحن نتلمس العِبَر والعِظات في قصة موسى (ع).

أما ما نراه اليوم ونسمعه على العديد من شاشات الفضائيات على يد ثُلّة من أصحاب العمائم يزعمون أن اللّه سبحانه أطلعهم على غيب المستقبل وعلّمهم تأويل الأحاديث كما أطلع وعلّم أنبياءه إبراهيم وإدريس ويوسف ومريم، وأما ما نقرأه من كتب أهل التنجيم وعلماء الأبراج يزعمون أنهم يكشفون ما جرى ويجري وسيجري من أحداث وأن الإنسان في سلوكه أسير حركة شمس وقمر وكواكب لا يستطيع منها فِكاكاً، فليس عند العقلاء بشيء، ورغم أنه - عندنا - أمر يستحق الوقوف دراسة وتأملاً لكننا أميل إلى ترك ذلك - هنا على الأقل - لنعود إلى ما كنا فيه.

ج - على صعيد النبوّة والسلطة

قلنا في أكثر من موضع أن الرسالة تشريعات تأمر وتنهى وترسم للمؤمن باللّه واحداً أحداً طريقاً في السلوك وسبيلاً يضمن له الفلاح في الدنيا والفوز في الآخرة. وإن النبوّة علوم يصطفي سبحانه من عباده الصالحين نفراً هم الأنبياء يعلّمها لهم ويوحي بها إليهم، وعلى رأسها علمان: علم التوحيد بأن اللّه واحد في الكمّ وأحد في الكيف، وعلم غيب الماضي والمستقبل. أما غيب الماضي فهو ما أشار إليه قوله تعالى ﴿... وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (يس ١٢)، وقوله تعالى ﴿... إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية ٢٩)، أي أنه لكل حدث وقع في الماضي القريب أو البعيد وانطبع في صفحات الإمام المبين ولم يكن الإنسان المصطفى شهيداً عليه وحاضراً فيه، مثال ذلك قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران ٤٤). وأما غيب المستقبل فليس المقصود غيب ما سيأتي وما سيكون مطلقاً بكل تفاصيل وقائعه وأحداثه إلى أن

تقوم الساعة - كما يزعم البعض - بل المقصود بعض هذه الوقائع والأحداث التي ارتضى سبحانه أن يظهر عليه كلاً من أنبيائه ورسله إثباتاً لنبوّته ودليلاً على صدق رسالته، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ (الجن ٢٦-٢٧). والمتأمل في قصص الأنبياء كما رواها التنزيل الحكيم يجد كثيراً من أمثلة الغيب المستقبلي الذي أظهره تعالى لأنبيائه ورسله. منها قوله تعالى لنبيّه العربي (ص): ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ (الروم ٢-٤). وقوله له ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ...﴾ (الفتح ٢٧)، ومنها قوله لنوح ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ (هود ٣٧)، وقوله ليوسف ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ (يوسف ١٥).

تبدأ قصة يوسف في التنزيل الحكيم بقوله تعالى ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ (يوسف ٤)، وتبدأ معها قصة نبوّة يوسف التي تشكل الآية أولى مراحلها:

أ - الرؤيا وهو طفل لايدري شيئاً بعدُ عن تأويل الأحاديث، بدليل أنه يلجأ في فهمها إلى أبيه يعقوب الذي لم يخفِ عليه ما فيها من إرهاصات، خاف معها على ابنه أن تثير حسد إخوته وكيدهم إن هم علموا بها.

ب - الوحي وهو غلام تلفّه غيابات الجبّ، وهذا الوحي - كما نراه - إلهام يلقي به سبحانه في روع من يجتبيه من خلقه، نجده عند يوسف في الآية ١٥، تماماً كما نجده عند أم موسى في قوله تعالى ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ...﴾ (القصص ٧)، وكما نجده عند أنصار المسيح في قوله تعالى ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ (المائدة ١١١).

ج - حكمة النبوّة وعلومها وهو في سِنّ اكتمل فيها جسماً وعقلاً، وهي المرحلة التي يشير إليها قوله تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف ٢٢).

ونلاحظ أولاً أن مراحل النبوّة هذه عند يوسف ليست قاعدة مطَّردة عند جميع الرسل والأنبياء، فقد أوتي يحيى الحكم صبياً (انظر مريم ١٢) والمسيح أوتي الكتاب وجُعل نبياً (الروح) وهو ما زال في بطن أمّه (أنظر مريم ٢٩، ٣٠).

ولقد سبق أن لاحظنا أن رابطة النسب ليست قاعدة مطَّردة عند جميع الأنبياء والرسل، لا بل هي ليست قاعدة على الإطلاق، فقد يكون ابن النبي نبياً كما عند سليمان وداود وقد لا يكون، وقد يكون أخو النبي نبياً كما عند هارون وموسى وقد لا يكون، وقد يكون سِبط النبي أو حفيده نبياً كما في حالة إبراهيم ويعقوب وقد لا يكون.

ونلاحظ ثانياً أن عبارة (يا قوم اعبدوا اللّه ما لكم من إله غيره) التي جرت على لسان عدد من الأنبياء والرسل قبل يوسف، لم يرد لها ذكر عند هذا النبي الكريم، وهذا - في رأينا - من طبائع الأمور لأن يوسف أوتي النبوّة غريباً بين قوم آخرين. لكن ذلك لم يمنعه من الدعوة إلى التوحيد في أحلك ساعات المحنة وهو في السجن ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف ٣٩-٤٠).

ونلاحظ ثالثاً أن علاقة يوسف - كنبيّ - بالسلطة القائمة ممثلة بالعزيز في مصر تختلف تماماً عما رأيناه من علاقة إبراهيم بالسلطة القائمة المتمثلة بالنمرود في بابل كما ورد في الأخبار، وعما سنراه من علاقة موسى بالسلطة القائمة المتمثلة بفرعون. فالعزيز لم يتدخل حين دعا يوسف رفاقه في السجن إلى نبذ الأرباب المتفرقين، ولم يسأله عن عقيدته حين قال له ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ

﴿ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ (يوسف ٥٥). وكذلك الحكومات التكنوقراطية تهمّها قدرات العاملين وأمانتهم ولا تعنيها عقائدهم، وهذا ما نحن بأشد الحاجة إليه وهذه هي الصفة الأساسية للدولة العلمانية. وهذا ما يقودنا إلى ما نلاحظه رابعاً وأخيراً.

فالتنزيل الحكيم يشير إلى أن تعدد الأرباب كان سائداً في المدينة، لكنه لا يشير مطلقاً من قريب ولا من بعيد إلى دين حاكمها وعقيدته (انظر يوسف ٣٩). ولا يذكر مطلقاً أن يوسف دعاه إلى التوحيد، الأمر الذي أوهم أصحاب التواريخ وكتب الأخبار بأنه كان مسلماً. يقول الطبري في تاريخه ج١ ص ٣٣٤: «فاشتراه الملك والملك مسلم».

والتنزيل الحكيم لا يُعنى بأسماء الأشخاص والأماكن بقدر ما يُعنى بسلوكهم من جانب وبموقعهم الاجتماعي من جانب آخر. وحين أطلق على حاكم مصر في قصة يوسف اسم العزيز مرة والملك مرة أخرى فقد توهّم بعض أهل الأخبار والتفاسير أنه فرعون صاحب الرؤيا، وذهب البعض الآخر غارفاً من أخبار أهل التوراة إلى أنه خصيّ من خصيان فرعون جعله رئيساً للشرطة اسمه فوطيفار (أنظر الآية الأولى من الإصحاح ٣٩ من سفر التكوين) وأن الرؤيا عن البقرات السمان والعِجاف وعن السنابل السِّمان والعِجاف هي رؤيا فرعون ولاعلاقة لخصيّه فوطيفار بها (أنظر الآية الأولى من الإصحاح ٤١ من سفر التكوين).

والمتأمل العاقل في الفقرة الأولى لا يحتاج إلى جهد كبير ليجزم بأن حاكم مصر وملكها - سواء أكان فرعوناً أم عزيزاً - لا يمكن أن يكون مسلماً، والمتأمل في الفقرة الثانية لا يجد عناءً كبيراً ليفهم أن عزيز مصر لا يمكن أن يكون خصيّاً لأن الخصيان لا يتزوجون، ولأن خصيان الفراعنة مجبوبون ومخصيّون في آن معاً.

نحن لا نحاول فقط أن نبرهن على خطأ العديد من أخبار التاريخ في الإسرائيليات التوراتية، وبخاصة ما يتعلق منها بقصص الأنبياء والرسل، وبالتالي على ضلال كل من اعتمدها وأخذ بها من أهل الأخبار وأصحاب التفاسير

التراثية، بل نحاول أن نشير إلى حالة معرفية بائسة عاشتها الأمة الإسلامية على مدى اثني عشر قرناً ماضية وما زالت تعيشها إلى وقتنا هذا، تتلخص على صعيد التاريخ في أن الأمة اليوم أمام روايتين: الأولى دينية تراثية نقلية ظنّية[1]، والثانية علمانية لا تعنيها العقائد، علمية لا تقيم وزناً للمظنونات ولا تقبل من المرويات إلا ما ثبتت صحته بأدلّة قطعية من رُقم وآثار ومنقوشات ومخطوطات.

لم يكن عجيباً أن تتباعد الروايتان على مر القرون، فالانحراف في التاريخ - كما في الهندسة والفقه والسياسة - يبدأ بنقطة ثم يتسع كلما امتدت الخطوط. مثال ذلك ما يراه المتأمل بكل وضوح في أخبار معاوية بن أبي سفيان عند أهل التواريخ والتراجم، الذي رسم أول نقطتين على درب الانحراف السياسي في تاريخ الأمة الإسلامية. الأولى حين أخذ البيعة لابنه يزيد، تحوّل الحكم بعدها إلى مُلك عضوض. والثانية حين أطلق على الخزينة العامة اسم «بيت مال اللّه» بدلاً من «بيت مال المسلمين» تحوّلت بعدها إلى ملك شخصي للسلطان الحاكم إن شاء أعطى وإن شاء منع.

ولم يكن عجيباً أن يتمترس كل من الفريقين خلف خنادقه في حروب سجالية لا تكاد تهدأ حيناً حتى تثور أحياناً، يتبادلون سهام الاتهامات والشتائم، فأصحاب الرواية الثانية عند خصومهم كفّار ضالّون لتشكيكهم في تراث مقدّس معصوم هو

---

(١) قولنا «دينية» يعني أنها المعتمدة لدى رجال المؤسسات الدينية الرسمية في الملل الثلاث اليهودية والنصرانية والإسلامية، ولدى كهنة العقائد الأخرى، لا يقبلون من أحد الخروج عنها أو التشكيك بها أو نقدها، فإن فعل أمسى مطروداً وبات محروماً وغدا موسوماً بالكفر والهرطقة. وقولنا «تراثية نقلية» يعني أنها ليست وحياً إلهياً ولا نصاً مقدساً نزل من عند اللّه، بل هو نتاج إنساني صرف توارثه القصاصون وأهل الأخبار قبل الإسلام تلقفه عنهم بعد الإسلام بالنقل رواة الحكايا من أمثال تميم الداري وأصحابه فأخذها أصحاب التفاسير دون تفكر أو تدبر، ثم جاء علماؤنا الأفاضل اليوم ليسبغوا عليها صفة القدسية وليعتبروها مسلّمات لا تحتاج إلى تحقيق ولا إلى برهان تندرج تحت عنوان «ما يجب علمه ومعرفته من الدين بالضرورة». أما قولنا «ظنّية» فيعني أنها ليست يقينية، وأن فيها ما يمنع أن تكون قطعية، كشأن جميع النصوص التراثية عند علماء الأصول.

جزء لا يتجزأ من الشريعة الغرّاء، وأصحاب الرواية الأولى عند خصومهم بُلهاء مقلّدون مصابون بداء اسمه الآبائية تركوا الأدلّة القطعية وأخذوا بالأدلّة الظنّية.

العجيب أنهم جميعاً تركوا النظر في كتاب اللّه تعالى، رغم إيمانهم باللّه وملائكته وكتبه ورسله، فإن هم فعلوا - وقليلاً ما يفعلون - خرُّوا على آياته صُمّاً وعُمياناً حسب تعبيره تعالى في آية الفرقان ٧٣. وأنهم جميعاً انطلقوا من أن التفاسير التراثية بما فيها من إسرائيليات وبما ولد منها ونتج عنها من أحكام فقهية هي التنزيل الحكيم ذاته بمحكمه وأحكامه ومتشابهه وقوانينه، فأخذ بها أصحاب الرواية الأولى وأنكرها واستنكرها أصحاب الرواية الثانية. والسؤال الآن: أما آن الأوان لرواية ثالثة يقبلها العقل والعلم دون أن تخرج عن النص القرآني؟ أما آن الأوان لنفهم المقصد الإلهي في قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ . . .﴾ (آل عمران ٦٢)، وأن حقائق الاكتشافات العلمية - ما كان منها وما سيكون - لا يجوز عقلاً أن تتعارض مع القصص القرآني الحق، وأنه إذا تعارض نص تراثي مع نص قرآني يدعمه العقل السليم ويؤيده العلم الصحيح أخذنا بالثاني وضربنا بالأول عرض الحائط كائناً من كان صاحبه؟

لقد حاولنا أن نجيب عملياً عن هذه الأسئلة ونحن ننظر في قصص الأنبياء كما وردت في التنزيل الحكيم، وفي قصة يوسف على وجه التحديد، لنجد أن يوسف وإخوته كانوا رعاة من البدو وليسوا من أبناء المدن، وأنه حكم مصر إلى جانب عزيزها وفرعونها فكان قيّماً على خزائنها وغلاّتها، وهذا ما تؤيده الدراسات والبينات التاريخية الحديثة في روايتها عن الهكسوس الرعاة الذين وفدوا إلى مصر وحكموها ردحاً من الزمن.

نحن لا نزعم أننا أجبنا عن كل الأسئلة وحلّلنا جميع الإشكالات وسوّينا وجوه الخلاف بين الروايات، فالطريق ما زالت طويلة والمسالك ما زالت وعِرة، وإذا صدق جهدنا ورأينا شيئاً بفضل من اللّه فقد غابت عنا أشياء. فنحن لا ندري - مثلاً - لماذا لا نجد ليوسف وموسى ذكراً في النقوش والآثار الفرعونية على كثرتها؟ هل لأن لهما اسمين فرعونيين عُرفا بهما؟ أم لأن آثارهما في مصر لم

تُكتشف بعد؟ خصوصاً ونحن نرى ونسمع في كل عام اكتشاف آثار جديدة ونقوش لم يكن أحد يدري عنها شيئاً. ومع ذلك فنحن ندري بكل تأكيد أن الاثنين شخصيتان حقيقيتان سبق وجودهما في التاريخ وأن عدم ورود اسم يوسف أو موسى فيما بين أيدينا من نقوش لا يبرّر إنكار وجودهما كما فعل البعض. وهنا يبرز سؤال يحتاج إلى تمحيص ودراسة عميقة وهو: أين وُجِد يوسف وهو على خزائن الأرض؟؟؟

النبي يوسف في التوراة

سفر التكوين

الإصحَاحُ الثَّلاَثُونَ

٢٢وَذَكَرَ اللّهُ رَاحِيلَ، وَسَمِعَ لَهَا اللّهُ وَفَتَحَ رَحِمَهَا، ٢٣فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتِ ابْنًا فَقَالَتْ: «قَدْ نَزَعَ اللّهُ عَارِي». ٢٤وَدَعَتِ اسْمَهُ «يُوسُفَ» قَائِلَةً: «يَزِيدُنِي الرَّبُّ ابْنًا آخَرَ».

٢٥وَحَدَثَ لَمَّا وَلَدَتْ رَاحِيلُ يُوسُفَ أَنَّ يَعْقُوبَ قَالَ لِلاَبَانَ: «اصْرِفْنِي لأَذْهَبَ إِلَى مَكَانِي وَإِلَى أَرْضِي. ٢٦أَعْطِنِي نِسَائِي وَأَوْلاَدِي الَّذِينَ خَدَمْتُكَ بِهِمْ فَأَذْهَبَ، لأَنَّكَ أَنْتَ تَعْلَمُ خِدْمَتِي الَّتِي خَدَمْتُكَ». ٢٧فَقَالَ لَهُ لاَبَانُ: «لَيْتَنِي أَجِدُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ. قَدْ تَفَاءَلْتُ فَبَارَكَنِي الرَّبُّ بِسَبَبِكَ». ٢٨وَقَالَ: «عَيِّنْ لِي أُجْرَتَكَ فَأُعْطِيَكَ».

الإصحَاحُ الثَّالِثُ وَالثَّلاَثُونَ

١وَرَفَعَ يَعْقُوبُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا عِيسُو مُقْبِلٌ وَمَعَهُ أَرْبَعُ مِئَةِ رَجُل، فَقَسَمَ الأَوْلاَدَ عَلَى لَيْئَةَ وَعَلَى رَاحِيلَ وَعَلَى الْجَارِيَتَيْنِ. ٢وَوَضَعَ الْجَارِيَتَيْنِ وَأَوْلاَدَهُمَا أَوَّلاً، وَلَيْئَةَ وَأَوْلاَدَهَا وَرَاءَهُمْ، وَرَاحِيلَ وَيُوسُفَ أَخِيرًا. ٣وَأَمَّا هُوَ فَاجْتَازَ قُدَّامَهُمْ وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ سَبْعَ مَرَّاتٍ حَتَّى اقْتَرَبَ إِلَى أَخِيهِ. ٤فَرَكَضَ عِيسُو لِلِقَائِهِ وَعَانَقَهُ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ، وَبَكَيَا.

٥ثُمَّ رَفَعَ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ النِّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ وَقَالَ: «مَا هؤُلاَءِ مِنْكَ؟» فَقَالَ: «الأَوْلاَدُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ بِهِمْ عَلَى عَبْدِكَ». ٦فَاقْتَرَبَتِ الْجَارِيَتَانِ هُمَا وَأَوْلاَدُهُمَا وَسَجَدَتَا. ٧ثُمَّ اقْتَرَبَتْ لَيْئَةُ أَيْضًا وَأَوْلاَدُهَا وَسَجَدُوا. وَبَعْدَ ذلِكَ اقْتَرَبَ يُوسُفُ وَرَاحِيلُ وَسَجَدَا. ٨فَقَالَ: «مَاذَا مِنْكَ كُلُّ هذَا الْجَيْشِ الَّذِي صَادَفْتُهُ؟» فَقَالَ: «لأَجِدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْ سَيِّدِي». ٩فَقَالَ عِيسُو: «لِي كَثِيرٌ، يَا أَخِي. لِيَكُنْ لَكَ الَّذِي لَكَ». ١٠فَقَالَ يَعْقُوبُ: «لاَ. إِنْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ تَأْخُذْ هَدِيَّتِي مِنْ يَدِي، لأَنِّي رَأَيْتُ وَجْهَكَ كَمَا يُرَى وَجْهُ اللّهِ، فَرَضِيتَ عَلَيَّ. ١١خُذْ بَرَكَتِي الَّتِي أُتِيَ بِهَا إِلَيْكَ، لأَنَّ اللّهَ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيَّ وَلِي كُلُّ شَيْءٍ». وَأَلَحَّ عَلَيْهِ فَأَخَذَ.

١٢ثُمَّ قَالَ: «لِنَرْحَلْ وَنَذْهَبْ، وَأَذْهَبُ أَنَا قُدَّامَكَ». ١٣فَقَالَ لَهُ: «سَيِّدِي عَالِمٌ أَنَّ الأَوْلاَدَ رَخْصَةٌ، وَالْغَنَمَ وَالْبَقَرَ الَّتِي عِنْدِي مُرْضِعَةٌ، فَإِنِ اسْتَكَدُّوهَا يَوْمًا وَاحِدًا مَاتَتْ كُلُّ الْغَنَمِ. ١٤لِيَجْتَزْ سَيِّدِي قُدَّامَ عَبْدِهِ، وَأَنَا أَسْتَاقُ عَلَى مَهَلِي فِي إِثْرِ الأَمْلاَكِ الَّتِي قُدَّامِي، وَفِي إِثْرِ الأَوْلاَدِ، حَتَّى أَجِيءَ إِلَى سَيِّدِي إِلَى سَعِيرَ». ١٥فَقَالَ عِيسُو: «أَتْرُكُ عِنْدَكَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ مَعِي». فَقَالَ: «لِمَاذَا؟ دَعْنِي أَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْ سَيِّدِي».

الإصحَاحُ السَّابعُ وَالثَّلاَثُونَ

١وَسَكَنَ يَعْقُوبُ فِي أَرْضِ غُرْبَةِ أَبِيهِ، فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. ٢هذِهِ مَوَالِيدُ يَعْقُوبَ: يُوسُفُ إِذْ كَانَ ابْنَ سَبْعَ عَشَرَةَ سَنَةً، كَانَ يَرْعَى مَعَ إِخْوَتِهِ الْغَنَمَ وَهُوَ غُلاَمٌ عِنْدَ بَنِي بِلْهَةَ وَبَنِي زِلْفَةَ امْرَأَتَيْ أَبِيهِ، وَأَتَى يُوسُفُ بِنَمِيمَتِهِم الرَّدِيئَةِ إِلَى أَبِيهِمْ. ٣وَأَمَّا إِسْرَائِيلُ فَأَحَبَّ يُوسُفَ أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ بَنِيهِ لأَنَّهُ ابْنُ شَيْخُوخَتِهِ، فَصَنَعَ لَهُ قَمِيصًا مُلَوَّنًا. ٤فَلَمَّا رَأَى إِخْوَتُهُ أَنَّ أَبَاهُمْ أَحَبَّهُ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ أَبْغَضُوهُ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُكَلِّمُوهُ بِسَلاَمٍ.

٥وَحَلُمَ يُوسُفُ حُلْمًا وَأَخْبَرَ إِخْوَتَهُ، فَازْدَادُوا أَيْضًا بُغْضًا لَهُ. ٦فَقَالَ لَهُمْ: «اسْمَعُوا هذَا الْحُلْمَ الَّذِي حَلُمْتُ: ٧فَهَا نَحْنُ حَازِمُونَ حُزَمًا فِي الْحَقْلِ، وَإِذَا حُزْمَتِي قَامَتْ وَانْتَصَبَتْ، فَاحْتَاطَتْ حُزَمُكُمْ وَسَجَدَتْ لِحُزْمَتِي». ٨فَقَالَ لَهُ

إِخْوَتُهُ: «أَلَعَلَّكَ تَمْلِكُ عَلَيْنَا مُلْكًا أَمْ تَتَسَلَّطُ عَلَيْنَا تَسَلُّطًا؟» وَازْدَادُوا أَيْضًا بُغْضًا لَهُ مِنْ أَجْلِ أَحْلاَمِهِ وَمِنْ أَجْلِ كَلاَمِهِ. ٩ثُمَّ حَلُمَ أَيْضًا حُلْمًا آخَرَ وَقَصَّهُ عَلَى إِخْوَتِهِ، فَقَالَ: «إِنِّي قَدْ حَلُمْتُ حُلْمًا أَيْضًا، وَإِذَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا سَاجِدَةٌ لِي». ١٠وَقَصَّهُ عَلَى أَبِيهِ وَعَلَى إِخْوَتِهِ، فَانْتَهَرَهُ أَبُوهُ وَقَالَ لَهُ: «مَا هذَا الْحُلْمُ الَّذِي حَلُمْتَ؟ هَلْ نَأْتِي أَنَا وَأُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ لِنَسْجُدَ لَكَ إِلَى الأَرْضِ؟» ١١فَحَسَدَهُ إِخْوَتُهُ، وَأَمَّا أَبُوهُ فَحَفِظَ الأَمْرَ.

١٢وَمَضَى إِخْوَتُهُ لِيَرْعَوْا غَنَمَ أَبِيهِمْ عِنْدَ شَكِيمَ. ١٣فَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: «أَلَيْسَ إِخْوَتُكَ يَرْعَوْنَ عِنْدَ شَكِيمَ؟ تَعَالَ فَأُرْسِلَكَ إِلَيْهِمْ». فَقَالَ لَهُ: «هأَنَذَا». ١٤فَقَالَ لَهُ: «اذْهَبِ انْظُرْ سَلاَمَةَ إِخْوَتِكَ وَسَلاَمَةَ الْغَنَمِ وَرُدَّ لِي خَبَرًا». فَأَرْسَلَهُ مِنْ وَطَاءِ حَبْرُونَ فَأَتَى إِلَى شَكِيمَ. ١٥فَوَجَدَهُ رَجُلٌ وَإِذَا هُوَ ضَالٌّ فِي الْحَقْلِ. فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ قَائِلاً: «مَاذَا تَطْلُبُ؟» ١٦فَقَالَ: «أَنَا طَالِبٌ إِخْوَتِي. أَخْبِرْنِي «أَيْنَ يَرْعَوْنَ؟». ١٧فَقَالَ الرَّجُلُ: «قَدِ ارْتَحَلُوا مِنْ هُنَا، لأَنِّي سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: لِنَذْهَبْ إِلَى دُوثَانَ». فَذَهَبَ يُوسُفُ وَرَاءَ إِخْوَتِهِ فَوَجَدَهُمْ فِي دُوثَانَ.

١٨فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ مِنْ بَعِيدٍ، قَبْلَمَا اقْتَرَبَ إِلَيْهِم، احْتَالُوا لَهُ لِيُمِيتُوهُ. ١٩فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «هُوَذَا هذَا صَاحِبُ الأَحْلاَمِ قَادِمٌ. ٢٠فَالآنَ هَلُمَّ نَقْتُلْهُ وَنَطْرَحْهُ فِي إِحْدَى الآبَارِ وَنَقُولُ: وَحْشٌ رَدِيءٌ أَكَلَهُ. فَنَرَى مَاذَا تَكُونُ أَحْلاَمُهُ». ٢١فَسَمِعَ رَأُوبَيْنُ وَأَنْقَذَهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَقَالَ: «لاَ نَقْتُلُهُ». ٢٢وَقَالَ لَهُمْ رَأُوبَيْنُ: «لاَ تَسْفِكُوا دَمًا. اِطْرَحُوهُ فِي هذِهِ الْبِئْرِ الَّتِي فِي الْبَرِّيَّةِ وَلاَ تَمُدُّوا إِلَيْهِ يَدًا». لِكَيْ يُنْقِذَهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ لِيَرُدَّهُ إِلَى أَبِيهِ. ٢٣فَكَانَ لَمَّا جَاءَ يُوسُفُ إِلَى إِخْوَتِهِ أَنَّهُمْ خَلَعُوا عَنْ يُوسُفَ قَمِيصَهُ، الْقَمِيصَ الْمُلَوَّنَ الَّذِي عَلَيْهِ، ٢٤وَأَخَذُوهُ وَطَرَحُوهُ فِي الْبِئْرِ. وَأَمَّا الْبِئْرُ فَكَانَتْ فَارِغَةً لَيْسَ فِيهَا مَاءٌ.

٢٥ثُمَّ جَلَسُوا لِيَأْكُلُوا طَعَامًا. فَرَفَعُوا عُيُونَهُمْ وَنَظَرُوا وَإِذَا قَافِلَةُ إِسْمَاعِيلِيِّينَ مُقْبِلَةٌ مِنْ جِلْعَادَ، وَجِمَالُهُمْ حَامِلَةٌ كَثِيرَاءَ وَبَلَسَانًا وَلاَذَنًا، ذَاهِبِينَ لِيَنْزِلُوا بِهَا إِلَى مِصْرَ. ٢٦فَقَالَ يَهُوذَا لإِخْوَتِهِ: «مَا الْفَائِدَةُ أَنْ نَقْتُلَ أَخَانَا وَنُخْفِيَ دَمَهُ؟ ٢٧تَعَالَوْا

فَنَبِيعَهُ لِلإِسْمَاعِيلِيِّينَ، وَلاَ تَكُنْ أَيْدِينَا عَلَيْهِ لأَنَّهُ أَخُونَا وَلَحْمُنَا». فَسَمِعَ لَهُ إِخْوَتُهُ. ٢٨وَاجْتَازَ رِجَالٌ مِدْيَانِيُّونَ تُجَّارٌ، فَسَحَبُوا يُوسُفَ وَأَصْعَدُوهُ مِنَ الْبِئْرِ، وَبَاعُوا يُوسُفَ لِلإِسْمَاعِيلِيِّينَ بِعِشْرِينَ مِنَ الْفِضَّةِ. فَأَتَوْا بِيُوسُفَ إِلَى مِصْرَ. ٢٩وَرَجَعَ رَأُوبَيْنُ إِلَى الْبِئْرِ، وَإِذَا يُوسُفُ لَيْسَ فِي الْبِئْرِ، فَمَزَّقَ ثِيَابَهُ. ٣٠ثُمَّ رَجَعَ إِلَى إِخْوَتِهِ وَقَالَ: «الْوَلَدُ لَيْسَ مَوْجُودًا، وَأَنَا إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ؟».

٣١فَأَخَذُوا قَمِيصَ يُوسُفَ وَذَبَحُوا تَيْسًا مِنَ الْمِعْزَى وَغَمَسُوا الْقَمِيصَ فِي الدَّمِ. ٣٢وَأَرْسَلُوا الْقَمِيصَ الْمُلَوَّنَ وَأَحْضَرُوهُ إِلَى أَبِيهِمْ وَقَالُوا: «وَجَدْنَا هذَا. حَقِّقْ أَقَمِيصُ ابْنِكَ هُوَ أَمْ لاَ؟» ٣٣فَتَحَقَّقَهُ وَقَالَ: «قَمِيصُ ابْنِي! وَحْشٌ رَدِيءٌ أَكَلَهُ، افْتُرِسَ يُوسُفُ افْتِرَاسًا». ٣٤فَمَزَّقَ يَعْقُوبُ ثِيَابَهُ، وَوَضَعَ مِسْحًا عَلَى حَقَوَيْهِ، وَنَاحَ عَلَى ابْنِهِ أَيَّامًا كَثِيرَةً. ٣٥فَقَامَ جَمِيعُ بَنِيهِ وَجَمِيعُ بَنَاتِهِ لِيُعَزُّوهُ، فَأَبَى أَنْ يَتَعَزَّى وَقَالَ: «إِنِّي أَنْزِلُ إِلَى ابْنِي نَائِحًا إِلَى الْهَاوِيَةِ». وَبَكَى عَلَيْهِ أَبُوهُ.

٣٦وَأَمَّا الْمِدْيَانِيُّونَ فَبَاعُوهُ فِي مِصْرَ لِفُوطِيفَارَ خَصِيِّ فِرْعَوْنَ، رَئِيسِ الشُّرَطِ.

الإصحَاحُ التَّاسِعُ وَالثَّلاَثُونَ

١وَأَمَّا يُوسُفُ فَأُنْزِلَ إِلَى مِصْرَ، وَاشْتَرَاهُ فُوطِيفَارُ خَصِيُّ فِرْعَوْنَ رَئِيسُ الشُّرَطِ، رَجُلٌ مِصْرِيٌّ، مِنْ يَدِ الإِسْمَاعِيلِيِّينَ الَّذِينَ أَنْزَلُوهُ إِلَى هُنَاكَ. ٢وَكَانَ الرَّبُّ مَعَ يُوسُفَ فَكَانَ رَجُلاً نَاجِحًا، وَكَانَ فِي بَيْتِ سَيِّدِهِ الْمِصْرِيِّ.

٣وَرَأَى سَيِّدُهُ أَنَّ الرَّبَّ مَعَهُ، وَأَنَّ كُلَّ مَا يَصْنَعُ كَانَ الرَّبُّ يُنْجِحُهُ بِيَدِهِ. ٤فَوَجَدَ يُوسُفُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ، وَخَدَمَهُ، فَوَكَّلَهُ عَلَى بَيْتِهِ وَدَفَعَ إِلَى يَدِهِ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ. ٥وَكَانَ مِنْ حِينِ وَكَّلَهُ عَلَى بَيْتِهِ، وَعَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ، أَنَّ الرَّبَّ بَارَكَ بَيْتَ الْمِصْرِيِّ بِسَبَبِ يُوسُفَ. وَكَانَتْ بَرَكَةُ الرَّبِّ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ فِي الْبَيْتِ وَفِي الْحَقْلِ، ٦فَتَرَكَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ. وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ يَعْرِفُ شَيْئًا إِلاَّ الْخُبْزَ الَّذِي يَأْكُلُ. وَكَانَ يُوسُفُ حَسَنَ الصُّورَةِ وَحَسَنَ الْمَنْظَرِ.

٧وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ امْرَأَةَ سَيِّدِهِ رَفَعَتْ عَيْنَيْهَا إِلَى يُوسُفَ وَقَالَتِ: «اضْطَجِعْ مَعِي». ٨فَأَبَى وَقَالَ لاِمْرَأَةِ سَيِّدِهِ: «هُوَذَا سَيِّدِي لاَ يَعْرِفُ مَعِي مَا فِي

الْبَيْتِ، وَكُلُّ مَا لَهُ قَدْ دَفَعَهُ إِلَى يَدِي. ٩لَيْسَ هُوَ فِي هذَا الْبَيْتِ أَعْظَمَ مِنِّي. وَلَمْ يُمْسِكْ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَكِ، لأَنَّكِ امْرَأَتُهُ. فَكَيْفَ أَصْنَعُ هذَا الشَّرَّ الْعَظِيمَ وَأُخْطِئُ إِلَى اللّهِ؟». ١٠وَكَانَ إِذْ كَلَّمَتْ يُوسُفَ يَوْمًا فَيَوْمًا أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ لَهَا أَنْ يَضْطَجِعَ بِجَانِبِهَا لِيَكُونَ مَعَهَا.

١١ثُمَّ حَدَثَ نَحْوَ هذَا الْوَقْتِ أَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ لِيَعْمَلَ عَمَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ إِنْسَانٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ هُنَاكَ فِي الْبَيْتِ. ١٢فَأَمْسَكَتْهُ بِثَوْبِهِ قَائِلَةً: «اضْطَجعْ مَعِي!». فَتَرَكَ ثَوْبَهُ فِي يَدِهَا وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ. ١٣وَكَانَ لَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ فِي يَدِهَا وَهَرَبَ إِلَى خَارِجٍ، ١٤أَنَّهَا نَادَتْ أَهْلَ بَيْتِهَا، وَكَلَّمَتهُمْ قَائِلَةً: «انْظُرُوا! قَدْ جَاءَ إِلَيْنَا بِرَجُل عِبْرَانِيٍّ لِيُدَاعِبَنَا! دَخَلَ إِلَيَّ لِيَضْطَجعَ مَعِي، فَصَرَخْتُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ. ١٥وَكَانَ لَمَّا سَمِعَ أَنِّي رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ».

١٦فَوَضَعَتْ ثَوْبَهُ بِجَانِبِهَا حَتَّى جَاءَ سَيِّدُهُ إِلَى بَيْتِهِ. ١٧فَكَلَّمَتْهُ بِمِثْلِ هذَا الْكَلاَمِ قَائِلَةً: «دَخَلَ إِلَيَّ الْعَبْدُ الْعِبْرَانِيُّ الَّذِي جِئْتَ بِهِ إِلَيْنَا لِيُدَاعِبَنِي. ١٨وَكَانَ لَمَّا رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ إِلَى خَارِجٍ».

١٩فَكَانَ لَمَّا سَمِعَ سَيِّدُهُ كَلاَمَ امْرَأَتِهِ الَّذِي كَلَّمَتْهُ بِهِ قَائِلَةً: «بِحَسَبِ هذَا الْكَلاَمِ صَنَعَ بِي عَبْدُكَ»، أَنَّ غَضَبَهُ حَمِيَ. ٢٠فَأَخَذَ يُوسُفَ سَيِّدُهُ وَوَضَعَهُ فِي بَيْتِ السِّجْنِ، الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ أَسْرَى الْمَلِكِ مَحْبُوسِينَ فِيهِ. وَكَانَ هُنَاكَ فِي بَيْتِ السِّجْنِ.

٢١وَلكِنَّ الرَّبَّ كَانَ مَعَ يُوسُفَ، وَبَسَطَ إِلَيْهِ لُطْفًا، وَجَعَلَ نِعْمَةً لَهُ فِي عَيْنَيْ رَئِيسِ بَيْتِ السِّجْنِ. ٢٢فَدَفَعَ رَئِيسُ بَيْتِ السِّجْنِ إِلَى يَدِ يُوسُفَ جَمِيعَ الأَسْرَى الَّذِينَ فِي بَيْتِ السِّجْنِ. وَكُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ هُنَاكَ كَانَ هُوَ الْعَامِلَ. ٢٣وَلَمْ يَكُنْ رَئِيسُ بَيْتِ السِّجْنِ يَنْظُرُ شَيْئًا الْبَتَّةَ مِمَّا فِي يَدِهِ، لأَنَّ الرَّبَّ كَانَ مَعَهُ، وَمَهْمَا صَنَعَ كَانَ الرَّبُّ يُنْجِحُهُ.

الإصحَاحُ ألأَرْبَعُونَ

١وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ سَاقِيَ مَلِكِ مِصْرَ وَالْخَبَّازَ أَذْنَبَا إِلَى سَيِّدِهِمَا مَلِكِ مِصْرَ. ٢فَسَخَطَ فِرْعَوْنُ عَلَى خَصِيَّيْهِ: رَئِيسِ السُّقَاةِ وَرَئِيسِ الْخَبَّازِينَ، ٣فَوَضَعَهُمَا فِي حَبْسِ بَيْتِ رَئِيسِ الشُّرَطِ، فِي بَيْتِ السِّجْنِ، الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يُوسُفُ مَحْبُوسًا فِيهِ. ٤فَأَقَامَ رَئِيسُ الشُّرَطِ يُوسُفَ عِنْدَهُمَا فَخَدَمَهُمَا. وَكَانَا أَيَّامًا فِي الْحَبْسِ.

٥وَحَلُمَا كِلاَهُمَا حُلْمًا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، كُلُّ وَاحِدٍ حُلْمَهُ، كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ تَعْبِيرِ حُلْمِهِ، سَاقِي مَلِكِ مِصْرَ وَخَبَّازُهُ، الْمَحْبُوسَانِ فِي بَيْتِ السِّجْنِ. ٦فَدَخَلَ يُوسُفُ إِلَيْهِمَا فِي الصَّبَاحِ وَنَظَرَهُمَا، وَإِذَا هُمَا مُغْتَمَّانِ. ٧فَسَأَلَ خَصِيَّيْ فِرْعَوْنَ اللَّذَيْنِ مَعَهُ فِي حَبْسِ بَيْتِ سَيِّدِهِ قَائِلاً: «لِمَاذَا وَجْهَاكُمَا مُكْمَدَّانِ الْيَوْمَ؟» ٨فَقَالاَ لَهُ: «حَلُمْنَا حُلْمًا وَلَيْسَ مَنْ يُعَبِّرُهُ». فَقَالَ لَهُمَا يُوسُفُ: «أَلَيْسَتْ للّهِ التَّعَابِيرُ؟ قُصَّا عَلَيَّ».

٩فَقَصَّ رَئِيسُ السُّقَاةِ حُلْمَهُ عَلَى يُوسُفَ وَقَالَ لَهُ: «كُنْتُ فِي حُلْمِي وَإِذَا كَرْمَةٌ أَمَامِي. ١٠وَفِي الْكَرْمَةِ ثَلاَثَةُ قُضْبَانٍ، وَهِيَ إِذْ أَفْرَخَتْ طَلَعَ زَهْرُهَا، وَأَنْضَجَتْ عَنَاقِيدُهَا عِنَبًا. ١١وَكَانَتْ كَأْسُ فِرْعَوْنَ فِي يَدِي، فَأَخَذْتُ الْعِنَبَ وَعَصَرْتُهُ فِي كَأْسِ فِرْعَوْنَ، وَأَعْطَيْتُ الْكَأْسَ فِي يَدِ فِرْعَوْنَ». ١٢فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: «هذَا تَعْبِيرُهُ: الثَّلاَثَةُ الْقُضْبَانِ هِيَ ثَلاَثَةُ أَيَّام. ١٣فِي ثَلاَثَةِ أَيَّام أَيْضًا يَرْفَعُ فِرْعَوْنُ رَأْسَكَ وَيَرُدُّكَ إِلَى مَقَامِكَ، فَتُعْطِي كَأْسَ فِرْعَوْنَ فِي يَدِهِ كَالْعَادَةِ الأُولَى حِينَ كُنْتَ سَاقِيَهُ. ١٤وَإِنَّمَا إِذَا ذَكَرْتَنِي عِنْدَكَ حِينَمَا يَصِيرُ لَكَ خَيْرٌ، تَصْنَعُ إِلَيَّ إِحْسَانًا وَتَذْكُرُنِي لِفِرْعَوْنَ، وَتُخْرِجُنِي مِنْ هذَا الْبَيْتِ. ١٥لأَنِّي قَدْ سُرِقْتُ مِنْ أَرْضِ الْعِبْرَانِيِّينَ، وَهُنَا أَيْضًا لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا حَتَّى وَضَعُونِي فِي السِّجْنِ».

١٦فَلَمَّا رَأَى رَئِيسُ الْخَبَّازِينَ أَنَّهُ عَبَّرَ جَيِّدًا، قَالَ لِيُوسُفَ: «كُنْتُ أَنَا أَيْضًا فِي حُلْمِي وَإِذَا ثَلاَثَةُ سِلاَلِ حُوَّارَى عَلَى رَأْسِي. ١٧وَفِي السَّلِّ الأَعْلَى مِنْ جَمِيعِ طَعَامِ فِرْعَوْنَ مِنْ صَنْعَةِ الْخَبَّازِ. وَالطُّيُورُ تَأْكُلُهُ مِنَ السَّلِّ عَنْ رَأْسِي». ١٨فَأَجَابَ يُوسُفُ وَقَالَ: «هذَا تَعْبِيرُهُ: الثَّلاَثَةُ السِّلاَلِ هِيَ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ. ١٩فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَيْضًا

يَرْفَعُ فِرْعَوْنُ رَأْسَكَ عَنْكَ، وَيُعَلِّقُكَ عَلَى خَشَبَةٍ، وَتَأْكُلُ الطُّيُورُ لَحْمَكَ عَنْكَ».

٢٠فَحَدَثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، يَوْمِ مِيلاَدِ فِرْعَوْنَ، أَنَّهُ صَنَعَ وَلِيمَةً لِجَمِيعِ عَبِيدِهِ، وَرَفَعَ رَأْسَ رَئِيسِ السُّقَاةِ وَرَأْسَ رَئِيسِ الْخَبَّازِينَ بَيْنَ عَبِيدِهِ. ٢١وَرَدَّ رَئِيسَ السُّقَاةِ إِلَى سَقْيِهِ، فَأَعْطَى الْكَأْسَ فِي يَدِ فِرْعَوْنَ. ٢٢وَأَمَّا رَئِيسُ الْخَبَّازِينَ فَعَلَّقَهُ، كَمَا عَبَّرَ لَهُمَا يُوسُفُ. ٢٣وَلكِنْ لَمْ يَذْكُرْ رَئِيسُ السُّقَاةِ يُوسُفَ بَلْ نَسِيَهُ.

الإصحَاحُ الْحَادِي والأَرْبَعُونَ

١وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ سَنَتَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ أَنَّ فِرْعَوْنَ رَأَى حُلْمًا: وَإِذَا هُوَ وَاقِفٌ عِنْدَ النَّهْرِ، ٢وَهُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ طَالِعَةٍ مِنَ النَّهْرِ حَسَنَةِ الْمَنْظَرِ وَسَمِينَةِ اللَّحْمِ، فَارْتَعَتْ فِي رَوْضَةٍ. ٣ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ أُخْرَى طَالِعَةٍ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهْرِ قَبِيحَةِ الْمَنْظَرِ وَرَقِيقَةِ اللَّحْمِ، فَوَقَفَتْ بِجَانِبِ الْبَقَرَاتِ الأُولَى عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، ٤فَأَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ الْقَبِيحَةُ الْمَنْظَرِ وَالرَّقِيقَةُ اللَّحْمِ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الْحَسَنَةَ الْمَنْظَرِ وَالسَّمِينَةَ. وَاسْتَيْقَظَ فِرْعَوْنُ.

٥ثُمَّ نَامَ فَحَلُمَ ثَانِيَةً: وَهُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ طَالِعَةٍ فِي سَاق وَاحِدٍ سَمِينَةٍ وَحَسَنَةٍ. ٦ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ رَقِيقَةٍ وَمَلْفُوحَةٍ بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ نَابِتَةٍ وَرَاءَهَا. ٧فَابْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الرَّقِيقَةُ السَّنَابِلَ السَّبْعَ السَّمِينَةَ الْمُمْتَلِئَةَ. وَاسْتَيْقَظَ فِرْعَوْنُ، وَإِذَا هُوَ حُلْمٌ. ٨وَكَانَ فِي الصَّبَاحِ أَنَّ نَفْسَهُ انْزَعَجَتْ، فَأَرْسَلَ وَدَعَا جَمِيعَ سَحَرَةِ مِصْرَ وَجَمِيعَ حُكَمَائِهَا. وَقَصَّ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ حُلْمَهُ، فَلَمْ يَكُنْ مَنْ يُعَبِّرُهُ لِفِرْعَوْنَ.

٩ثُمَّ كَلَّمَ رَئِيسُ السُّقَاةِ فِرْعَوْنَ قَائِلاً: «أَنَا أَتَذَكَّرُ الْيَوْمَ خَطَايَايَ. ١٠فِرْعَوْنُ سَخِطَ عَلَى عَبْدَيْهِ، فَجَعَلَنِي فِي حَبْسِ بَيْتِ رَئِيسِ الشُّرَطِ أَنَا وَرَئِيسَ الْخَبَّازِينَ. ١١فَحَلُمْنَا حُلْمًا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ أَنَا وَهُوَ. حَلُمْنَا كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ تَعْبِيرِ حُلْمِهِ. ١٢وَكَانَ هُنَاكَ مَعَنَا غُلاَمٌ عِبْرَانِيٌّ عَبْدٌ لِرَئِيسِ الشُّرَطِ، فَقَصَصْنَا عَلَيْهِ، فَعَبَّرَ لَنَا حُلْمَيْنَا. عَبَّرَ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ حُلْمِهِ. ١٣وَكَمَا عَبَّرَ لَنَا هكَذَا حَدَثَ. رَدَّنِي أَنَا إِلَى مَقَامِي، وَأَمَّا هُوَ فَعَلَّقَهُ».

١٤فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ وَدَعَا يُوسُفَ، فَأَسْرَعُوا بِهِ مِنَ السِّجْنِ. فَحَلَقَ وَأَبْدَلَ ثِيَابَهُ

وَدَخَلَ عَلَى فِرْعَوْنَ. ١٥فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «حَلُمْتُ حُلْمًا وَلَيْسَ مَنْ يُعَبِّرُهُ. وَأَنَا سَمِعْتُ عَنْكَ قَوْلاً، إِنَّكَ تَسْمَعُ أَحْلاَمًا لِتُعَبِّرَهَا». ١٦فَأَجَابَ يُوسُفُ فِرْعَوْنَ: «لَيْسَ لِي. اَللّهُ يُجِيبُ بِسَلاَمَةِ فِرْعَوْنَ».

١٧فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «إِنِّي كُنْتُ فِي حُلْمِي وَاقِفًا عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، ١٨وَهُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ طَالِعَةٍ مِنَ النَّهْرِ سَمِينَةِ اللَّحْمِ وَحَسَنَةَ الصُّورَةِ، فَارْتَعَتْ فِي رَوْضَةٍ. ١٩ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ أُخْرَى طَالِعَةٍ وَرَاءَهَا مَهْزُولَةً وَقَبِيحَةَ الصُّورَةِ جِدًّا وَرَقِيقَةَ اللَّحْمِ. لَمْ أَنْظُرْ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ مِثْلَهَا فِي الْقَبَاحَةِ. ٢٠فَأَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ الرَّقِيقَةُ وَالْقَبِيحَةُ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الأُولَى السَّمِينَةَ. ٢١فَدَخَلَتْ أَجْوَافَهَا، وَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّهَا دَخَلَتْ فِي أَجْوَافِهَا، فَكَانَ مَنْظَرُهَا قَبِيحًا كَمَا فِي الأَوَّلِ. وَاسْتَيْقَظْتُ. ٢٢ثُمَّ رَأَيْتُ فِي حُلْمِي وَهُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ طَالِعَةٌ فِي سَاق وَاحِدٍ مُمْتَلِئَةً وَحَسَنَةً. ٢٣ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ يَابِسَةً رَقِيقَةً مَلْفُوحَةً بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ نَابِتَةٌ وَرَاءَهَا. ٢٤فَابْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الرَّقِيقَةُ السَّنَابِلَ السَّبْعَ الْحَسَنَةَ. فَقُلْتُ لِلسَّحَرَةِ، وَلَمْ يَكُنْ مَنْ يُخْبِرُنِي».

٢٥فَقَالَ يُوسُفُ لِفِرْعَوْنَ: «حُلْمُ فِرْعَوْنَ وَاحِدٌ. قَدْ أَخْبَرَ اللّهُ فِرْعَوْنَ بِمَا هُوَ صَانِعٌ. ٢٦اَلْبَقَرَاتُ السَّبْعُ الْحَسَنَةُ هِيَ سَبْعُ سِنِينَ، وَالسَّنَابِلُ السَّبْعُ الْحَسَنَةُ هِيَ سَبْعُ سِنِينَ. هُوَ حُلْمٌ وَاحِدٌ. ٢٧وَالْبَقَرَاتُ السَّبْعُ الرَّقِيقَةُ الْقَبِيحَةُ الَّتِي طَلَعَتْ وَرَاءَهَا هِيَ سَبْعُ سِنِينَ، وَالسَّنَابِلُ السَّبْعُ الْفَارِغَةُ الْمَلْفُوحَةُ بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ تَكُونُ سَبْعَ سِنِينَ جُوعًا. ٢٨هُوَ الأَمْرُ الَّذِي كَلَّمْتُ بِهِ فِرْعَوْنَ. قَدْ أَظْهَرَ اللّهُ لِفِرْعَوْنَ مَا هُوَ صَانِعٌ. ٢٩هُوَذَا سَبْعُ سِنِينَ قَادِمَةٌ شِبَعًا عَظِيمًا فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. ٣٠ثُمَّ تَقُومُ بَعْدَهَا سَبْعُ سِنِينَ جُوعًا، فَيُنْسَى كُلُّ الشِّبَعْ فِي أَرْضِ مِصْرَ وَيُتْلِفُ الْجُوعُ الأَرْضَ. ٣١وَلاَ يُعْرَفُ الشِّبَعُ فِي الأَرْضِ مِنْ أَجْلِ ذلِكَ الْجُوعِ بَعْدَهُ، لأَنَّهُ يَكُونُ شَدِيدًا جِدًّا. ٣٢وَأَمَّا عَنْ تَكْرَارِ الْحُلْمِ عَلَى فِرْعَوْنَ مَرَّتَيْنِ، فَلأَنَّ الأَمْرَ مُقَرَّرٌ مِنْ قِبَلِ اللّهِ، وَاللّهُ مُسْرِعٌ لِيَصْنَعَهُ.

٣٣«فَالآنَ لِيَنْظُرْ فِرْعَوْنُ رَجُلاً بَصِيرًا وَحَكِيمًا وَيَجْعَلْهُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ. ٣٤يَفْعَلْ فِرْعَوْنُ فَيُوَكِّلْ نُظَّارًا عَلَى الأَرْضِ، وَيَأْخُذْ خُمْسَ غَلَّةِ أَرْضِ مِصْرَ فِي سَبْعِ

سِنِي الشِّبَعِ، ٣٥فَيَجْمَعُونَ جَمِيعَ طَعَامِ هذِهِ السِّنِينَ الْجَيِّدَةِ الْقَادِمَةِ، وَيَخْزِنُونَ قَمْحًا تَحْتَ يَدِ فِرْعَوْنَ طَعَامًا فِي الْمُدُنِ وَيَحْفَظُونَهُ. ٣٦فَيَكُونُ الطَّعَامُ ذَخِيرَةً لِلأَرْضِ لِسَبْعِ سِنِي الْجُوعِ الَّتِي تَكُونُ فِي أَرْضِ مِصْرَ، فَلاَ تَنْقَرِضُ الأَرْضُ بِالْجُوعِ».

٣٧فَحَسُنَ الْكَلاَمُ فِي عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَفِي عُيُونِ جَمِيعِ عَبِيدِهِ. ٣٨فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِعَبِيدِهِ: «هَلْ نَجِدُ مِثْلَ هذَا رَجُلاً فِيهِ رُوحُ اللّهِ؟» ٣٩ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «بَعْدَ مَا أَعْلَمَكَ اللّهُ كُلَّ هذَا، لَيْسَ بَصِيرٌ وَحَكِيمٌ مِثْلَكَ. ٤٠أَنْتَ تَكُونُ عَلَى بَيْتِي، وَعَلَى فَمِكَ يُقَبِّلُ جَمِيعُ شَعْبِي إِلاَّ إِنَّ الْكُرْسِيَّ أَكُونُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنْكَ».

٤١ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «انْظُرْ، قَدْ جَعَلْتُكَ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ». ٤٢وَخَلَعَ فِرْعَوْنُ خَاتِمَهُ مِنْ يَدِهِ وَجَعَلَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ، وَأَلْبَسَهُ ثِيَابَ بُوصٍ، وَوَضَعَ طَوْقَ ذَهَبٍ فِي عُنُقِهِ، ٤٣وَأَرْكَبَهُ فِي مَرْكَبَتِهِ الثَّانِيَةِ، وَنَادَوْا أَمَامَهُ «ارْكَعُوا». وَجَعَلَهُ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. ٤٤وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «أَنَا فِرْعَوْنُ. فَبِدُونِكَ لاَ يَرْفَعُ إِنْسَانٌ يَدَهُ وَلاَ رِجْلَهُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ».

٤٥وَدَعَا فِرْعَوْنُ اسْمَ يُوسُفَ «صَفْنَاتَ فَعْنِيحَ»، وَأَعْطَاهُ أَسْنَاتَ بِنْتَ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أُونَ زَوْجَةً. فَخَرَجَ يُوسُفُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ. ٤٦وَكَانَ يُوسُفُ ابْنَ ثَلاَثِينَ سَنَةً لَمَّا وَقَفَ قُدَّامَ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ. فَخَرَجَ يُوسُفُ مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ وَاجْتَازَ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ.

٤٧وَأَثْمَرَتِ الأَرْضُ فِي سَبْعِ سِنِي الشِّبَعِ بِحُزَمٍ. ٤٨فَجَمَعَ كُلَّ طَعَامِ السَّبْعِ سِنِينَ الَّتِي كَانَتْ فِي أَرْضِ مِصْرَ، وَجَعَلَ طَعَامًا فِي الْمُدُنِ. طَعَامَ حَقْلِ الْمَدِينَةِ الَّذِي حَوَالَيْهَا جَعَلَهُ فِيهَا. ٤٩وَخَزَنَ يُوسُفُ قَمْحًا كَرَمْلِ الْبَحْرِ، كَثِيرًا جِدًّا حَتَّى تَرَكَ الْعَدَدَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَدَدٌ.

٥٠وَوُلِدَ لِيُوسُفَ ابْنَانِ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ سَنَةُ الْجُوعِ، وَلَدَتْهُمَا لَهُ أَسْنَاتُ بِنْتُ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أُونَ. ٥١وَدَعَا يُوسُفُ اسْمَ الْبِكْرِ «مَنَسَّى» قَائِلاً: «لأَنَّ اللّهَ أَنْسَانِي كُلَّ تَعَبِي وَكُلَّ بَيْتِ أَبِي». ٥٢وَدَعَا اسْمَ الثَّانِي «أَفْرَايِمَ» قَائِلاً: «لأَنَّ اللّهَ جَعَلَنِي مُثْمِرًا فِي أَرْضِ مَذَلَّتِي».

٥٣ثُمَّ كَمِلَتْ سَبْعُ سِنِي الشِّبَعِ الَّذِي كَانَ فِي أَرْضِ مِصْرَ. ٥٤وَابْتَدَأَتْ سَبْعُ سِنِي الْجُوعِ تَأْتِي كَمَا قَالَ يُوسُفُ، فَكَانَ جُوعٌ فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ. وَأَمَّا جَمِيعُ أَرْضِ مِصْرَ فَكَانَ فِيهَا خُبْزٌ. ٥٥وَلَمَّا جَاعَتْ جَمِيعُ أَرْضِ مِصْرَ وَصَرَخَ الشَّعْبُ إِلَى فِرْعَوْنَ لأَجْلِ الْخُبْزِ، قَالَ فِرْعَوْنُ لِكُلِّ الْمِصْرِيِّينَ: «اذْهَبُوا إِلَى يُوسُفَ، وَالَّذِي يَقُولُ لَكُمُ افْعَلُوا». ٥٦وَكَانَ الْجُوعُ عَلَى كُلِّ وَجْهِ الأَرْضِ، وَفَتَحَ يُوسُفُ جَمِيعَ مَا فِيهِ طَعَامٌ وَبَاعَ لِلْمِصْرِيِّينَ. وَاشْتَدَّ الْجُوعُ فِي أَرْضِ مِصْرَ. ٥٧وَجَاءَتْ كُلُّ الأَرْضِ إِلَى مِصْرَ إِلَى يُوسُفَ لِتَشْتَرِيَ قَمْحًا، لأَنَّ الْجُوعَ كَانَ شَدِيدًا فِي كُلِّ الأَرْضِ.

الإصحَاحُ الثَّانِي وَالأَرْبَعُونَ

١فَلَمَّا رَأَى يَعْقُوبُ أَنَّهُ يُوجَدُ قَمْحٌ فِي مِصْرَ، قَالَ يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ: «لِمَاذَا تَنْظُرُونَ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ؟» ٢وَقَالَ «إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ أَنَّهُ يُوجَدُ قَمْحٌ فِي مِصْرَ. انْزِلُوا إِلَى هُنَاكَ وَاشْتَرُوا لَنَا مِنْ هُنَاكَ لِنَحْيَا وَلاَ نَمُوتَ». ٣فَنَزَلَ عَشَرَةٌ مِنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ لِيَشْتَرُوا قَمْحًا مِنْ مِصْرَ. ٤وَأَمَّا بَنْيَامِينُ أَخُو يُوسُفَ فَلَمْ يُرْسِلْهُ يَعْقُوبُ مَعَ إِخْوَتِهِ، لأَنَّهُ قَالَ: «لَعَلَّهُ تُصِيبُهُ أَذِيَّةٌ».

٥فَأَتَى بَنُو إِسْرَائِيلَ لِيَشْتَرُوا بَيْنَ الَّذِينَ أَتَوْا، لأَنَّ الْجُوعَ كَانَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. ٦وَكَانَ يُوسُفُ هُوَ الْمُسَلَّطَ عَلَى الأَرْضِ، وَهُوَ الْبَائِعَ لِكُلِّ شَعْبِ الأَرْضِ. فَأَتَى إِخْوَةُ يُوسُفَ وَسَجَدُوا لَهُ بِوُجُوهِهِمْ إِلَى الأَرْضِ. ٧وَلَمَّا نَظَرَ يُوسُفُ إِخْوَتَهُ عَرَفَهُمْ، فَتَنَكَّرَ لَهُمْ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ بِجَفَاءٍ، وَقَالَ لَهُمْ: «مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟» فَقَالُوا: «مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا». ٨وَعَرَفَ يُوسُفُ إِخْوَتَهُ، وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَعْرِفُوهُ.

٩فَتَذَكَّرَ يُوسُفُ الأَحْلاَمَ الَّتِي حَلُمَ عَنْهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «جَوَاسِيسُ أَنْتُمْ! لِتَرَوْا عَوْرَةَ الأَرْضِ جِئْتُمْ» ١٠فَقَالُوا لَهُ: «لاَ يَا سَيِّدِي، بَلْ عَبِيدُكَ جَاءُوا لِيَشْتَرُوا طَعَامًا. ١١نَحْنُ جَمِيعُنَا بَنُو رَجُلٍ وَاحِدٍ. نَحْنُ أُمَنَاءُ، لَيْسَ عَبِيدُكَ جَوَاسِيسَ». ١٢فَقَالَ لَهُمْ: «كَلاَّ! بَلْ لِتَرَوْا عَوْرَةَ الأَرْضِ جِئْتُمْ». ١٣فَقَالُوا: «عَبِيدُكَ اثْنَا عَشَرَ أَخًا. نَحْنُ بَنُو رَجُلٍ وَاحِدٍ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. وَهُوَذَا الصَّغِيرُ عِنْدَ أَبِينَا الْيَوْمَ،

وَالْوَاحِدُ مَفْقُودٌ». ١٤فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفُ: «ذلِكَ مَا كَلَّمْتُكُمْ بِهِ قَائِلاً: جَوَاسِيسُ أَنْتُمْ! ١٥بِهذَا تُمْتَحَنُونَ. وَحَيَاةِ فِرْعَوْنَ لاَ تَخْرُجُونَ مِنْ هُنَا إِلاَّ بِمَجِيءِ أَخِيكُمُ الصَّغِيرِ إِلَى هُنَا. ١٦أَرْسِلُوا مِنْكُمْ وَاحِدًا لِيَجِيءَ بِأَخِيكُمْ، وَأَنْتُمْ تُحْبَسُونَ، فَيُمْتَحَنَ كَلاَمُكُمْ هَلْ عِنْدَكُمْ صِدْقٌ. وَإِلاَّ فَوَحَيَاةِ فِرْعَوْنَ إِنَّكُمْ لَجَوَاسِيسُ!». ١٧فَجَمَعَهُمْ إِلَى حَبْسٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ.

١٨ثُمَّ قَالَ لَهُمْ يُوسُفُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ: «افْعَلُوا هذَا وَاحْيَوْا. أَنَا خَائِفُ اللّهِ. ١٩إِنْ كُنْتُمْ أُمَنَاءَ فَلْيُحْبَسْ أَخٌ وَاحِدٌ مِنْكُمْ فِي بَيْتِ حَبْسِكُمْ، وَانْطَلِقُوا أَنْتُمْ وَخُذُوا قَمْحًا لِمَجَاعَةِ بُيُوتِكُمْ. ٢٠وَأَحْضِرُوا أَخَاكُمُ الصَّغِيرَ إِلَيَّ، فَيَتَحَقَّقَ كَلاَمُكُمْ وَلاَ تَمُوتُوا». فَفَعَلُوا هكَذَا. ٢١وَقَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «حَقًّا إِنَّنَا مُذْنِبُونَ إِلَى أَخِينَا الَّذِي رَأَيْنَا ضِيقَةَ نَفْسِهِ لَمَّا اسْتَرْحَمَنَا وَلَمْ نَسْمَعْ. لِذلِكَ جَاءَتْ عَلَيْنَا هذِهِ الضِّيقَةُ». ٢٢فَأَجَابَهُمْ رَأُوبَيْنُ قَائِلاً: «أَلَمْ أُكَلِّمْكُمْ قَائِلاً: لاَ تَأْثَمُوا بِالْوَلَدِ، وَأَنْتُمْ لَمْ تَسْمَعُوا؟ فَهُوَذَا دَمُهُ يُطْلَبُ». ٢٣وَهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ يُوسُفَ فَاهِمٌ؛ لأَنَّ التُّرْجُمَانَ كَانَ بَيْنَهُمْ. ٢٤فَتَحَوَّلَ عَنْهُمْ وَبَكَى، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِمْ وَكَلَّمَهُمْ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ شِمْعُونَ وَقَيَّدَهُ أَمَامَ عُيُونِهِمْ.

٢٥ثُمَّ أَمَرَ يُوسُفُ أَنْ تُمْلأَ أَوْعِيَتُهُمْ قَمْحًا، وَتُرَدَّ فِضَّةُ كُلِّ وَاحِدٍ إِلَى عِدْلِهِ، وَأَنْ يُعْطَوْا زَادًا لِلطَّرِيقِ. فَفُعِلَ لَهُمْ هكَذَا. ٢٦فَحَمَلُوا قَمْحَهُمْ عَلَى حَمِيرِهِمْ وَمَضَوْا مِنْ هُنَاكَ. ٢٧فَلَمَّا فَتَحَ أَحَدُهُمْ عِدْلَهُ لِيُعْطِيَ عَلِيقًا لِحِمَارِهِ فِي الْمَنْزِلِ، رَأَى فِضَّتَهُ وَإِذَا هِيَ فِي فَمِ عِدْلِهِ. ٢٨فَقَالَ لإِخْوَتِهِ: «رُدَّتْ فِضَّتِي وَهَا هِيَ فِي عِدْلِي». فَطَارَتْ قُلُوبُهُمْ وَارْتَعَدُوا بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ قَائِلِينَ: «مَا هذَا الَّذِي صَنَعَهُ اللّهُ بِنَا؟».

٢٩فَجَاءُوا إِلَى يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ، وَأَخْبَرُوهُ بِكُلِّ مَا أَصَابَهُمْ قَائِلِينَ: ٣٠«تَكَلَّمَ مَعَنَا الرَّجُلُ سَيِّدُ الأَرْضِ بِجَفَاءٍ، وَحَسِبَنَا جَوَاسِيسَ الأَرْضِ. ٣١فَقُلْنَا لَهُ: نَحْنُ أُمَنَاءُ، لَسْنَا جَوَاسِيسَ. ٣٢نَحْنُ اثْنَا عَشَرَ أَخًا بَنُو أَبِينَا. الْوَاحِدُ مَفْقُودٌ وَالصَّغِيرُ الْيَوْمَ عِنْدَ أَبِينَا فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. ٣٣فَقَالَ لَنَا الرَّجُلُ سَيِّدُ الأَرْضِ:

بِهذَا أَعْرِفُ أَنَّكُمْ أُمَنَاءُ. دَعُوا أَخًا وَاحِدًا مِنْكُمْ عِنْدِي، وَخُذُوا لِمَجَاعَةِ بُيُوتِكُمْ وَانْطَلِقُوا. ٣٤وَأَحْضِرُوا أَخَاكُمُ الصَّغِيرَ إِلَيَّ فَأَعْرِفَ أَنَّكُمْ لَسْتُمْ جَوَاسِيسَ، بَلْ أَنَّكُمْ أُمَنَاءُ، فَأُعْطِيَكُمْ أَخَاكُمْ وَتَتَّجِرُونَ فِي الأَرْضِ». ٣٥وَإِذْ كَانُوا يُفَرِّغُونَ عِدَالَهُمْ إِذَا صُرَّةُ فِضَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ فِي عِدْلِهِ. فَلَمَّا رَأَوْا صُرَرَ فِضَّتِهِمْ هُمْ وَأَبُوهُمْ خَافُوا.

٣٦فَقَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ: «أَعْدَمْتُمُونِي الأَوْلاَدَ. يُوسُفُ مَفْقُودٌ، وَشِمْعُونُ مَفْقُودٌ، وَبَنْيَامِينُ تَأْخُذُونَهُ. صَارَ كُلُّ هذَا عَلَيَّ». ٣٧وَكَلَّمَ رَأُوبَيْنُ أَبَاهُ قَائِلاً: «اقْتُلِ ابْنَيَّ إِنْ لَمْ أَجِئْ بِهِ إِلَيْكَ. سَلِّمْهُ بِيَدِي وَأَنَا أَرُدُّهُ إِلَيْكَ». ٣٨فَقَالَ: «لاَ يَنْزِلُ ابْنِي مَعَكُمْ، لأَنَّ أَخَاهُ قَدْ مَاتَ، وَهُوَ وَحْدَهُ بَاق. فَإِنْ أَصَابَتْهُ أَذِيَّةٌ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تَذْهَبُونَ فِيهَا تُنْزِلُونَ شَيْبَتِي بِحُزْنٍ إِلَى الْهَاوِيَةِ».

الإصحَاحُ الثَّالِثُ والأَرْبَعُونَ

١وَكَانَ الْجُوعُ شَدِيدًا فِي الأَرْضِ. ٢وَحَدَثَ لَمَّا فَرَغُوا مِنْ أَكْلِ الْقَمْحِ الَّذِي جَاءُوا بِهِ مِنْ مِصْرَ، أَنَّ أَبَاهُمْ قَالَ لَهُمْ: «ارْجِعُوا اشْتَرُوا لَنَا قَلِيلاً مِنَ الطَّعَامِ». ٣فَكَلَّمَهُ يَهُوذَا قَائِلاً: «إِنَّ الرَّجُلَ قَدْ أَشْهَدَ عَلَيْنَا قَائِلاً: لاَ تَرَوْنَ وَجْهِي بِدُونِ أَنْ يَكُونَ أَخُوكُمْ مَعَكُمْ. ٤إِنْ كُنْتَ تُرْسِلُ أَخَانَا مَعَنَا، نَنْزِلُ وَنَشْتَرِي لَكَ طَعَامًا، ٥وَلكِنْ إِنْ كُنْتَ لاَ تُرْسِلُهُ لاَ نَنْزِلُ. لأَنَّ الرَّجُلَ قَالَ لَنَا: لاَ تَرَوْنَ وَجْهِي بِدُونِ أَنْ يَكُونَ أَخُوكُمْ مَعَكُمْ».

٦فَقَالَ إِسْرَائِيلُ: «لِمَاذَا أَسَأْتُمْ إِلَيَّ حَتَّى أَخْبَرْتُمُ الرَّجُلَ أَنَّ لَكُمْ أَخًا أَيْضًا؟» ٧فَقَالُوا: «إِنَّ الرَّجُلَ قَدْ سَأَلَ عَنَّا وَعَنْ عَشِيرَتِنَا، قَائِلاً: هَلْ أَبُوكُمْ حَيٌّ بَعْدُ؟ هَلْ لَكُمْ أَخٌ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ بِحَسَبِ هذَا الْكَلاَمِ. هَلْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُولُ: انْزِلُوا بِأَخِيكُمْ؟».

٨وَقَالَ يَهُوذَا لإِسْرَائِيلَ أَبِيهِ: «أَرْسِلِ الْغُلاَمَ مَعِي لِنَقُومَ وَنَذْهَبَ وَنَحْيَا وَلاَ نَمُوتَ، نَحْنُ وَأَنْتَ وَأَوْلاَدُنَا جَمِيعًا. ٩أَنَا أَضْمَنُهُ. مِنْ يَدِي تَطْلُبُهُ. إِنْ لَمْ أَجِئْ بِهِ إِلَيْكَ وَأُوقِفْهُ قُدَّامَكَ، أَصِرْ مُذْنِبًا إِلَيْكَ كُلَّ الأَيَّامِ. ١٠لأَنَّنَا لَوْ لَمْ نَتَوَانَ لَكُنَّا قَدْ رَجَعْنَا الآنَ مَرَّتَيْنِ».

١١فَقَالَ لَهُمْ إِسْرَائِيلُ أَبُوهُمْ: «إِنْ كَانَ هكَذَا فَافْعَلُوا هذَا: خُذُوا مِنْ أَفْخَرِ

جَنَى الأَرْضِ فِي أَوْعِيَتِكُمْ، وَأَنْزِلُوا لِلرَّجُلِ هَدِيَّةً. قَلِيلاً مِنَ الْبَلَسَانِ، وَقَلِيلاً مِنَ الْعَسَلِ، وَكَثِيرَاءَ وَلاَذَنًا وَفُسْتُقًا وَلَوْزًا. ١٢وَخُذُوا فِضَّةً أُخْرَى فِي أَيَادِيكُمْ. وَالْفِضَّةَ الْمَرْدُودَةَ فِي أَفْوَاهِ عِدَالِكُمْ رُدُّوهَا فِي أَيَادِيكُمْ، لَعَلَّهُ كَانَ سَهْوًا. ١٣وَخُذُوا أَخَاكُمْ وَقُومُوا ارْجِعُوا إِلَى الرَّجُلِ. ١٤وَاللّهُ الْقَدِيرُ يُعْطِيكُمْ رَحْمَةً أَمَامَ الرَّجُلِ حَتَّى يُطْلِقَ لَكُمْ أَخَاكُمُ الآخَرَ وَبَنْيَامِينَ. وَأَنَا إِذَا عَدِمْتُ الأَوْلاَدَ عَدِمْتُهُمْ».

١٥فَأَخَذَ الرِّجَالُ هذِهِ الْهَدِيَّةَ، وَأَخَذُوا ضِعْفَ الْفِضَّةِ فِي أَيَادِيهِمْ، وَبَنْيَامِينَ، وَقَامُوا وَنَزَلُوا إِلَى مِصْرَ وَوَقَفُوا أَمَامَ يُوسُفَ. ١٦فَلَمَّا رَأَى يُوسُفُ بَنْيَامِينَ مَعَهُمْ، قَالَ لِلَّذِي عَلَى بَيْتِهِ: «أَدْخِلِ الرِّجَالَ إِلَى الْبَيْتِ وَاذْبَحْ ذَبِيحَةً وَهَيِّئْ، لأَنَّ الرِّجَالَ يَأْكُلُونَ مَعِي عِنْدَ الظُّهْرِ». ١٧فَفَعَلَ الرَّجُلُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ. وَأَدْخَلَ الرَّجُلُ الرِّجَالَ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ.

١٨فَخَافَ الرِّجَالُ إِذْ أُدْخِلُوا إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ، وَقَالُوا: «لِسَبَبِ الْفِضَّةِ الَّتِي رَجَعَتْ أَوَّلاً فِي عِدَالِنَا نَحْنُ قَدْ أُدْخِلْنَا لِيَهْجِمَ عَلَيْنَا وَيَقَعَ بِنَا وَيَأْخُذَنَا عَبِيدًا وَحَمِيرَنَا». ١٩فَتَقَدَّمُوا إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي عَلَى بَيْتِ يُوسُفَ، وَكَلَّمُوهُ فِي بَابِ الْبَيْتِ ٢٠وَقَالُوا: «اسْتَمِعْ يَا سَيِّدِي، إِنَّنَا قَدْ نَزَلْنَا أَوَّلاً لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا. ٢١وَكَانَ لَمَّا أَتَيْنَا إِلَى الْمَنْزِلِ أَنَّنَا فَتَحْنَا عِدَالَنَا، وَإِذَا فِضَّةُ كُلِّ وَاحِدٍ فِي فَمِ عِدْلِهِ. فِضَّتُنَا بِوَزْنِهَا. فَقَدْ رَدَدْنَاهَا فِي أَيَادِينَا. ٢٢وَأَنْزَلْنَا فِضَّةً أُخْرَى فِي أَيَادِينَا لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا. لاَ نَعْلَمُ مَنْ وَضَعَ فِضَّتَنَا فِي عِدَالِنَا».

٢٣فَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكُمْ، لاَ تَخَافُوا. إِلهُكُمْ وَإِلهُ أَبِيكُمْ أَعْطَاكُمْ كَنْزًا فِي عِدَالِكُمْ. فِضَّتُكُمْ وَصَلَتْ إِلَيَّ». ثُمَّ أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ شِمْعُونَ. ٢٤وَأَدْخَلَ الرَّجُلُ الرِّجَالَ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ وَأَعْطَاهُمْ مَاءً لِيَغْسِلُوا أَرْجُلَهُمْ، وَأَعْطَى عَلِيقًا لِحَمِيرِهِمْ. ٢٥وَهَيَّأُوا الْهَدِيَّةَ إِلَى أَنْ يَجِيءَ يُوسُفُ عِنْدَ الظُّهْرِ، لأَنَّهُمْ سَمِعُوا أَنَّهُمْ هُنَاكَ يَأْكُلُونَ طَعَامًا.

٢٦فَلَمَّا جَاءَ يُوسُفُ إِلَى الْبَيْتِ أَحْضَرُوا إِلَيْهِ الْهَدِيَّةَ الَّتِي فِي أَيَادِيهِمْ إِلَى الْبَيْتِ، وَسَجَدُوا لَهُ إِلَى الأَرْضِ. ٢٧فَسَأَلَ عَنْ سَلاَمَتِهِمْ، وَقَالَ: «أَسَالِمٌ أَبُوكُمُ

الشَّيْخُ الَّذِي قُلْتُمْ عَنْهُ؟ أَحَيٌّ هُوَ بَعْدُ؟» ٢٨فَقَالُوا: «عَبْدُكَ أَبُونَا سَالِمٌ. هُوَ حَيٌّ بَعْدُ». وَخَرُّوا وَسَجَدُوا.

٢٩فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ بَنْيَامِينَ أَخَاهُ ابْنَ أُمِّهِ، وَقَالَ: «أَهذَا أَخُوكُمُ الصَّغِيرُ الَّذِي قُلْتُمْ لِي عَنْهُ؟» ثُمَّ قَالَ: «اللّهُ يُنْعِمُ عَلَيْكَ يَا ابْنِي». ٣٠وَاسْتَعْجَلَ يُوسُفُ لأَنَّ أَحْشَاءَهُ حَنَّتْ إِلَى أَخِيهِ وَطَلَبَ مَكَانًا لِيَبْكِيَ، فَدَخَلَ الْمَخْدَعَ وَبَكَى هُنَاكَ.

٣١ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ وَخَرَجَ وَتَجَلَّدَ، وَقَالَ: «قَدِّمُوا طَعَامًا». ٣٢فَقَدَّمُوا لَهُ وَحْدَهُ، وَلَهُمْ وَحْدَهُمْ، وَلِلْمِصْرِيِّينَ الآكِلِينَ عِنْدَهُ وَحْدَهُمْ، لأَنَّ الْمِصْرِيِّينَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَأْكُلُوا طَعَامًا مَعَ الْعِبْرَانِيِّينَ، لأَنَّهُ رِجْسٌ عِنْدَ الْمِصْرِيِّينَ. ٣٣فَجَلَسُوا قُدَّامَهُ: الْبِكْرُ بِحَسَبِ بَكُورِيَّتِهِ، وَالصَّغِيرُ بِحَسَبِ صِغَرِهِ، فَبُهِتَ الرِّجَالُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ. ٣٤وَرَفَعَ حِصَصًا مِنْ قُدَّامِهِ إِلَيْهِمْ، فَكَانَتْ حِصَّةُ بَنْيَامِينَ أَكْثَرَ مِنْ حِصَصِ جَمِيعِهِمْ خَمْسَةَ أَضْعَافٍ. وَشَرِبُوا وَرَوُوا مَعَهُ.

الإِصحَاحُ الرَّابعُ والأَرْبَعُونَ

١ثُمَّ أَمَرَ الَّذِي عَلَى بَيْتِهِ قَائِلاً: «امْلأْ عِدَالَ الرِّجَالِ طَعَامًا حَسَبَ مَا يُطِيقُونَ حِمْلَهُ، وَضَعْ فِضَّةَ كُلِّ وَاحِدٍ فِي فَمِ عِدْلِهِ. ٢وَطَاسِي، طَاسَ الْفِضَّةِ، تَضَعُ فِي فَمِ عِدْلِ الصَّغِيرِ، وَثَمَنَ قَمْحِهِ». فَفَعَلَ بِحَسَبِ كَلاَمِ يُوسُفَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ. ٣فَلَمَّا أَضَاءَ الصُّبْحُ انْصَرَفَ الرِّجَالُ هُمْ وَحَمِيرُهُمْ. ٤وَلَمَّا كَانُوا قَدْ خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَلَمْ يَبْتَعِدُوا، قَالَ يُوسُفُ لِلَّذِي عَلَى بَيْتِهِ: «قُمِ اسْعَ وَرَاءَ الرِّجَالِ، وَمَتَى أَدْرَكْتَهُمْ فَقُلْ لَهُمْ: لِمَاذَا جَازَيْتُمْ شَرًّا عِوَضًا عَنْ خَيْرٍ؟ ٥أَلَيْسَ هذَا هُوَ الَّذِي يَشْرَبُ سَيِّدِي فِيهِ؟ وَهُوَ يَتَفَاءَلُ بِهِ. أَسَأْتُمْ فِي مَا صَنَعْتُمْ».

٦فَأَدْرَكَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ هذَا الْكَلاَمَ. ٧فَقَالُوا لَهُ: «لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ سَيِّدِي مِثْلَ هذَا الْكَلاَمِ؟ حَاشَا لِعَبِيدِكَ أَنْ يَفْعَلُوا مِثْلَ هذَا الأَمْرِ! ٨هُوَذَا الْفِضَّةُ الَّتِي وَجَدْنَا فِي أَفْوَاهِ عِدَالِنَا رَدَدْنَاهَا إِلَيْكَ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ. فَكَيْفَ نَسْرِقُ مِنْ بَيْتِ سَيِّدِكَ فِضَّةً أَوْ ذَهَبًا؟ ٩الَّذِي يُوجَدُ مَعَهُ مِنْ عَبِيدِكَ يَمُوتُ، وَنَحْنُ أَيْضًا نَكُونُ عَبِيدًا لِسَيِّدِي». ١٠فَقَالَ: «نَعَمِ، الآنَ بِحَسَبِ كَلاَمِكُمْ هكَذَا يَكُونُ. الَّذِي يُوجَدُ مَعَهُ يَكُونُ لِي

عَبْدًا، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَكُونُونَ أَبْرِيَاءَ». ١١فَاسْتَعْجَلُوا وَأَنْزَلُوا كُلُّ وَاحِدٍ عِدْلَهُ إِلَى الأَرْضِ، وَفَتَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عِدْلَهُ. ١٢فَفَتَّشَ مُبْتَدِئًا مِنَ الْكَبِيرِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الصَّغِيرِ، فَوُجِدَ الطَّاسُ فِي عِدْلِ بَنْيَامِينَ. ١٣فَمَزَّقُوا ثِيَابَهُمْ وَحَمَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حِمَارِهِ وَرَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ.

١٤فَدَخَلَ يَهُوذَا وَإِخْوَتُهُ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ وَهُوَ بَعْدُ هُنَاكَ، وَوَقَعُوا أَمَامَهُ عَلَى الأَرْضِ. ١٥فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفُ: «مَا هذَا الْفِعْلُ الَّذِي فَعَلْتُمْ؟ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ رَجُلاً مِثْلِي يَتَفَاءَلُ؟» ١٦فَقَالَ يَهُوذَا: «مَاذَا نَقُولُ لِسَيِّدِي؟ مَاذَا نَتَكَلَّمُ؟ وَبِمَاذَا نَتَبَرَّرُ؟ اللهُ قَدْ وَجَدَ إِثْمَ عَبِيدِكَ. هَا نَحْنُ عَبِيدٌ لِسَيِّدِي، نَحْنُ وَالَّذِي وُجِدَ الطَّاسُ فِي يَدِهِ جَمِيعًا». ١٧فَقَالَ: «حَاشَا لِي أَنْ أَفْعَلَ هذَا! الرَّجُلُ الَّذِي وُجِدَ الطَّاسُ فِي يَدِهِ هُوَ يَكُونُ لِي عَبْدًا، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَاصْعَدُوا بِسَلاَمٍ إِلَى أَبِيكُمْ».

١٨ثُمَّ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَهُوذَا وَقَالَ: «اسْتَمِعْ يَا سَيِّدِي. لِيَتَكَلَّمْ عَبْدُكَ كَلِمَةً فِي أُذُنَيْ سَيِّدِي وَلاَ يَحْمَ غَضَبُكَ عَلَى عَبْدِكَ، لأَنَّكَ مِثْلُ فِرْعَوْنَ. ١٩سَيِّدِي سَأَلَ عَبِيدَهُ قَائِلاً: هَلْ لَكُمْ أَبٌ أَوْ أَخٌ؟ ٢٠فَقُلْنَا لِسَيِّدِي: لَنَا أَبٌ شَيْخٌ، وَابْنُ شَيْخُوخَةٍ صَغِيرٌ، مَاتَ أَخُوهُ وَبَقِيَ هُوَ وَحْدَهُ لأُمِّهِ، وَأَبُوهُ يُحِبُّهُ. ٢١فَقُلْتَ لِعَبِيدِكَ: انْزِلُوا بِهِ إِلَيَّ فَأَجْعَلَ نَظَرِي عَلَيْهِ. ٢٢فَقُلْنَا لِسَيِّدِي: لاَ يَقْدِرُ الْغُلاَمُ أَنْ يَتْرُكَ أَبَاهُ، وَإِنْ تَرَكَ أَبَاهُ يَمُوتُ. ٢٣فَقُلْتَ لِعَبِيدِكَ: إِنْ لَمْ يَنْزِلْ أَخُوكُمُ الصَّغِيرُ مَعَكُمْ لاَ تَعُودُوا تَنْظُرُونَ وَجْهِي. ٢٤فَكَانَ لَمَّا صَعِدْنَا إِلَى عَبْدِكَ أَبِي أَنَّنَا أَخْبَرْنَاهُ بِكَلاَمِ سَيِّدِي. ٢٥ثُمَّ قَالَ أَبُونَا: ارْجِعُوا اشْتَرُوا لَنَا قَلِيلاً مِنَ الطَّعَامِ. ٢٦فَقُلْنَا: لاَ نَقْدِرُ أَنْ نَنْزِلَ، وَإِنَّمَا إِذَا كَانَ أَخُونَا الصَّغِيرُ مَعَنَا نَنْزِلُ، لأَنَّنَا لاَ نَقْدِرُ أَنْ نَنْظُرَ وَجْهَ الرَّجُلِ وَأَخُونَا الصَّغِيرُ لَيْسَ مَعَنَا. ٢٧فَقَالَ لَنَا عَبْدُكَ أَبِي: أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ لِي اثْنَيْنِ، ٢٨فَخَرَجَ الْوَاحِدُ مِنْ عِنْدِي، وَقُلْتُ: إِنَّمَا هُوَ قَدِ افْتُرِسَ افْتِرَاسًا، وَلَمْ أَنْظُرْهُ إِلَى الآنَ. ٢٩فَإِذَا أَخَذْتُمْ هذَا أَيْضًا مِنْ أَمَامِ وَجْهِي وَأَصَابَتْهُ أَذِيَّةٌ، تُنْزِلُونَ شَيْبَتِي بِشَرٍّ إِلَى الْهَاوِيَةِ. ٣٠فَالآنَ مَتَى جِئْتُ إِلَى عَبْدِكَ أَبِي، وَالْغُلاَمُ لَيْسَ مَعَنَا، وَنَفْسُهُ مُرْتَبِطَةٌ بِنَفْسِهِ، ٣١يَكُونُ مَتَى رَأَى أَنَّ الْغُلاَمَ مَفْقُودٌ، أَنَّهُ يَمُوتُ، فَيُنْزِلُ

عَبِيدُكَ شَيْبَةَ عَبْدِكَ أَبِينَا بِحُزْنٍ إِلَى الْهَاوِيَةِ، ٣٢لأَنَّ عَبْدَكَ ضَمِنَ الْغُلاَمَ لأَبِي قَائِلاً: إِنْ لَمْ أَجِئْ بِهِ إِلَيْكَ أَصِرْ مُذْنِبًا إِلَى أَبِي كُلَّ الأَيَّامِ. ٣٣فَالآنَ لِيَمْكُثْ عَبْدُكَ عِوَضًا عَنِ الْغُلاَمِ، عَبْدًا لِسَيِّدِي، وَيَصْعَدِ الْغُلاَمُ مَعَ إِخْوَتِهِ. ٣٤لأَنِّي كَيْفَ أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَالْغُلاَمُ لَيْسَ مَعِي؟ لِئَلاَّ أَنْظُرَ الشَّرَّ الَّذِي يُصِيبُ أَبِي».

الإصحَاحُ الْخَامِسُ والأَرْبَعُونَ

١فَلَمْ يَسْتَطِعْ يُوسُفُ أَنْ يَضْبِطَ نَفْسَهُ لَدَى جَمِيعِ الْوَاقِفِينَ عِنْدَهُ فَصَرَخَ: «أَخْرِجُوا كُلَّ إِنْسَانٍ عَنِّي». فَلَمْ يَقِفْ أَحَدٌ عِنْدَهُ حِينَ عَرَّفَ يُوسُفُ إِخْوَتَهُ بِنَفْسِهِ. ٢فَأَطْلَقَ صَوْتَهُ بِالْبُكَاءِ، فَسَمِعَ الْمِصْرِيُّونَ وَسَمِعَ بَيْتُ فِرْعَوْنَ. ٣وَقَالَ يُوسُفُ لإِخْوَتِهِ: «أَنَا يُوسُفُ. أَحَيٌّ أَبِي بَعْدُ؟» فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِخْوَتُهُ أَنْ يُجِيبُوهُ، لأَنَّهُمُ ارْتَاعُوا مِنْهُ.

٤فَقَالَ يُوسُفُ لإِخْوَتِهِ: «تَقَدَّمُوا إِلَيَّ». فَتَقَدَّمُوا. فَقَالَ: «أَنَا يُوسُفُ أَخُوكُمُ الَّذِي بِعْتُمُوهُ إِلَى مِصْرَ. ٥وَالآنَ لاَ تَتَأَسَّفُوا وَلاَ تَغْتَاظُوا لأَنَّكُمْ بِعْتُمُونِي إِلَى هُنَا، لأَنَّهُ لاسْتِبْقَاءِ حَيَاةٍ أَرْسَلَنِيَ اللّهُ قُدَّامَكُمْ. ٦لأَنَّ لِلْجُوعِ فِي الأَرْضِ الآنَ سَنَتَيْنِ. وَخَمْسُ سِنِينَ أَيْضًا لاَ تَكُونُ فِيهَا فَلاَحَةٌ وَلاَ حَصَادٌ. ٧فَقَدْ أَرْسَلَنِي اللّهُ قُدَّامَكُمْ لِيَجْعَلَ لَكُمْ بَقِيَّةً فِي الأَرْضِ وَلِيَسْتَبْقِيَ لَكُمْ نَجَاةً عَظِيمَةً. ٨فَالآنَ لَيْسَ أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمُونِي إِلَى هُنَا بَلِ اللّهُ. وَهُوَ قَدْ جَعَلَنِي أَبًا لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّدًا لِكُلِّ بَيْتِهِ وَمُتَسَلِّطًا عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. ٩أَسْرِعُوا وَاصْعَدُوا إِلَى أَبِي وَقُولُوا لَهُ: هكَذَا يَقُولُ ابْنُكَ يُوسُفُ: قَدْ جَعَلَنِيَ اللّهُ سَيِّدًا لِكُلِّ مِصْرَ. اِنْزِلْ إِلَيَّ. لاَ تَقِفْ. ١٠فَتَسْكُنَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ وَتَكُونَ قَرِيبًا مِنِّي، أَنْتَ وَبَنُوكَ وَبَنُو بَنِيكَ وَغَنَمُكَ وَبَقَرُكَ وَكُلُّ مَا لَكَ. ١١وَأَعُولُكَ هُنَاكَ، لأَنَّهُ يَكُونُ أَيْضًا خَمْسُ سِنِينَ جُوعًا. لِئَلاَّ تَفْتَقِرَ أَنْتَ وَبَيْتُكَ وَكُلُّ مَا لَكَ. ١٢وَهُوَذَا عُيُونُكُمْ تَرَى، وَعَيْنَا أَخِي بِنْيَامِينَ، أَنَّ فَمِي هُوَ الَّذِي يُكَلِّمُكُمْ. ١٣وَتُخْبِرُونَ أَبِي بِكُلِّ مَجْدِي فِي مِصْرَ وَبِكُلِّ مَا رَأَيْتُمْ، وَتَسْتَعْجِلُونَ وَتَنْزِلُونَ بِأَبِي إِلَى هُنَا».

١٤ثُمَّ وَقَعَ عَلَى عُنُقِ بِنْيَامِينَ أَخِيهِ وَبَكَى، وَبَكَى بِنْيَامِينُ عَلَى عُنُقِهِ. ١٥وَقَبَّلَ

جَمِيعَ إِخْوَتِهِ وَبَكَى عَلَيْهِمْ. وَبَعْدَ ذلِكَ تَكَلَّمَ إِخْوَتُهُ مَعَهُ.

١٦وَسُمِعَ الْخَبَرُ فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ، وَقِيلَ: «جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ». فَحَسُنَ فِي عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَفِي عُيُونِ عَبِيدِهِ. ١٧فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «قُلْ لإِخْوَتِكَ: افْعَلُوا هذَا: حَمِّلُوا دَوَابَّكُمْ وَانْطَلِقُوا، اذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. ١٨وَخُذُوا أَبَاكُمْ وَبُيُوتَكُمْ وَتَعَالَوْا إِلَيَّ، فَأُعْطِيَكُمْ خَيْرَاتِ أَرْضِ مِصْرَ وَتَأْكُلُوا دَسَمَ الأَرْضِ. ١٩فَأَنْتَ قَدْ أُمِرْتَ، افْعَلُوا هذَا: خُذُوا لَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ عَجَلاَتٍ لأَوْلاَدِكُمْ وَنِسَائِكُمْ، وَاحْمِلُوا أَبَاكُمْ وَتَعَالَوْا. ٢٠وَلاَ تَحْزَنْ عُيُونُكُمْ عَلَى أَثَاثِكُمْ، لأَنَّ خَيْرَاتِ جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ لَكُمْ».

٢١فَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ هكَذَا. وَأَعْطَاهُمْ يُوسُفُ عَجَلاَتٍ بِحَسَبِ أَمْرِ فِرْعَوْنَ، وَأَعْطَاهُمْ زَادًا لِلطَّرِيقِ. ٢٢وَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حُلَلَ ثِيَابٍ، وَأَمَّا بَنْيَامِينُ فَأَعْطَاهُ ثَلاَثَ مِئَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَخَمْسَ حُلَلِ ثِيَابٍ. ٢٣وَأَرْسَلَ لأَبِيهِ هكَذَا: عَشَرَةَ حَمِيرٍ حَامِلَةً مِنْ خَيْرَاتِ مِصْرَ، وَعَشَرَ أُتُنٍ حَامِلَةً حِنْطَةً، وَخُبْزًا وَطَعَامًا لأَبِيهِ لأَجْلِ الطَّرِيقِ. ٢٤ثُمَّ صَرَفَ إِخْوَتَهُ فَانْطَلَقُوا، وَقَالَ لَهُمْ: «لاَ تَتَغَاضَبُوا فِي الطَّرِيقِ».

٢٥فَصَعِدُوا مِنْ مِصْرَ وَجَاءُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ، إِلَى يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ. ٢٦وَأَخْبَرُوهُ قَائِلِينَ: «يُوسُفُ حَيٌّ بَعْدُ، وَهُوَ مُتَسَلِّطٌ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ». فَجَمَدَ قَلْبُهُ لأَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ. ٢٧ثُمَّ كَلَّمُوهُ بِكُلِّ كَلاَمِ يُوسُفَ الَّذِي كَلَّمَهُمْ بِهِ، وَأَبْصَرَ الْعَجَلاَتِ الَّتِي أَرْسَلَهَا يُوسُفُ لِتَحْمِلَهُ. فَعَاشَتْ رُوحُ يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ. ٢٨فَقَالَ إِسْرَائِيلُ: «كَفَى! يُوسُفُ ابْنِي حَيٌّ بَعْدُ. أَذْهَبُ وَأَرَاهُ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ».

الإصحَاحُ السَّادِسُ والأَرْبَعُونَ

١٩اِبْنَا رَاحِيلَ امْرَأَةِ يَعْقُوبَ: يُوسُفُ وَبَنْيَامِينُ. ٢٠وَوُلِدَ لِيُوسُفَ فِي أَرْضِ مِصْرَ: مَنَسَّى وَأَفْرَايِمُ، اللَّذَانِ وَلَدَتْهُمَا لَهُ أَسْنَاتُ بِنْتُ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أُونٍ. ٢١وَبَنُو بَنْيَامِينَ: بَالَعُ وَبَاكَرُ وَأَشْبِيلُ وَجِيرَا وَنَعْمَانُ وَإِيحِي وَرُوشُ وَمُفِّيمُ وَحُفِّيمُ وَأَرْدُ. ٢٢هؤُلاَءِ بَنُو رَاحِيلَ الَّذِينَ وُلِدُوا لِيَعْقُوبَ. جَمِيعُ النُّفُوسِ أَرْبَعَ عَشَرَةَ.

٢٣وَابْنُ دَانَ: حُوشِيمُ. ٢٤وَبَنُو نَفْتَالِي: يَاحَصْئِيلُ وَجُونِي وَيِصْرُ وَشِلِّيمُ. ٢٥هؤُلاَءِ بَنُو بِلْهَةَ الَّتِي أَعْطَاهَا لاَبَانُ لِرَاحِيلَ ابْنَتِهِ. فَوَلَدَتْ هؤُلاَءِ لِيَعْقُوبَ. جَمِيعُ الأَنْفُسِ سَبْعٌ.

٢٦جَمِيعُ النُّفُوسِ لِيَعْقُوبَ الَّتِي أَتَتْ إِلَى مِصْرَ، الْخَارِجَةِ مِنْ صُلْبِهِ، مَا عَدَا نِسَاءَ بَنِي يَعْقُوبَ، جَمِيعُ النُّفُوسِ سِتٌّ وَسِتُّونَ نَفْسًا. ٢٧وَابْنَا يُوسُفَ اللَّذَانِ وُلِدَا لَهُ فِي مِصْرَ نَفْسَانِ. جَمِيعُ نُفُوسِ بَيْتِ يَعْقُوبَ الَّتِي جَاءَتْ إِلَى مِصْرَ سَبْعُونَ.

٢٨فَأَرْسَلَ يَهُوذَا أَمَامَهُ إِلَى يُوسُفَ لِيُرِيَ الطَّرِيقَ أَمَامَهُ إِلَى جَاسَانَ، ثُمَّ جَاءُوا إِلَى أَرْضِ جَاسَانَ. ٢٩فَشَدَّ يُوسُفُ مَرْكَبَتَهُ وَصَعِدَ لاسْتِقْبَالِ إِسْرَائِيلَ أَبِيهِ إِلَى جَاسَانَ. وَلَمَّا ظَهَرَ لَهُ وَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَبَكَى عَلَى عُنُقِهِ زَمَانًا. ٣٠فَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: «أَمُوتُ الآنَ بَعْدَ مَا رَأَيْتُ وَجْهَكَ أَنَّكَ حَيٌّ بَعْدُ».

٣١ثُمَّ قَالَ يُوسُفُ لإِخْوَتِهِ وَلِبَيْتِ أَبِيهِ: «أَصْعَدُ وَأُخبِرُ فِرْعَوْنَ وَأَقُولُ لَهُ: إِخْوَتِي وَبَيْتُ أَبِي الَّذِينَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ جَاءُوا إِلَيَّ. ٣٢وَالرِّجَالُ رُعَاةُ غَنَم، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ مَوَاشٍ، وَقَدْ جَاءُوا بِغَنَمِهِمْ وَبَقَرِهِمْ وَكُلِّ مَا لَهُمْ. ٣٣فَيَكُونُ إِذَا دَعَاكُمْ فِرْعَوْنُ وَقَالَ: مَا صِنَاعَتُكُمْ؟ ٣٤أَنْ تَقُولُوا: عَبِيدُكَ أَهْلُ مَوَاشٍ مُنْذُ صِبَانَا إِلَى الآنَ، نَحْنُ وَآبَاؤُنَا جَمِيعًا. لِكَيْ تَسْكُنُوا فِي أَرْضِ جَاسَانَ. لأَنَّ كُلَّ رَاعِي غَنَمٍ رِجْسٌ لِلْمِصْرِيِّينَ».

الإصحَاحُ السَّابعُ والأَرْبَعُونَ

١فَأَتَى يُوسُفُ وَأَخبَرَ فِرْعَوْنَ وَقَالَ: «أَبِي وَإِخْوَتِي وَغَنَمُهُمْ وَبَقَرُهُمْ وَكُلُّ مَا لَهُمْ جَاءُوا مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ، وَهُوَذَا هُمْ فِي أَرْضِ جَاسَانَ». ٢وَأَخَذَ مِنْ جُمْلَةِ إِخْوَتِهِ خَمْسَةَ رِجَال وَأَوْقَفَهُمْ أَمَامَ فِرْعَوْنَ. ٣فَقَالَ فِرْعَوْنُ لإِخْوَتِهِ: «مَا صِنَاعَتُكُمْ؟» فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: «عَبِيدُكَ رُعَاةُ غَنَم نَحْنُ وَآبَاؤُنَا جَمِيعًا». ٤وَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: «جِئْنَا لِنَتَغَرَّبَ فِي الأَرْضِ، إِذْ لَيْسَ لِغَنَم عَبِيدِكَ مَرْعًى، لأَنَّ الْجُوعَ شَدِيدٌ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. فَالآنَ لِيَسْكُنْ عَبِيدُكَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ».

٥فَكَلَّمَ فِرْعَوْنُ يُوسُفَ قَائِلاً: «أَبُوكَ وَإِخْوَتُكَ جَاءُوا إِلَيْكَ. ٦أَرْضُ مِصْرَ

قُدَّامَكَ. فِي أَفْضَلِ الأَرْضِ أَسْكِنْ أَبَاكَ وَإِخْوَتَكَ، لِيَسْكُنُوا فِي أَرْضِ جَاسَانَ. وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ يُوجَدُ بَيْنَهُمْ ذَوُو قُدْرَةٍ، فَاجْعَلْهُمْ رُؤَسَاءَ مَوَاشٍ عَلَى الَّتِي لِي»

٧ثُمَّ أَدْخَلَ يُوسُفُ يَعْقُوبَ أَبَاهُ وَأَوْقَفَهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ. وَبَارَكَ يَعْقُوبُ فِرْعَوْنَ. ٨فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيَعْقُوبَ: «كَمْ هِيَ أَيَّامُ سِنِي حَيَاتِكَ؟» ٩فَقَالَ يَعْقُوبُ لِفِرْعَوْنَ: «أَيَّامُ سِنِي غُرْبَتِي مِئَةٌ وَثَلاَثُونَ سَنَةً. قَلِيلَةً وَ رَدِيَّةً كَانَتْ أَيَّامُ سِنِي حَيَاتِي، وَلَمْ تَبْلُغْ إِلَى أَيَّامِ سِنِي حَيَاةِ آبَائِي فِي أَيَّامِ غُرْبَتِهِمْ». ١٠وَبَارَكَ يَعْقُوبُ فِرْعَوْنَ وَخَرَجَ مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ.

١١فَأَسْكَنَ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَعْطَاهُمْ مُلْكًا فِي أَرْضِ مِصْرَ، فِي أَفْضَلِ الأَرْضِ، فِي أَرْضِ رَعَمْسِيسَ كَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنُ. ١٢وَعَالَ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ وَكُلَّ بَيْتِ أَبِيهِ بِطَعَامٍ عَلَى حَسَبِ الأَوْلاَدِ.

١٣وَلَمْ يَكُنْ خُبْزٌ فِي كُلِّ الأَرْضِ، لأَنَّ الْجُوعَ كَانَ شَدِيدًا جِدًّا. فَخَوَّرَتْ أَرْضُ مِصْرَ وَأَرْضُ كَنْعَانَ مِنْ أَجْلِ الْجُوعِ. ١٤فَجَمَعَ يُوسُفُ كُلَّ الْفِضَّةِ الْمَوْجُودَةِ فِي أَرْضِ مِصْرَ وَفِي أَرْضِ كَنْعَانَ بِالْقَمْحِ الَّذِي اشْتَرُوا، وَجَاءَ يُوسُفُ بِالْفِضَّةِ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ. ١٥فَلَمَّا فَرَغَتِ الْفِضَّةُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ وَمِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ أَتَى جَمِيعُ الْمِصْرِيِّينَ إِلَى يُوسُفَ قَائِلِينَ: «أَعْطِنَا خُبْزًا، فَلِمَاذَا نَمُوتُ قُدَّامَكَ؟ لأَنْ لَيْسَ فِضَّةٌ أَيْضًا». ١٦فَقَالَ يُوسُفُ: «هَاتُوا مَوَاشِيَكُمْ فَأُعْطِيَكُمْ بِمَوَاشِيكُمْ، إِنْ لَمْ يَكُنْ فِضَّةٌ أَيْضًا». ١٧فَجَاءُوا بِمَوَاشِيهِمْ إِلَى يُوسُفَ، فَأَعْطَاهُمْ يُوسُفُ خُبْزًا بِالْخَيْلِ وَبِمَوَاشِي الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَبِالْحَمِيرِ. فَقَاتَهُمْ بِالْخُبْزِ تِلْكَ السَّنَةَ بَدَلَ جَمِيعِ مَوَاشِيهِمْ.

١٨وَلَمَّا تَمَّتْ تِلْكَ السَّنَةُ أَتَوْا إِلَيْهِ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ وَقَالُوا لَهُ: «لاَ نُخْفِي عَنْ سَيِّدِي أَنَّهُ إِذْ قَدْ فَرَغَتِ الْفِضَّةُ، وَمَوَاشِي الْبَهَائِمِ عِنْدَ سَيِّدِي، لَمْ يَبْقَ قُدَّامَ سَيِّدِي إِلاَّ أَجْسَادُنَا وَأَرْضُنَا. ١٩لِمَاذَا نَمُوتُ أَمَامَ عَيْنَيْكَ نَحْنُ وَأَرْضُنَا جَمِيعًا؟ اِشْتَرِنَا وَأَرْضَنَا بِالْخُبْزِ، فَنَصِيرَ نَحْنُ وَأَرْضُنَا عَبِيدًا لِفِرْعَوْنَ، وَأَعْطِ بِذَارًا لِنَحْيَا وَلاَ نَمُوتَ وَلاَ تَصِيرَ أَرْضُنَا قَفْرًا».

٢٠فَاشْتَرَى يُوسُفُ كُلَّ أَرْضِ مِصْرَ لِفِرْعَوْنَ، إِذْ بَاعَ الْمِصْرِيُّونَ كُلُّ وَاحِدٍ

حَقْلَهُ، لأَنَّ الْجُوعَ اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ. فَصَارَتِ الأَرْضُ لِفِرْعَوْنَ. ٢١وَأَمَّا الشَّعْبُ فَنَقَلَهُمْ إِلَى الْمُدُنِ مِنْ أَقْصَى حَدِّ مِصْرَ إِلَى أَقْصَاهُ. ٢٢إِلاَّ إِنَّ أَرْضَ الْكَهَنَةِ لَمْ يَشْتَرِهَا، إِذْ كَانَتْ لِلْكَهَنَةِ فَرِيضَةٌ مِنْ قِبَلِ فِرْعَوْنَ، فَأَكَلُوا فَرِيضَتَهُمُ الَّتِي أَعْطَاهُمْ فِرْعَوْنُ، لِذلِكَ لَمْ يَبِيعُوا أَرْضَهُمْ.

٢٣فَقَالَ يُوسُفُ لِلشَّعْبِ: «إِنِّي قَدِ اشْتَرَيْتُكُمُ الْيَوْمَ وَأَرْضَكُمْ لِفِرْعَوْنَ. هُوَذَا لَكُمْ بِذَارٌ فَتَزْرَعُونَ الأَرْضَ. ٢٤وَيَكُونُ عِنْدَ الْغَلَّةِ أَنَّكُمْ تُعْطُونَ خُمْسًا لِفِرْعَوْنَ، وَالأَرْبَعَةُ الأَجْزَاءُ تَكُونُ لَكُمْ بِذَارًا لِلْحَقْلِ، وَطَعَامًا لَكُمْ وَلِمَنْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَطَعَامًا لأَوْلاَدِكُمْ». ٢٥فَقَالُوا: «أَحْيَيْتَنَا. لَيْتَنَا نَجِدُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْ سَيِّدِي فَنَكُونَ عَبِيدًا لِفِرْعَوْنَ». ٢٦فَجَعَلَهَا يُوسُفُ فَرْضًا عَلَى أَرْضِ مِصْرَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ: لِفِرْعَوْنَ الْخُمْسُ. إِلاَّ إِنَّ أَرْضَ الْكَهَنَةِ وَحْدَهُمْ لَمْ تَصِرْ لِفِرْعَوْنَ.

٢٧وَسَكَنَ إِسْرَائِيلُ فِي أَرْضِ مِصْرَ، فِي أَرْضِ جَاسَانَ، وَتَمَلَّكُوا فِيهَا وَأَثْمَرُوا وَكَثُرُوا جِدًّا. ٢٨وَعَاشَ يَعْقُوبُ فِي أَرْضِ مِصْرَ سَبْعَ عَشَرَةَ سَنَةً. فَكَانَتْ أَيَّامُ يَعْقُوبَ، سِنُو حَيَاتِهِ مِئَةً وَسَبْعًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً. ٢٩وَلَمَّا قَرُبَتْ أَيَّامُ إِسْرَائِيلَ أَنْ يَمُوتَ دَعَا ابْنَهُ يُوسُفَ وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَضَعْ يَدَكَ تَحْتَ فَخْذِي وَاصْنَعْ مَعِي مَعْرُوفًا وَأَمَانَةً: لاَ تَدْفِنِّي فِي مِصْرَ، ٣٠بَلْ أَضْطَجعُ مَعَ آبَائِي، فَتَحْمِلُنِي مِنْ مِصْرَ وَتَدْفِنُنِي فِي مَقْبَرَتِهِمْ». فَقَالَ: «أَنَا أَفْعَلُ بِحَسَبِ قَوْلِكَ». ٣١فَقَالَ: «احْلِفْ لِي». فَحَلَفَ لَهُ. فَسَجَدَ إِسْرَائِيلُ عَلَى رَأْسِ السَّرِيرِ.

الإصحَاحُ الثَّامِنُ والأَرْبَعُونَ

١وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّهُ قِيلَ لِيُوسُفَ: «هُوَذَا أَبُوكَ مَرِيضٌ». فَأَخَذَ مَعَهُ ابْنَيْهِ مَنَسَّى وَأَفْرَايِمَ. ٢فَأُخْبِرَ يَعْقُوبُ وَقِيلَ لَهُ: «هُوَذَا ابْنُكَ يُوسُفُ قَادِمٌ إِلَيْكَ». فَتَشَدَّدَ إِسْرَائِيلُ وَجَلَسَ عَلَى السَّرِيرِ.

٣وَقَالَ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ: «اللّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ظَهَرَ لِي فِي لُوزَ، فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَبَارَكَنِي. ٤وَقَالَ لِي: هَا أَنَا أَجْعَلُكَ مُثْمِرًا وَأُكَثِّرُكَ، وَأَجْعَلُكَ

جُمْهُورًا مِنَ الأُمَمِ، وَأُعْطِي نَسْلَكَ هذِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِكَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. ٥وَالآنَ ابْنَاكَ الْمَوْلُودَانِ لَكَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، قَبْلَمَا أَتَيْتُ إِلَيْكَ إِلَى مِصْرَ هُمَا لِي. أَفْرَايِمُ وَمَنَسَّى كَرَأُوبَيْنَ وَشِمْعُونَ يَكُونَانِ لِي. ٦وَأَمَّا أَوْلاَدُكَ الَّذِينَ تَلِدُ بَعْدَهُمَا فَيَكُونُونَ لَكَ. عَلَى اسْمِ أَخَوَيْهِمْ يُسَمَّوْنَ فِي نَصِيبِهِمْ. ٧وَأَنَا حِينَ جِئْتُ مِنْ فَدَّانَ مَاتَتْ عِنْدِي رَاحِيلُ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ فِي الطَّرِيقِ، إِذْ بَقِيَتْ مَسَافَةٌ مِنَ الأَرْضِ حَتَّى آتِيَ إِلَى أَفْرَاتَةَ، فَدَفَنْتُهَا هُنَاكَ فِي طَرِيقِ أَفْرَاتَةَ، الَّتِي هِيَ بَيْتُ لَحْمٍ».

٨وَرَأَى إِسْرَائِيلُ ابْنَيْ يُوسُفَ فَقَالَ: «مَنْ هذَانِ؟». ٩فَقَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ: «هُمَا ابْنَايَ اللَّذَانِ أَعْطَانِيَ اللّهُ ههُنَا». فَقَالَ: «قَدِّمْهُمَا إِلَيَّ لأُبَارِكَهُمَا». ١٠وَأَمَّا عَيْنَا إِسْرَائِيلَ فَكَانَتَا قَدْ ثَقُلَتَا مِنَ الشَّيْخُوخَةِ، لاَ يَقْدُرُ أَنْ يُبْصِرَ، فَقَرَّبَهُمَا إِلَيْهِ فَقَبَّلَهُمَا وَاحْتَضَنَهُمَا. ١١وَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: «لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنِّي أَرَى وَجْهَكَ، وَهُوَذَا اللّهُ قَدْ أَرَانِي نَسْلَكَ أَيْضًا». ١٢ثُمَّ أَخْرَجَهُمَا يُوسُفُ مِنْ بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ وَسَجَدَ أَمَامَ وَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ.

١٣وَأَخَذَ يُوسُفُ الاثْنَيْنِ أَفْرَايِمَ بِيَمِينِهِ عَنْ يَسَارِ إِسْرَائِيلَ، وَمَنَسَّى بِيَسَارِهِ عَنْ يَمِينِ إِسْرَائِيلَ وَقَرَّبَهُمَا إِلَيْهِ. ١٤فَمَدَّ إِسْرَائِيلُ يَمِينَهُ وَوَضَعَهَا عَلَى رَأْسِ أَفْرَايِمَ وَهُوَ الصَّغِيرُ، وَيَسَارَهُ عَلَى رَأْسِ مَنَسَّى. وَضَعَ يَدَيْهِ بِفِطْنَةٍ فَإِنَّ مَنَسَّى كَانَ الْبِكْرَ. ١٥وَبَارَكَ يُوسُفَ وَقَالَ: «اللّهُ الَّذِي سَارَ أَمَامَهُ أَبَوَايَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْحَاقُ، اللّهُ الَّذِي رَعَانِي مُنْذُ وُجُودِي إِلَى هذَا الْيَوْمِ، ١٦الْمَلاَكُ الَّذِي خَلَّصَنِي مِنْ كُلِّ شَرّ، يُبَارِكُ الْغُلاَمَيْنِ. وَلْيُدْعَ عَلَيْهِمَا اسْمِي وَاسْمُ أَبَوَيَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ، وَلْيَكْثُرَا كَثِيرًا فِي الأَرْضِ».

١٧فَلَمَّا رَأَى يُوسُفُ أَنَّ أَبَاهُ وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى رَأْسِ أَفْرَايِمَ، سَاءَ ذلِكَ فِي عَيْنَيْهِ، فَأَمْسَكَ بِيَدِ أَبِيهِ لِيَنْقُلَهَا عَنْ رَأْسِ أَفْرَايِمَ إِلَى رَأْسِ مَنَسَّى. ١٨وَقَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ: «لَيْسَ هكَذَا يَا أَبِي، لأَنَّ هذَا هُوَ الْبِكْرُ. ضَعْ يَمِينَكَ عَلَى رَأْسِهِ». ١٩فَأَبَى أَبُوهُ وَقَالَ: «عَلِمْتُ يَا ابْنِي، عَلِمْتُ. هُوَ أَيْضًا يَكُونُ شَعْبًا، وَهُوَ أَيْضًا يَصِيرُ كَبِيرًا. وَلكِنَّ أَخَاهُ الصَّغِيرَ يَكُونُ أَكْبَرَ مِنْهُ، وَنَسْلُهُ يَكُونُ جُمْهُورًا مِنَ الأُمَمِ».

٢٠وَبَارَكَهُمَا فِي ذلِكَ الْيَوْمِ قَائِلاً: «بِكَ يُبَارِكُ إِسْرَائِيلُ قَائِلاً: يَجْعَلُكَ اللّهُ كَأَفْرَايِمَ وَكَمَنَسَّى». فَقَدَّمَ أَفْرَايِمَ عَلَى مَنَسَّى.

٢١وَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: «هَا أَنَا أَمُوتُ، وَلكِنَّ اللّهَ سَيَكُونُ مَعَكُمْ وَيَرُدُّكُمْ إِلَى أَرْضِ آبَائِكُمْ. ٢٢وَأَنَا قَدْ وَهَبْتُ لَكَ سَهْمًا وَاحِدًا فَوْقَ إِخْوَتِكَ، أَخَذْتُهُ مِنْ يَدِ الأَمُورِيِّينَ بِسَيْفِي وَقَوْسِي».

بشكل عام نلاحظ أن المرويّات التوراتية قدّمت الأنبياء من إبراهيم وحتى يوسف بشخصيات فردانية واقعية بشكل طبيعي في حين أن القرآن الكريم أظهر الأنبياء برسالة وحدانية وطهرانية تليق بأنبياء اللّه.

وقد أشار زينون كاسيوفسكي في كتابه «الواقع والأسطورة في التوراة»، إلى ذلك بقوله: «لقد حاول الأحبار - محرّرو أساطير التوراة - إظهار إبراهيم نصيراً للوحدانية الصرف وأصبح معروفاً الآن أنهم لم ينجحوا في تحقيق ذلك ففي بعض النصوص بقي يَهْوَه يحتفظ ببعض صفات الإله القبلي البدائي».

كذلك نجد أن روحية النبوّة لم ترافق أنبياء التوراة فظهروا بصورة الخاطئين والممارسين لشتّى صنوف الخطيئة والاحتيال.

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

[illegible]

فهرس المصطلحات

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	الصفحة
	٥٩	٧٦
	٨٢	١٦٤
الأعراف	١٦-١٧	١٦٥
	١٩	٧
	٣٥	١٤١
	٦٣	١٨
	٦٥، ٧١	٦٦
	٧٣، ٦٥، ٥٩، ٨٥	٧٤
	٧٨	٨٠
	٨٥	٨٣، ٨٥
	٩٧-٩٨	٤٥
	١٠٣	٨٥
	١٢١-١٢٢	١٠٤
الأنبياء	٥١	٩٧، ١١٥
	٥٢	٩٩، ١٦٠
	٥٢-٧٠	٩٩
	٧٨	١١٢
	٧٩	١١٢
	٨٠	١١٢
	١٠٧	١٣٨
الأنعام	٤٦	٩٨
	٧٥	١٠١
	٧٦-٧٩	٩٦
	٨٠	١٢٠
	٨٦	١٨٥
	١٥٨	١٤٠
	١٦٤	٥٥
الأنفال	٣٥	١١٧

السورة	الآية	الصفحة
الممتحنة	٤	١٣٤
المؤمنون	٢٤	١١، ١٥
	٢٧	٤٢، ٤٤
النازعات	٣١-٣٣	٦٢
النجم	٥٠	٦٧
النحل	٥-٧	٦٢
	٧٢	٦٥
	٨٠	٦١
	١٢٠	١٠٠
	١٢٤	١٣٤
النساء	٣٤	٢٠١
	٤٨	٩٤
	٩٧	٢٠١
	١٠٨	١٠٦
	١١٦	١٦١
	١٥٢	١٢٩
	١٦٣	١٥
النمل	٤٨	٧٩
	٧٦	٨
نوح	١٠-١٢	٤٦
	١٥-١٦	١٦
	٢٣-٢٤، ٢٥، ٢٨	١٧، ١٦٤
	٢٦-٢٧	٥٥
	٢٨	١٥، ٤٦
النور	٨	٨٩
	٢٧	١٣٥
	٣٥	١٦٢

السورة	الآية	الصفحة
	٣٦	١٠٧
	٦٠	١٠٤
هود	٣٢	١٦
	٣٧	١٧، ٢٣٨
	٤١-٤٢	٥٥
	٤٣	٦٥
	٥٣، ٥٩	٦٧
	٦٥-٦٦	٨١
	٦٧	٨٠
	٧١-٧٣	٢٠٢
	٨٢	١٨٨
	٩١	٨٦، ٨٨
يس	١٢	٢٣٧
	١٣، ٧٨، ٧٩	١٦٢
	٨٠	١٢
يوسف	٤	١١١
	٦	١٢٤، ٢٣٥
	٨	٢٢٥
	١٠	٢٢٥
	١٢	٢٢٦
	١٣	٢٢٦
	١٥	٢٣٨
	٢١	٢٣٢
	٢٢	٢٣٩
	٢٣	٢٣٣
	٢٤	٢٣٥
	٣١	٢٣٢
	٣٣	٢٣٢، ٢٣٤

السورة	الآية	الصفحة
	٣٤	٢٣٤
	٣٥	٢٣٥
	٣٩-٤٠	٢٣٩
	٥٥	٢٤٠
	٨٥	٢٢٤
	١٠٠	٢٢٦
	١١١	٢٩٩
يونس	٩٠	١٠٥




ISBN 978-1-85516-807-7